لارين

رواية

هالة عمر



هالة عمر

لارين: رواية / هالة عمر.

279 صفحة.

رقم إيداع: ٢٢٩٥٤/٢٠٢٣

ترقيم دولى: 978-977-8983-32-6

Mob: +20 114 996 7039

Halaomar2782000@gmail.com

لارين

هالة عمر

الإهداء:

إلى دموعي الصادقة يوم عرفة: لقد استجاب.

هروب

- كيف سأخرج من هنا؟

اقتلعها عبير البنفسج من سؤالها المُلِح، ألقت نظرة على الطريق فوجدت الزهور تغطي جانبيه على امتداد بصرها في منظر سلبها القلق لبضع دقائق، تقدمت بخطوات منهكة وظهر منحنى لا تدري إن كان سبب تقوسه الإرهاق أم الحيرة.

جلست على ركبتيها، وتنفست ببطء فأصبح العبير شهيقًا والخوف زفيرًا، تسللت الطمأنينة إلى عروقها، برغم جهلها أين تقف في هذه الغابة الشاسعة، وكم تبعد عن الدار؟

مشت على مهل في منتصف الطريق الذي يحتضن البنفسج حافتيه، لمحت زهرة بيضاء وحيدة مثلها تمامًا تشتاق لأحد يشبهها فاتجهت نحوها واشتمت رائحتها الممزوجة بشذى البنفسج، تسربت الراحة لداخلها وقد وجدت فيها لُطف المواساة.

استلقت على العشب تداعب بتلات الزهور بشرتها البيضاء التي تمتزج بحمرة خفيفة على خديها، كانت عيناها مكسورتي الطرف وكأن الحزن أراد أن يترك دليلاً أنه فاض في أرجائها.

تنهدت بيأس لم تستطع كبح زمامه، وهي تقبض على وشاحها في محاولة أخيرة للتمسك بأي أمل، فلا تدري ما الذي سيؤول إليه حالها، وهل كُتب عليها البقاء هنا للأبد؟ هذا إن لم تلقَ حتفها، فقد ذهبت ولم تترك وراءها أي علامة تدل على وجهتها.

كاد الهم يغرقها في بحر لجي غير تارك حتى قشة صغيرة تتعلق بها، ران عليها الصمت لتتشتت بين الأفكار، زاغت عيناها أثر تحديقها بالشمس لكن شيئا لامعًا سقط غير بعيد عنها من طائر يحلق انتشلها من بين خواطرها، وقد أثار ذلك انتباهها وفضولها معًا.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

٢/٢

الساعة الواحدة ظهرًا.

أقحمتُ رأسي في الوسادة، أكتم أنيني حتى ضاق نفسي وأوشك أن يفارقني، فتركتها وشهقت أسترده.

أطلت النظر إلى ألبوم يضم صوري، تناولته وبدأت أقلب فيه وأنا أسقي كل ورقة بدموعي قبل أن أنتقل للتي بعدها، كل مرحلة من عمري تفيض بما لا أطيق، أُتهم في كل حين بالتقصير، والإهمال، والرجعية حتى فقدت ثقتي بكل ما أفعله فتقوقعت على نفسي وباتت هذه الدائرة المغلقة تضيق وتضيق حتى التصقت بي وغلفتني تمامًا.

كنت أحلم أن تكون لي صديقات يزاحمن حياتي أو حتى رفيقة واحدة، لكني لم أستطع أن أتخطى حواجزي وأغامر بما تبقى لدي من حب لذاتي، حاولت إيجاد طريقة أخرى بأن أعثر على حلم أكافح من أجله فقد كنت أحب النباتات والكتابة، فاجتهدت كي أتخصص في علم النباتات لكن للأسف لم أستطع تحصيل درجاته، كرهت كل شيء وقتها وازداد بغضي لذاتي وازدرائي لها، لم يكن من حقي حتى أن أعبر عن حزني فقد كانت هذه الجملة الكريهة تلقى في وجهي: "هذه هي قدراتك."

أردت أن أحتج وأصرخ بهم، لكني انقدت خلف صوت داخلي نشر صداه بأنهم على حق، وفجأة وجدتني على أعتاب التدريس للأطفال، طفلة مشوهة موكل إليها إرشاد صغار للطريق السليم وهي التي عاشت سنواتها في التيه والحيرة.

«أحيانًا يضعنا القدر أمام نقاط ضعفنا ليثبت أننا نستطيع التغلب عليها»

كانت تلك هي الفكرة التي وضعت عليها أملي، حتى صباح البارحة الذي تأخرت فيه بضع دقائق عن وقتي فضرب أحد التلاميذ زميله وأسقطه أرضًا فشج رأسه، وعندما وصلت كان الفتي فاقدًا للوعي، إهمال... إهمال.. إهمال، ما الجديد! لا أدري إن كنت أبكي الآن على الولد أم لأنه تم فصلي من عملي.

جلست على المكتب وحاولت أن أكتب لكني لم أستطع فاكتفيت بالتحديق في الورقة والكلمات تضرب رأسي بكل قوتها: أنتِ غير قادرة على تحمل المسؤولية ولا يستطيع أحد الاعتماد عليك.

لا تقدرين على القيام بأي شيء دون أن تفسديه، ولن تقودي أمرك بمفردك أبدًا.

آنستي سامحيني على ما سأقوله، حاولت انتقاء أقل الكلمات قسوة لكنك لا تصلحين لمهنة التدريس، حاولي أن تجدي شيئًا آخر يليق بك.

كتبتُ في منتصف الورقة بخط ضخم، وأنا أنطق الحروف باستسلام:

- الخوف.

دائمًا ما سكن هذا الشبح الكبير قلبي واستحسنه مسكنًا، وأصر أن يكمل طريقه معي كظل أسود لعذابي، وكلما حاولت رفض وجوده والهروب منه فضحني أمام الشامتين وهو يخرج على هيئة ارتجافة في يديَّ، ودموع متكومة بين جفنيَّ، وكلمات تخرج بصوت كسير هامس، وجسد ضئيل جدًا وكأنه لم يكتفِ بأن يقتات على أفكاري. أصبحت أستسلم له وأجلس في الظلام لأعتاده، لطالما كان الظلام يسكنني فأردت أن أسكنه كي يعتاد كل منا الآخر.

بالرغم من مخاوفي كان أبي ملجأي الوحيد، كلما تزاحمت عليَّ الأشجان وضقت بها ذرعًا ذهبت وارتميت بين ذراعيه فأجد خوفي يخر صعقًا ويفر بعيدًا من ذلك الحنان المفاجئ الذي أتى يحتل موطنه.

فتح الباب ببطء وكأنه شعر أنني بحاجته فأتى، أقبل ناحيتي وهو ينحني على رأسي:

- أتيت لأُقبِّل السطوح.

ضحكت مثل كل مرة، كان وجوده وهذه الجملة تحديدًا تجعلني أبتسم تلقائيًا، جلس على السرير فرأى صورتي عندما كنت رضيعة على صفحة الألبوم، فقال وقد زاره الحنين:

- وأنت في هذه السن كنت أدخل عليك ليلاً وأجدك تضعين خنصرك في فمك وتلوحين بباقي أصابعك في الهواء حتى يتسلل النوم لعينيك الجميلتين.

أكمل بوجهه البشوش، وقد واساني دون أن أبوح له:

- كنت تجدين مخرجًا عندما لم يكن هناك من يلاعبك ويلاطفك، تفعلين هذه الحركة وتصدرين أصواتًا غريبة وتضحكين، ثم تضربين بقدميك عندما تجديني مقبلاً عليك وكأن الغوث أتاكِ.

وقفنا متجاوران في الشرفة، أرخى ذراعه على كتفيّ مطمئنًا إياي لأحكي له مصابي، كنت ساكنة لم أتكلم لكن عيناي وشت إليه بالكثير، قال وهو يضغط بكفه على كتفي:

- لا تظني أن ثباتك هذا سينطلي عليّ.

لم أنظر إليه لأني إن فعلت سيكتشف ما أداريه، وأنا لا أريد أن أُحزن قلبه الذي شاخ عمرًا على عمره بسبب همومي، اكتفيت بابتسامة ضئيلة، فأكمل قاطعًا تسلسل خواطري:

- أيًا كان الذي حدث علينا أن نتجاوزه معًا يا صغيرتي.

قلت محتجة:

- لم أعد صغيرة يا أبي، إلى متى سأظل أختبئ خلفك بعد كل مشكلة أقع بها؟ بل إلى متى ستتحملني!

احتد بنبرة أصر الحنان أن يترك قبسًا منه فيها:

- حتى نهاية عمري، إلى أن تعجز يداي عن كف الأذى عنك ولساني عن الدعاء لك.

قلت والعَبرات تجثم على أنفاسي:

- كنت أريد أن أجعلك فخورًا بي لكن في كل محاولاتي يموت نجاحي قبل أن يولد.

رفع رأسي بكفيه يحثني على الكلام، لكني آثرت تغيير الموضوع:

- لم تكن طفولتي بالشيء الذي أُحسد عليه أبدًا، اعتادت الوحدة على وجودي في صومعتها، في البداية كان هروبًا ثم اعتدته فأصبح مصيرًا، حتى علاقتي بأمي متوترة للغاية للحد الذي يؤلمني كلما ناديتها وأنا لا أستشعر تلك الكلمة "أمي" أتذكر أني سمعتها يومًا تقول لك أنها لا تريدني أن أقف على غُسلها إن ماتت قبلي، ثم ختمت كلامها وهي تدعوا الله أن يكون يومي قبلها، وقريبًا.. قريبًا جدًا.

انتظرتُ ليلتها أن أبكي لكني لم أفعل، جلست على السرير ورأسي يحوم في أركان الغرفة المظلمة التي تسلل إليها خلسة ضوء خفيف، شعرت بالحزن قليلاً لكني نمت بعدها بهدوء، لم تزرني الكوابيس هذه المرة أو ربما فعلت لكن لم أشعر بها أو لعلي اعتدت وجودها فلم أنزعج.

ابتسم بتوتر فلم يتخيل أني سمعت ذلك الحوار، حاول أن يتماسك ليجعلني أعترف وهو يحتضنني:

- لا تعبأي بما قالت، تعلمين أنها تظن أنك السبب بما عانته فلا تلقي لها بالاً. لكني أظن أن هناك أمرًا آخر سبب لك هذا الضيق؟

استسلمت لإلحاحه فأنا لن أستطيع إخفاء ما حدث عنه:

- لقد طردت من عملي.

قام من مجلسه واتجه ناحية الباب دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثم قال بجدية وهو يمسك مقبضه:

- استعدي.

- أ.. أستـ.. لماذا؟

- سنذهب للبحث عن عمل آخر، هيا أسرعي.

همهمت ببعض الأحرف لكنه أوصد الباب خلفه ولم يترك لي فرصة، ثم عاد وواربه قائلاً بحماس وهو يغمز لي:

- هناك شيء مهم سأخبرك به ونحن على الطريق.

❋❋❋❋❋❋❋

خلعت نعليها وسارت على العشب الندي، تتحسس بأناملها جذوع الأشجار المتينة، وعيناها تدوران بحثًا عن ذلك الشيء اللامع الذي لفت نظرها نحوه قبل قليل، لوهلة شكت بأنه كان يهيأ لها، ألقت نظرة خاطفة وهي تضمر العودة من حيث جاءت لكنها لمحت على فرع شجرة قريب سنجابًا صغيرًا يمسك بين مخلبيه بوصلة ويقضمها، يتشممها، يقلبها باحثًا فيها عما يؤكل.

غلب على ظنها أن ما تبحث عنه هو تلك البوصلة، بحثت حولها عن حجر صغير ترمي به السنجاب لتدفعه لإفلاتها، بعد أن باءت محاولاتها بالقفز، والصفير، والصراخ بالفشل في ردعه عن التمسك بها، بل كان يركض إلى فرع أعلى كلما علا صوتها، خشت التقدم نحوه فهي تخاف من كل شيء لا تضمن رد فعله، أمسكت بحصاة ورمته بها دون أن تصيبه فارتعدت فرائصه وقذف البوصلة مباشرة باتجاهها دفاعًا عن نفسه وردًا على تطفلها فأصابت عينها اليسرى، باغتتها الضربة فتأوهت بألم شديد وانهارت على العشب بعد أن اختل توازنها، بينما فر هاربًا بفعلته.

ظلت تلعنه وتؤنب نفسها على صنيعها، خاصة عندما أمسكت البوصلة فإذا بها مهشمة وزجاجها محطم، بها حواف حادة في أطرافها كادت أن تجرح إبهامها لولا أن انتبهت وهي تسير به على الثنيات والخربشات التي ملأت هيكلها، كانت غريبة بها تجويف لبصمة إصبع بدون أن تفكر وضعت إبهامها داخله فأنارت البوصلة وتوهجت والتصقت بإصبعها ففزعت وحاولت الخلاص منها لكنها لم تستطع، فار الدم في عروقها وانتفضت واقفة تتلفت وهي تحاول فصلها عن أنملتها وكلما قاومتها كانت تتألم، حاولت أن تهدأ رغم ارتجاف جسدها، شعرت بنبض ووخزات متتالية وتيار كهربي ضعيف جدًا ينتقل من البوصلة لإصبعها ثم خدر وكأن هناك ما يُسحب منها، وما هي إلا ثوان معدودة حتى اختفى الضوء وسقطت بمفردها.

حاولت فتح عينها لكن الصداع لم يبارحها، أرخت ظهرها على جذع الشجرة بهلع وهي تفتح حقيبتها لتجد زجاجة الماء قد أوشكت على النفاذ، كان جوفها جافًا، رفعت القنينة في محاولة لالتقاط القطرات القليلة وتفحصت المكان حولها لعلها تجد جدولاً صغيرًا مثل الذي عثرت عليه ليلة أمس لكن رجاءها لم يثمر، أطالت التدقيق في طريق العودة لازالت ذاكرتها تحتفظ بمكان نبع الماء، تأملت مؤشر البوصلة الذي لاحظت تغير اتجاهه، وقد كان يوجه إلى طريق معاكس لطريق النبع، التفتت يمينًا ويسارًا فإما المجهول أو المضمون، شعور ما همس في أذنها أنه الخلاص فتركت جماح ساقيها وركضت كما يدلها سهم البوصلة، لم تكن تعلم إلى أين سيأخذها كانت تتبع ظنها فقط، ذلك الحدس الذي طالما خيبها، لكن هذه المرة إحساس ما أقنعها بلا أدلة بأن هناك شيئًا مختلفًا سيحدث، لم تدرك ماهية الشعور الذي نبع بداخلها فجأة لكنها آمنت به واتبعته.

قبل ثلاثة ليال من الآن كانت تخشى الظلام والجلوس بمفردها في العتمة، لكن منذ ضياعها في الغابة تحررت من الخوف، فإنّا نتغلب على الخطر عندما توضع

حياتنا في الكفة المقابلة حينها تصحو غريزتنا المُحبة للبقاء، ونصرخ بكل ما أوتينا من قوة: تبًا للخوف، لا شيء سيوقفنا.

تراجعت عن حديث نفسها الأخير مستهزئة به، لأنها دائمًا ما كانت تميل للوحدة والجلوس في العتمة لكن كان ذلك في حدود منزلها الدافئ، أما هنا يصبح الانفراد لعنة، والعتمة جوًا ملائمًا لتكالب الهموم على المرء، حاولت التقاط أنفاسها، وهزت رأسها بيقين وهي تقول بصوت مسموع قبل أن تواصل الركض:

- تبًا للخوف لا شيء سيوقفني.

تعثرت بخرقة بالية بداخلها شيء صلب آلم أصابع قدماها عندما اصطدمت به، مدت يدها بحذر بعد أن اعتدلت من سقطتها وهي تزيح القماشة القديمة عنه كان أشبه ما يكون بالكتاب، رفعته فرأت الوحل أسفله لازال لينًا وقد اتخذ شكله فاستنتجت أن تركه هنا كان حديثًا جدًا، لكن لماذا تخلى عنه صاحبه؟ يبدو من مظهره أن مالكه كان يعتني به كثيرًا، لكن ها هو كبَّه في الوحل دون أن يهتم كبعض الناس الذين يحملون معك همومك وأثقالك ثم يمنون عليك بصنيعهم قبل أن يتخلوا عنك في كرب أعظم ويرحلون، كان عنوانه "الجسور الخمسة" إنه كتاب غريب لم ترَ مثله من قبل.

توقفت قليلاً ونظرت إليه بارتياب فماذا لو كان كتابًا للسحر واستدعاء الجان وقد تخلص صاحبه منه؟ طرحت الكتاب أرضًا بذعر بعد خاطرها الأخير ثم ما لبثت أن غلبها تطفلها فأخذته وهمَّت بالجلوس على الأرض العشبية، شعرت بالدوار والحاجة إلى الغثيان، أمسكت برأسها، ندت عنها آهات واهنة وهي تغمض عيناها بقوة...



٢/٢

الساعة الثامنة مساء

وقفتُ أتلفت في الظلام الذي اكتنفني بين ذراعيه وترك عيناي تتذبذبان في حيرة، سرت على الرمال الباردة والتيه يعوق خطواتي المتوترة، ثم خلعت نعلاي ليتيسر المشي عليَّ.

كان يتابعني من بعيد وقد انتابه الفضول عما أبحث فاقترب مني وأنا أردد في قلق حتى أني لم ألحظ وجوده:

- لقد ضاع المفتاح، هل سقط في الماء دون أن أنتبه؟ ماذا سأفعل!

تمهلني عارضًا المساعدة:

- صِفيه لي وسأبحث معك.

انتزعني صوته من خوفي وضيق صدري إلى رحابته، لقد بدى وجهه مألوفًا لي لكن لم يسعني تذكره حينها، طردت ذلك الخاطر الدخيل الذي أتى في غير موعده، وقلت وأنا أحرك كفاي بعشوائية وأصفه:

- إنه مفتاح متوسط الحجم في ميدالية خضراء، وكنت قد علقت قرطي الدائري بها لأنه آلم أذني.

حسنًا حسنًا أنت لا تحتاج كل هذا لكي تجده، إنه مفتاح مُعلق بميدالية خضراء بها قرط دائري فقط، هذا فقط.

تبسم ضاحكًا من طريقة كلامي، وسألني:

- أخبريني عن خط سيرك منذ أتيتِ لكي نستطيع العثور عليه بسهولة؟

- أجل أجل بالطبع لقد أتيت من هذا الطريق، ثم جلست هنا على المقعد قليلاً و.. وبعد ذلك.. لا أذكر لقد جذبت انتباهي صدفة صغيرة أحببت شكلها، ثم أعجبتني أخرى بعيدة عنها قليلاً ولم أنتبه للوقت إلا عندما لاحظت ضياع المفتاح.

وضعت يدي في جيبي أتفحصه، صحت بجزع:

- الأصداف! أين هي.. لاااا أين تركتها؟

- مهلاً ها هي في جيبك الآخر على ما يبدو.

نظرت إليه على استحياء عندما تأكدت من وجودها ثم تهربت منه وأنا أرتدي حذائي وأعيد البحث، فسألني وأنا أبعثر الرمال يمينًا ويسارًا:

- هل أتيت إلى هنا من قبل؟

- هذا الشاطئ يحمل بين طياته ذكريات موجعة لطفولتي، لذلك عاهدت نفسي ألا آتي إلى هنا أبدًا، لكني أخلفت للمرة الثانية وكأن ألمًا واحدًا لا يكفي.

- ماذا تعنين؟

أدرت ظهري متجاهلة سؤاله، واستمريت بالتفتيش عن المفتاح فبدأ البحث وقد فهم رغبتي في عدم التطرق إلى هذا الأمر، فتشنا كثيرًا حتى أنهكنا التعب وانعدمت الرؤية، شكرته بلطف مصطنع وابتعدت عنه عائدة إلى المنزل بعد جهدي الذي راح هباء:

- ماذا ستفعلين، هل لديك نسخة أخرى؟

أشرت بلا مبالاة وأنا أسبقه بعدة خطوات لأرتدي حذائي:

- سأتصرف لا تشغل بالك، شكرًا لك جزيلاً.

سار على خطواتي حتى حاذاها، وقال مستفهمًا:

- ألستِ مستاءة؟

- لا، أقصد أني تضايقت بالطبع عندما أدركت ضياعه، ولكن فلنعتبر أنها كانت هديتي للبحر، هو أعطاني الأصداف وأنا أهديته قرطي والمفتاح.

- لكنه ضاع منك.

- ومن قال لك أني أخذت من البحر أصدافه برضاه؟ ربما هو أيضًا غير راضٍ عن فعلتي فأخفى المفتاح عني مفصحًا عن ضجره من تطفلي، لقد خبأه ليذيقني مرارة فقد شيء ثمين، ربما هذه الفوضى التي تحدثها الأمواج ما هي إلا ثورة منها على ما نسلبه كل يوم، وربما يُغرق البحر بعضنا تحقيقًا للقصاص، فهو يأخذ منا كما نأخذ منه.

استرقتُ نظرة إليه بطرف عيني، وأنا أتمتم:

- بالطبع ستقول بأني مجنونة، والآن يا سيدي اسمح لي ولا تمشي بجوار مجنونة.

- لـ.. لكن، أنا لم أقل هذا لما غضبت!

توقفت في مكاني، وقلت ونبرة الغضب تعتكف في صوتي:

- منذ بضع دقائق كنت تقدم العون، أما الآن ألا ترى بأنك متطفل اسمح لي رجاء بالذهاب ولا تتبعني.

- لكن..

التفت سائلة وقد غلبني الفضول:

- هل رأيتك من قبل؟

عاينته بنظرة عابرة، ثم أكملت طريقي بعد أن تسمر في مكانه ونفى ذلك، في الحقيقة لقد كنت سعيدة ولم أرد تعكير صفو يومي، بالرغم من أني لم أستطع العثور على عمل هذا اليوم، لكن والدي أعطاني ونحن على الطريق صندوقًا أنيقًا، وقال أنه وصلني عبر البريد اليوم، أنا دون غيري.. ولأول مرة! صحيح أن اسم المُرسِل كان في علم الغيب لكنني سررت من هذه الرسالة التي خُبئت في قعر الصندوق، تحسسته برفق وأخفيته في ثيابي، أخذت الطريق ركضًا حتى قفزت على سريري، لا أدري كيف ولا متى وصلتُ لكن هذا لا يهم، أخرجت محتوياته بحرص لقد كان مليئًا بالأصداف البحرية بأشكال متعددة وألوان رائعة، في صغري كنت أهوى جمع الأصداف حتى أني مازالت أحتفظ بها كلها، ترى من ذاك الذي نبَّش في ماضيّ وأعاد لي الحياة، وأهداني هذه الفرحة على حين غرة؟

قرأت السطور القليلة: "أنتِ نادرة، لذلك لن أهديك باقة من الزهور أعبر فيها عن حبي كما يفعل أي شاب إن أحب فتاة، دعيني سيدتي أشاركك أثمن ما لديّ: إن هذه المجموعة من الصَدف هي الأفضل والأقرب لقلبي، وعندما رأيتك تجمعينها على الشاطئ غمرتني السعادة بأن يكون هذا الأمر مشتركًا بيننا وأطمع أن نتقاسم المزيد.

من شخص أصغيتِ إليه فاحتويتِ حزنه دون أن تنطقي بكلمة، أو تَمُني عليه بنظرة مطولة! "

ضممت الرسالة إلى صدري وهويت على الفراش وكل شيء في داخلي ينبض بالحماس، فسبحانه كيف يُغير الأحوال في الصباح فقدت أملي في الحياة وعندما أتى المساء بعثني من جديد.



وضعت يدها على وجهها تحتمي من لفحة الشمس، نظرت لزجاجتها الفارغة بحسرة فقد طال جهادها وغلبها الظمأ بكل أطيافه.

أمسكت بالكتاب، الكتاب؟

لم تكن تدري إن صحَّ أن تسميه كذلك فهو لا يشبه الكتب، كان غلافه شفافًا رغم سُمكه وعليه علامات مائية ملونة استوقفتها هذه الأشكال قليلاً، لكن فضولها دفعها لتقليب الصفحات التي لم تقل في شفافيتها عن الغطاء، رفعت صفحة عشوائية منه إلى السماء ونظرت من خلالها فرأت السحاب وفروع الأشجار وهي تتعانق، لاحظت شيئًا غريبًا جحظت له عيناها فالأصابع التي تمسك بها الصفحة لا تظهر على الجهة الأخرى! انتصب ظهرها ووضعت كفها وراء هذه الصفحة ثم أخرى.. فثالثة كانت تُبرز جذوع الأشجار والسماء والتربة وتخفي يدها، وكأن الكتاب أراد أن يصون نفسه عن كل ما هو بشري!

التبس الخوف بالاستنكار فابتلعت ريقها بصعوبة وهي تعيد غلقه، تأملت الإطار المنقوش بما يشبه القبب البيضاء، وفي منتصف الدفة اليمنى صُمم شكل القمر في تمامه يحتضنه شكل ضبابي مبهم، بدت وكأنها حروف متشابكة لكلمة ما استعصى عليها قراءتها فلم تكن تعرف بدايتها من الختام، بعد محاولات يسيرة قرأتها:

- مآب.

كانت تلك الكلمة تعني "المَرجِع" ألقت نظرة على القفل النحاسي المكسور الذي تدلى من الدفة اليسرى للكتاب الأيسر كان عليه نقوش ثلجية اللون لثمانية مفاتيح في نفس الطول تقريبًا، وبجوار مكان القفل نقش لخاتم ذو فص بني.

عاودها الشعور بالدوار مجددًا فاستقامت واقفة وهي تضغط على رأسها وتتلفت باحثة عن الماء فقد جف حلقها، أعادت الكتاب إلى القماشة المهترئة ثم حملته وركضت عائدة إلى نبع الماء قبل أن يتلاشى مكانه من ذاكرتها.

تساءلت أثناء سعيها: لماذا؟ لما أخذت الكتاب معها؟ قد يكون غير آمن، أم تراها سلمت بطول مكوثها هنا وأرادت شيئًا شيقًا يسليها؟ أو لعله يكون سببًا في رجوعها إلى المنزل، لكن ما العلاقة!

إنها تضع مبررات لكي تغطي على حس المغامرة الذي يدغدغ نقطة ضعفها، هل تراها تجد حلاً له بعد أن كانت في السنوات السابقة لا تجيد شيئًا سوى الوقوع في المآزق؟ ربما تكون هذه نقلة هامة في حياتها، هزت رأسها رافضة سيل الأفكار

الأخير لقد عاهدت نفسها ألا تضع أملاً على أي شيء، فبمجرد عودتها إلى البيت ستنسى كل ذلك، وربما يكون ما تعيشه الآن مجرد حلم اختلقه عقلها الباطن للسخرية منها.

لم تنتبه إلا وقد وقفت أمام الجدول الصغير محاولة استعادة أنفاسها وشتاتها، انحنت على ركبتيها وأغدقت منه شربًا حتى ارتوت ثم ملأت الزجاجة حتى عنقها، وأخذت نفسًا عميقًا وهي تعود لشاغلها، أعادت فتح القماشة فرأت أسفلها ظرفًا يتدلى منه طرف منديل قماشي لم تلاحظه سابقًا فنحته جانبًا ومرت بأناملها على غلاف الكتاب الذي به مجموعة من الصخور المتراصة بطريقة تشبه القبور في تنسيقها، تتدلى عليها أوراق التوت بترتيب عشوائي محير، وفوقها كانت هناك رفوف خشبية معلقة على جدار تحتوي تماثيلاً شمعية وكتبًا وصناديقًا صغيرة توحي هيأتها بكونها باهظة، أطالت النظر إلى تفاصيل الغلاف في محاولة لاستنباط ما يواريه، قلبت الكتاب على الناحية الأخرى فوجدت رسمًا لكوخ يتوسط بحيرة يربط بينه وبين اليابسة خمسة جسور خشبية بسيطة الصنع، استنتجت أن هذا المكان هو سبب تسمية الكتاب بهذا الاسم: **"الجسور الخمسة"**

أدارت الكتاب مجددًا في عدم استيعاب، فما هي الصلة بين كل هذا؟

أغمضت عيناها بقوة موقنة أنها عندما تفتحهما سيختفي كل ذلك ثم واربتهما بتوجس لتجده لازال مستقرًا في مكانه، استيقظت الدهشة في محياها تلتها ابتسامة تحد، التقطت الظرف الذي كان شاحبًا عليه بقع بنية باهتة بدت وكأنها دماء مضت عليها سنوات طوال، أكد ظنها تلك البصمات التي رأتها في بطانته الداخلية وأطراف المنديل القماشي، لقد كانت عليه دماء جافة مبعثرة في أنحائه، رفعته بتقزز وريبة فسقط منه خاتم فصه بني، ارتعشت أطرافها وهي تلتقم الكتاب بعينيها باحثة عن رسم ذلك الخاتم، أجل لقد كان هو.. هو تمامًا**!**

وضعت الكتاب جانبًا وانقباض في فؤادها لا يبرحها منذ تعثرت بهذه الخرقة، ابتلعت شكوكها لكنها أبت إلا أن تدلي بدلوها وتزيد من توترها، فماذا لو كانت جريمة قتل مثلاً وقد كان القاتل يخفي هذه الأشياء ليحمي نفسه ورأى أن الوقت مناسب الآن للتخلص منها؟ لم تكن يومًا تحب ذلك النوع من الأحداث، بل تهرب منه إن قفز أمامها في شاشة التلفاز أو اسم رواية، لكن ها هو الآن يفرض نفسه عليها في الواقع، لم يكن أمامها خيار آخر ستهرب مثلما تفعل دومًا، فحياتها تدمرت بشكل كبير ولا تريد أن تقحم نفسها في مشاكل أخرى.

استقامت واقفة ودفعت الكتاب بقدمها بعيدًا في غضب، صرخت حالما عاودتها أشباح الماضي:

- أريد أن أخرج من هنا.

ثم أجهشت في البكاء والنحيب بحرقة وعجز، أرعبها صوت تسلل شيء ما خلف الشجيرات، فتوقفت الدموع من عينيها، وارتجفت وهي تنادي بصوت خفيض متنبهة لأي حركة مباغتة:

- "هادي"؟

شدَّت الكتاب نحوها بتأهب وحذر فلم تجد شيئًا غيره ثقيلاً لتدافع به عن نفسها، لكن الأرجاء هدأت فجأة فلملمت الأشياء في حقيبتها بفوضى ويدان متجمدتان وفرت هاربة، هرولت ضامة حقيبتها بما تحتويه إلى صدرها، مُحكمة قبضتها عليها كما لو أنها جزء منها، ركضت في سباق جنوني وأنفاسها تتقطع بين حين وآخر، لم تستطع التوقف من شدة ذعرها، استرقت النظر وراءها لترى هل هناك من يتبعها، ثم أعادت النظر أمامها فشهقت بذعر وأطلقت صرخة فزع مدوية كان لها صدى حاد وهي تحاول كبح زمام ساقيها اللتان تقودانها مباشرة إلى مشارف هاوية...

❄ ❄ ❄ ❄ ❄ ❄ ❄

٣ / ٢

-"إياكِ وتسريح شعرك بمشطي مجددًا سأصاب بالعدوى، إن قمت بتكرارها فسيكون عقابي قاسيًا."

وقعت كلماتها عليّ كالصاعقة وآلمتني وكأنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام، أردت أن أصرخ بها: "وهل هناك شيء تجيدينه معي غير القسوة!" لكن كلماتي عصتني ولم تطاوعني فأطرقت رأسي أرضًا وأنا أعيد المشط لمكانه، قالت والغضب يتلوى على صوتها فخرج مخنوقًا:

- ماذا تفعلين؟ خذيه وألقيه في سلة المهملات فبالتأكيد لن أستعمله بعدك.

كتمت دموعي وقتها بصعوبة لأني بالفعل كنت مخطئة، لكن غلظة حديثها أجبرت دمعي أن يهطل حالما أدرت ظهري، وهو نفس الشيء الذي جعلني أمسح عَبراتي

بصلابة عندما سمعت وقع خطواتها ورائي فتحاشيت النظر إليها وأنا أتجه لغرفتي، وأغلق الباب برفق وأنهار خلفه بقوة.

لقد ذكرني حالي حينها عندما كنت في الابتدائية، كنت فتاة منطوية تلصق كتفها بالجدار لتستمد بعضًا من ثباته تخشى الاقتراب من بقية الأطفال والتعامل معهم بأريحية، حرصت دائمًا على إمساك طرف كمي بأصابعي خاصة يدي اليسرى وقد كان ذلك عسيرًا لأني أكتب بها، تساءل زملائي عن سبب هذه العادة الغريبة التي تعوق كتابة دروسي أحيانًا ولعبي معهم أحايين، كنت أهرب من الإجابة حتى أتي ذلك اليوم المشؤوم الذي دفعت فيه إحدى رفيقاتي صديقتها وهما تلعبان فاصطدمت بي وسقطت أرضًا وكُشف ذراعي، اشمأزت الفتاتان:

- ما هذا!

لم يؤلمني وقوعي بقدر ما أوجعتني نظراتهما، كان ذراعي ملتهبًا بشدة وعليه نقاط من الدماء وخدوش إثر حَكي فيه طوال اليوم، انتفضت من مكاني لأخفيه وركضت ناحية الحمام، جلست خلف الباب جلستي هذه وكأنها أصبحت رمزًا لإعلان هزيمتي أمام ما ترميه الدنيا في طريقي وأتلقاه بكفين صغيرين محاولة إيقاف تقدمه فينفجر في وجهي ويتخللني ويضع رَحله في قلبي دون استئذان، بكيت ما شاء الضيق لي أن أفعل ثم عدت إلى صفي فوجدت الخبر قد انتشر، والجميع ينظرون لي بريبة، أخذت الفتاتان الجالستان بجواري حقيبتيهما وجلستا في الخلف بعيدًا عني وهما تتطلعان لي بخوف لم يرتبا له، لم يكن ما يعذبني كلامهم أو نظراتهم التي كنت أتحملها بمرارة لأنهم كانوا على حق ولن يشعروا بي أبدًا، فقد كانوا يروني شخصًا غريبًا عنهم، الذي كان يتعبني حقًا أنهم كانوا يضعون على عاتقي ما لا أطيق، لأنهم كانوا يشتكون من شيء لم أكن أملك القدرة على كف أذاه عن نفسي، فكيف سأكفه عنهم إلا إذا تجنبتهم؟ "

شعرت بيده يدي بحنان حتى أني لا أتذكر متى قمت من خلف الباب ونمت على الأريكة:

- كيف حال صغيرتي؟ أراك ساهمة حتى أنك لم تسمعي طرقاتي على الباب.

وضعت رأسي بالقرب من فؤاده أنشد فيه الأمان وأغمضت عيناي، ثم نظرت إليه وسألته والاستياء يكسر أحرفي:

- لماذا لا ننسى الكلمات التي تحزننا يا أبي؟ لما تلاحقنا باستمرار؟

مسح على رأسي برأفة:

- لأننا نهرب منها، نقاومها ونتناساها فتتشبث بنا أكثر، فيصبح ألمها أثقل.

- وإن واجهناها فإننا نعاني أيضًا، خاصة عندما لا يسعنا تغيير شيء.

- أفهم ما ترمين إليه.. عليك أن تتذكري دومًا أن ذلك الذي عاب نقصًا فيك لديه خلل أعظم في شخصِه، وإن كانت قبيحته الوحيدة هي كونه لا يبالي أين وكيف تقع كلماته في نفس سامعه فإنها آفة كافية لسلب قدر كبير من إنسانيته.

- كيف أتجاوز ذلك؟

- هذا السؤال خصيصًا يجب أن تعرفي إجابته بمفردك.

أكمل وهو يقبل رأسي مستعدًا للخروج:

- فتاة قوية مثلك ستجد الجواب المناسب لكل شيء يتعبها، أنا واثق من ذلك.

أمسكت كفه وقلت بيقين:

- أتجاوز بك يا أبي.

قبَّل رأسي وخرج مغلقًا الباب خلفه، فجلست على مكتبي ساعات دون أن أنتبه للوقت حتى تراكمت حولي الكثير من الأوراق التي راحت ضحايا لأفكاري نصف المكتملة، قمت عن الكرسي بغضب ورميت بقلمي وأنا أدك الأرض دكًا وأحاول مقاومة فشلي، أخذت نفسًا طويلاً ثم ضممت الأوراق المبعثرة إلى سلة المهملات، وأخذت واحدة جديدة، كانت الكلمات تتضارب في رأسي ولكني لم أكن أستطيع صياغتها كما أتخيلها، بل أجد نفسي أكتب جملاً ركيكة لا تمت بصلة لتلك العبارات التي اقشعر لها بدني عندما زارت خاطري.

أمسكت الكتاب الذي أسرق بعض سطوره كل ليلة قبل نومي، وبدأت أتأملها وأتساءل عن كم الأفكار التي لم يستطع الكاتب أن يضعها بين دفتيه وتركها معلقة بذهنه بعد أن حاول جاهدًا أن يكتبها بطريقة تلهب عقل القارئ.. ترى كيف كانت خيبته!

وكيف تغلب على هذه الزلات وأصبح يتصيد الكلمات القوية ويسلسلها في مكانها الصحيح حتى إذا مرت عينا القارئ عليها هزت أركانه، وأشعلت الحماس في

صدره، وكان نتاجًا لمجهوده العظيم أن كتابه هذا أصبح المفضل لديّ، حتى أني قرأته للمرة العاشرة حد تذكري!

انتشرت رائحة عطر رجالي في أرجاء الغرفة مما جعلني أعود لواقعي بعد أن حلقت بعيدًا بخيالي، توجهت إلى النافذة لأرى صاحب العطر، لابد أنه ضيف أتى لزيارة والدي، لكن ما كان غريبًا أنه لم يبلغني بأنه سيكون لدينا ضيوف الليلة، كان العطر مألوفًا لي، بالتأكيد الآتي من أصدقاء والدي المقربين.

اقتربت من النافذة فازداد نفوذه حتى طغى على أنفي، دققت النظر لكني لم أجد أحدًا، وقد كان الباب موصدًا والضوء شاحبًا في غرفة الجلوس، أعدت النظر في الأرجاء مجددًا وأنا أغلق النافذة، شدت انتباهي صَدفة بداخلها ورقة مثنية دُست بين أعواد الريحان التي تزين شرفتي، التقطها فإذا بها هي مصدر العطر الذي استباح عزلتي، لم يكتب عليها سوى كلمة واحدة:

- للذكرى.

تكرر معي هذا الأمر أيامًا عديدة في نفس الساعة عندما كنت أجلس أمام دفتري أحاول كتابة شيء ما.. أي شيء، كان هذا العطر يشتت تركيزي ويبعثره، ثم يجعله يدور حول التفكير في الفاعل، كان شكي يدور حول والدي لأنها لا توضع إلا عندما أكون وحدي وأنا أكتب، بحثت جيدًا في غرفته وأنا أرتبها عن زجاجة العطر تلك ومع ذلك لم أتوصل لنتيجة، كما أن تصرفات أبي كانت طبيعية للغاية.

حينها راودني طيف الشاب الذي ساعدني في البحث عن مفتاحي، ثم بددت ذلك الخاطر من رأسي فقد وصلتني الأصداف قبل أن أقابله، لا أدري لماذا كنت أتمنى أن يكون هو الفاعل، استغفرت وقررت أن أريح نفسي من عذابها فذهبت في اليوم التالي وانتظرت خلف الشجرة العملاقة التي تطل نافذتي عليها، انتظرت كثيرًا لكن الفاعل لم يظهر، وفي كل مرة كنت أنوي الدخول وترك هذا الأمر كان يجول في خاطري أنه قد يأتي في الوقت الذي سأستسلم فيه، سكنت مكاني حتى مل الانتظار مني، ظننت يومها أنه اختفى إلى الأبد وأنه لن يأتي مجددًا، بل ربما هناك من يستهزئ بي ويجعلني أضحوكة يومه، كان تفكيري هذه المرة منشغل به وليس بأنصاف النصوص التي اعتدت على كتابتها، يبدو أنه قد كُتِب لي أن آخذ شطرًا واحدًا من كل شيء، حتى الآن أنشغل بالأثر ولا أعثر على صانعه.

في اليوم التالي تبخترت الرائحة كالعادة في كل مكان فانتفضت إلى النافذة لعلي أرى واضعها هذه المرة لكن بدون جدوى، أخذت الورقة وخيبة الأمل لصيقة بي،

لاحظت بعض الحروف ففتحت الرسالة ومررت عليها بسرعة، ثم أعدت قراءتها بهدوء:

- "تخيلت أنك ستعرفينني من رائحة العطر لكن لا بأس لأنه هو ما سيجعلك تعثرين عليّ، لن تجدي محاولاتك لمعرفتي نفعًا صدقيني، سآخذ حذري في المرات القادمة فقد كدت تمسكين بي المرة الماضية لكن غطاء رأسك الأبيض فضح أمرك، أنا مدين له بالكثير.

ملاحظة:

أنتِ مضحكة للغاية وأنت تصبين غضبك على الأوراق وتمزقينها، لدي فضول لمعرفة ما تكتبينه.

لحظة، لا تمزقي هذه الآن.. رجاء. "

فارت الدماء إلى رأسي وقطعت الورقة بغيظ ووقفت أمام النافذة صارخة:

- يا لك من وضيع.. لقد مزقتها وإن أمسكت بك سيكون لك نفس المصير.

رأيت ظلاً يتسلل بين الأشجار فقفزت من النافذة لعلي ألحق به...

❈❈❈❈❈❈❈

تماسكت في الوهلة الأخيرة، فتحت عيناها ونظرت لأسفل من فوق المنحدر فملأت الرهبة قلبها وهرعت للخلف، ما عادت قدماها قادرتان على التماسك فهوت أرضًا محاولة جمع أنفاسها، أوشك خافقها أن ينتفض من بين ضلوعها، فقد نجت للتو من موت محتم.

بعد ثوان معدودة انتفضت واقفة تتلفت في قلق، ترى هل سمع أحد صراخها؟ هل هناك من يتبعها؟ وجدت المكان خواء فاطمأنت، تساءلت: "لماذا أهرب؟ أليس من الجيد أن يعثر عليّ أحد وأعود إلى داري بعد كل هذا العناء؟"

ظل السؤال هائما بغير جواب، لكن ما كانت على يقين منه هو أنها لم تعد تثق بأي أحد منذ وقت طويل، ربما يكون ذلك الحرص سبب هلاكها في نهاية المطاف، لكنها تفضل أن تفنى في سبيله على أن تموت بسبب تهورها، طافت ابتسامة ساخرة على جانب شفتيها فمنذ قليل تهورت واختارت الذهاب وراء مؤشر بوصلة على قصد مكان الماء!

ربما يرجع ذلك لكونها تثق في كل شيء عدا البشر، فطالما كان لهم يد في أذيتها.

انبهرت بالمنظر الخلاب أمامها، كانت على ارتفاع شاهق جعلها تشعر وكأنها إحدى السحابات المبعثرة فوق الأشجار المهيبة، والشمس في الغروب بلونها البرتقالي الداكن تضفي ظلاً دافئًا على الغيوم الضبابية التي تغطي هامات الأشجار، سمعت صيحات طائر فنظرت لتجده يحلق فوقها، ريشه أسود يخالطه البياض وله ذنَب طويل، كانت تعرفه جيدًا فقد حدثتها جدتها عنه في صغرها، إنه "العقعق" كان العرب يتشاءمون منه قديمًا، قالت متذمرة:

- هذا ما كان ينقصني.

تبعته بعينيها وهو يطير، سقطت منه ريشة بيضاء غير بعيد عنها، سارعت بإمساكها، تحسستها وأغمضت عيناها منتشية وهي تتنهد بسلام داخلي تأمل لو استمر أطول من ذلك.

نغص صوت معدتها راحتها فوضعت راحتها عليها متذمرة وهي تحدث نفسها:

- سيحل الظلام في لحظات قليلة وإن عدت أدراجي باحثة عن طعام فقد أصبح أنا الوجبة المنتظرة لكائن يتضور جوعًا مثلي، قررت مبيت الليلة في مكانها مستأنسة بضوء القمر، وقد أصبح قدومه وشيكًا، نظرت للأعلى وتركت أحلام اليقظة تهدهد مهجتها التي أصبحت باردة خالية من كل معنى تمنت أن تكونه.

لم تشعر إلا وقد أغرقها الليل في ظلماته وتوسط القمر السماء الواسعة ليواسي شرودها كأمل كسير استطاع أن يظل موجودًا رغم العَقبات.

فكت ربطة شعرها البني الداكن فانحدر على كتفيها واصلاً لخصرها في تموجات قليلة، وانكمشت على نفسها تلتمس أمنًا، وأرخت الحجاب عليه، ثم استلقت على ظهرها ضامة الحقيبة إلى صدرها وهي تتأمل السماء التي تزينت زينة سلبت لُبها، غالبت النعاس حتى غلبها.

بعد وقت لا تدري طال أم قصر سمعته يناديها بصوت سخي الحنان، رفعت جفنيها بتثاقل، كانت أنفاسه قريبة من رقبتها فانتفضت تتلفت باحثة عنه لكنها لم تجده، قالت بلهفة:

- "هادي"؟

جربت أن تعاود النوم لكنها لم تجد له سبيلاً، تثاءبت ومدت أطرافها، ضحكت عندما أصدرت معدتها أصواتًا، مالت برأسها متثاقلة تبحث عن شيء تسد به فم الجوع.. نظرت للسماء بعجز، تساءلت وقد استوطن اليأس عقلها:

- أليست الدنيا دار أسباب؟ إذًا ما سبب وجودي هنا ووقوعي في هذا الضيق الذي لا أعثر على مخرج منه؟ أنا هنا منذ أربعة أيام، في كل ليله أنام على يقين أني في حلم وقريبًا سأستيقظ منه، لكني أصحو فلا أجد أي شيء قد تغير.

استسلمت للمسير بغير وجهة كما اعتادت منذ أن كبرت، بل وحتى منذ لحظات ولادتها الأولى، طرقت جذوع الأشجار أثناء مشيها بقوة في غضب واضح ثم بدأت طرقاتها تخفت وتخفت مع طول سعيها وذبول أملها، أليس عجيبًا أن تذبل وهي في غابة ما يميزها كون ما فيها يترعرع بزهو؟ فلا المكان ولا الزمان يبرران انحناء عودها، لكنها كانت في كل حين مختلفة.. متناقضة!

أحست بخدر في قدميها فجلست ثم استلقت تأمل الراحة وفتحت عيناها لتجد الشجرة التي تستظل بظلها مملوءة بالتوت، اتسعت ابتسامتها واعتدلت في الجلوس لتفكر كيف يمكنها الحصول على بضع حبات يقمن طولها؟ لاحظت صخرة كبيرة قريبة من الشجرة مما أوحى لها بفكرة، حاولت إزاحتها قليلاً ناحية الجذع لأنها لم تكن ثابتة ويسهل تحريكها، هكذا ظنت لكنها أصيبت بالخيبة من المحاولات الفاشلة، خاصة بعد أن انزلقت ساقها فالتوى كاحلها بشدة وأصبحت غير قادرة على الوقوف، أسندت ظهرها على الصخرة الضخمة وضمت رأسها إلى فؤادها، وظلت تبكي حتى ارتجف صوتها المُتأوه، لقد أصبحت الدموع هي مؤنستها في الآونة الأخيرة وأمسى الصداع ملازمًا لها، أمسكت رأسها بعزم مجتهدة لتهدأ، أطالت النظر للشجرة بعجز، ودقائق تمر تتبعها أخرى ولا زالت تتأملها بجوف خالي، وجسد بالي بلا فائدة ترجى، واظبت على رميها بالحجارة المبعثرة حولها، لكن إحداها ارتطمت بالغصن بقوة وارتدت لتصيب كتفها الأيسر نهشها الألم.. هذا فقط ما كان ينقصها!

استسلمت وضربت مؤخرة رأسها في الصخرة بغلظة ولم تدرك أثر فعلتها إلا عندما تحسستها فبللت الدماء يدها، صعقت مما رأت فلم تكن تدرك أن ذلك سيحدث، سدت الجرح بقطعة قماش مزقتها من طرف ثوبها بيد مرتجفة، رأت عدة أشجار على مقربة منها فروعها متدلية وبها الكثير من التوت، مصمصت شفتيها بأسف وحسرة:

- كيف لم أنظر جيدًا قبل أن أخاطر بأذية نفسي هكذا؟

تذمرت:

- كيف سأصل الآن إلى هناك بساقي هذه؟ هكذا أنا دائمًا لا أنتظر وأغامر بكل شيء في سبيل الحصول على ما أريد ولا أكلف نفسي عناء التأكد علني أجد نفس الشيء لكن بمتاعب أقل.

أخذت نفسًا طويلاً استجمعت فيه شتاتها، قالت بصوت يمسك الحزم لجامه:

- إنه الوقت الأنسب لأدرب نفسي على هذا، لا يجب عليّ المخاطرة مجددًا ففي كل مرة تصبح النتائج وخيمة.

تحسست عيناها إثر الضربة التي تلقتها أمس من السنجاب في عدم اكتراث، شدّت ناحيتها غصنًا متينًا كان بالجوار واستندت عليه تجر ساقها نحو منقذتها، ضغطت على نفسها واستمرت في التقدم رغم الألم الذي ألمّ بها حتى وصلت.

قفزت قفزة خفيفة بحرص، وأمسكت فرع التوت الأقرب وشدته وهي تهزه بذراع بينما تسندت بالأخرى على الجذع تقاوم فتك الوجع بكاحلها، نجحت في إسقاط قدر كاف لإشباعها.

تأوهت وهي تجلس، حاولت تناول كل ما تطاله يدها، مسحته في ملابسها غير مهتمة بقواعد النظافة وأن الوقاية خير من العلاج، فهنا لا سبيل للعلاج فإما تموت جوعًا أو تموت ومعدتك ممتلئة، وقد كانت الثانية خيارها.

التهمت الحبات بنهم ورمت بظهرها على الشجرة، همهمت بارتياح:

- الآن يمكنني أن أفكر كيف سأتدبر أمري.

أخرجت الكتاب من الحقيبة ووضعته على فخذها متفكرة، قررت أن تتركه وتبحث عن مخرج من هنا، فالمنطق يقول ذلك، وقفت وما هي إلا خطوتها الأولى حتى انكبت على وجهها، صرخت ووجهها ملطخ بالوحل من ألم كاحلها، اعتدلت جالسة وتحسست ساقها وهي تئن:

- لابد أني سأبيت هذه الليلة في مكاني، يا لهذا الآن كيف سأنظفه.

نظرت للشجرة، وابتسمت برضى:

- على الأقل هناك ما آكله.

تناولت الكتاب الذي تجعدت أوراقه بسبب وقوعها عليه، لقد تلوث بالوحل وصبغة التوت التي على سترتها، انبهرت عندما لاحظت ظهور حواف لشيء كان مخفيًا، وعندما وقعت عليه عصارة التوت برز! فتحت الصفحة كاملة أمامها وأخذت حفنة من التوت وعصرته على الكتاب، لقد كان يمتصها حتى تشبع وظهرت صورة كاملة لفتاة تقف على تلة خضراء رافعة يديها في الفراغ وكأنها تحلق، والهواء يطير بثوبها الفضفاض، بدت كلوحة كلاسيكية رسمت بالأسى، العجيب أن صفحة الكتاب امتصت عصارة التوت تمامًا وتحول لون اللوحة تدريجيًا إلي البني، فبدت وكأنها مرسومة بالقهوة.

دائمًا ما كانت فضولية لا تسمح لشيء بأن يمر أمامها دون أن تجد له تفسيرًا، وصل حماسها لذروته، فاحتضنت الكتاب وجمعت بقية الأشياء، قالت بنبرة صارمة:

- لن أتركه.

رفعت الشال عن رقبتها، ولفته حول كاحلها وهي تنظر إليه بازدراء فمن المفترض أن لونه كان أبيضًا لكنه تحول للرمادي كسائر جسدها المتسخ، كانت تتهرب من فكرة أنها لم تستحم طوال هذا الوقت وشعور القرف يلازمها، لم تكن قادرة على مزيد من جلد الذات ففي النهاية الأمر ليس بيدها، قاومت ووقفت متثاقلة برغم العجز الذي ينخر عظامها، لم تكن لتجلس دقيقة أخرى في مكانها فكلما طالت مدة البقاء في الغابة كلما لاقت المزيد من المتاعب، ولا تدري ما الأسوأ من حالتها تلك، تحاملت على عصاها المتينة، وسارت ببطء تتأرجح في مشيتها، رأت دخانًا كثيفًا يتصاعد في السماء فتهلل وجهها مستبشرًا، واتجهت نحوه تحث الخطى المنهكة، تسللت رائحة الليمون إلى أنفها، اقتربت أكثر فوجدت بيتًا كبيرًا عامرًا بأشجار الليمون يحتضنها سياج خشبي، قطعت الطريق بهدوء تتلفت بحذر بين حين وآخر، رأت فتاة في مثل عمرها تقريبًا كانت تحمل نعجة صغيرة بين ذراعيها، تداعبها.. تتحسسها، كادت تناديها طالبة العون لولا ظهور شاب طويل قوي البنية، خرج من بين الأشجار فجأة حاملاً سلة كبيرة من الليمون، قبّل رأس الفتاة وأعطاها تفاحة خضراء، قضمتها النعجة قبلها بغتة، فضحكا.

وقفت على الناحية الأخرى تنظر إليهما بحسرة عندما راودها طيف "هادي" وأطرقت تنازعها الأفكار:

- هل أطلب منهما المساعدة؟ أشعر أن وجودي لن يلقى ترحابًا من زوجته فبالطبع لن تتقبل حضوري في منزل واحد مع زوجها، حتى ولو أبدت عكس ذلك.

زفرت بضيق:

- كما أني لا أثق بهما، فكيف سيثقان بي؟

لم تشعر بالغصن إلا وقد سقط على السياج الخشبي فأحدث جلبة استدعت انتباههما، التقطته بسرعة، ووثبت تئن عندما صرخ الشاب:

- من هناك؟

ركضت بضع خطوات ثم تعثرت وانزلقت على ركبتيها أمام بعض الشجيرات، فدست نفسها بداخلها، وهي تقاوم انغراس الفروع الشائكة في جسدها، حاولت إيقاف صوت أنفاسها المسموع وهي تضغط على كاحلها باليد الأخرى، أغمضت جفنيها بقوة لتكبح الأنين، وقف الشاب أمام مكان اختبائها تراه بينما هو لا يراها، كان يضع كفيه على خصره ويتفحص المكان بدقة، استدار وسار بين الأشجار وهي تراقبه حتى اطمأنت لابتعاده، فخرجت من بين الشجيرات تترقب عودته في أية لحظة، شدّت الجذع وخطت بحذر، أتاها صوته من وراءها فانتفض فؤادها وما شعرت بنفسها إلا وقد أوقعها أرضًا وهو يقبض على عنقها، كاد يلكمها لولا صرخة مكتومة ندت عنها فتراجع متفاجئًا:

- فتاة!

دفعته بعنف، وشهقت تحاول التشبث بالحياة، عاد خطوة للخلف وردد معتذرًا:

- لم.. لم أقصد.. سامحيني، ماذا تفعلين هنا؟

هبّت في وجهه صارخة، وقلبها يتقافز بين ضلوعها حتى ظنت أنه سينخلع من مكانه:

- هل تعتدي على كل المارة هكذا؟ حتى وإن كنت شابًا هل كنت ستوسعني ضربًا لأني مررت بالقرب من منزلك!

زفرت بحنق، وهي تتحسس رقبتها:

- يا لك من عنيف!

كرر اعتذاره، وقال مبررًا:

- بالطبع، أقصد بالطبع لا، لكنك تصرفت بريبة!

تمنعت عن الرد عليه، حاولت الوقوف مقاومة الرجفة التي احتلتها فوقعت بثقلها كله على كاحلها مما جعلها تطلق صرخة اهتز لها كيانه، لاحظ ساقها المربوط، سألها بصوت خفيض:

- أنتِ مصابة؟

سترت قدمها، وأجابته بحدة:

- هذا ليس من شأنك، غريب يا هذا كدت تقتلني، فهل تأبه بإصابتي الآن!

- إذا أردت يمكنني أن...

- أنا بخير هيا اذهب من هنا.

تجاهل نبرتها الآمرة، وانحني مادًا ذراعه ليساعدها على النهوض، مرت على وجهه بنظرة سريعة، ثم دفعته بكبرياء، ابتسم بلطف، وقال يطلب ودّها :

- لازلت عند عرضي لك، تستطيعين المجيء معي وسأطلب من "كسوف" الاعتناء بك.

تلعثمت:

- لا شكرًا، أنا سأذهب الآن.

رفع حاجبيه مستنكرًا رفضها:

- إلى أين؟

أجابت سؤاله بسؤال آخر:

- لمَ تسأل؟

بدا التوتر على ملامحه، فأضافت وهي تشير إلى الطريق على يمينها:

- سأجمع بعض الأعشاب من هنا وأعود إلى المنزل.

- ستتوغلين في الغابة إذًا، أم أنك تعيشين مثلنا هنا؟

- لا أنا لا أعيش في الغابة وإنما بالقرب منها.

قالت جملتها الأخيرة على أمل أن يجيبها بشيء يساعدها على النجاة دون أن يدري، اتسعت ابتسامته وأشار على امتداد السياج يساره:

- إذًا ستمرين علينا عند عودتك.

تنهدت بعمق وتجاهلته وسارت حيث أشار، استوقفها سائلاً:

- ألم تقولي أنك ستجمعين بعض الأعشاب؟

أجابته بحنق:

- لقد تعبت.. سأذهب في وقت لاحق.

استدارت ذاهبة بتردد، تساءلت في نفسها:

- لماذا لا أسأله مباشرة عن طريق خروجي بدلاً من هذه الألغاز؟ لا أدري لماذا أكابر!

التفتت لتسأله عن كيفية الخروج فوجدته ينظر إليها بطريقة لا تريحها، نهرته:

- لماذا تحدق بي هكذا؟

أجابها بوتيرة مستهجنة:

- وأنت لماذا التفتِ؟

تركت القلق جانبًا، وأجابت بحزم:

- لأني خشيت أنك تتبعني، وقد تيقنت!

قال بمكر:

- وأنا أيضًا أخشى أن تكوني لصة مثلاً... لمَ لا؟ شكلك غير مريح.

فاض الضيق داخلها، رفعت صوتها:

- أنا!! إن كنت سأسرق منك شيئًا فسآخذ بعضًا من وقاحتك، فما شاء الله لديك منها ما يزيد عن حاجة هذا الكوكب بأجمعه، يا لك من معتوه!

تجاهل الوجوم الذي حطّ فوق وجهها، واستطرد:

- لم تخبريني باسمك؟

عاودت سيرها متجاهلة نظرته المستخفة، لازالت تشعر أنه ينظر إليها، أدارت رأسها بعصبية فلوح لها مودعًا، رمته بنظرة حادة، والتفتت بإعراض هامسة:

- أحمق!

❋❋❋❋❋❋❋

٤/٢

انكسرت الشمس وأوشكت على الغرق بين الأمواج العالية، كنت أتأملها وأنا أرى نفسي فيها، لكن الفرق بيننا أن شروقي يتأخر كثيرًا حتى أني عشت حياتي كلها بين لحظات الغروب والتلاشي، ربما لأني أخاف المواجهة وأميل دائمًا للهرب، لكن هل سأظل أهرب ما تبقى لي من أيام؟ يسهل الكلام عندما نُسدي نصحًا لأحدهم، أما عندما نقع في نفس المشكلة فإننا نقف بأيادٍ مكتوفة حائرين بين الصواب وبين عدم قدرتنا على فعله.

زارني طيف الأمس وأنا أحاول اللحاق بصاحب الظل الغامض الذي لاحظ أني أقوم بتتبعه، فركض وجريت خلفه لكنه سبقني و...

فزعت وانفصلت عن خواطري التي كانت تدور حول مراقبي الصامت، عندما وجدت الشاب الذي بحث عن المفتاح معي يقف بمحاذاتي، ويقول لي:

- يجب أن تخبريني باسمكِ، فقد أصبحنا نتصادف كثيرًا.

- نتصادف؟!

قلت كلمتي وأنا أركز في رائحة عطره التي تسللت نحوي، أصبت بخيبة أمل عندما لم أجدها مثل تلك التي جعلت الأوراق مسكنها، لا أدري سبب ذلك الشعور المفاجئ الذي رفضته بشدة وقلت أنكره:

- لا يا سيدي، ومن فضلك إذا رأيتني في أي مكان لا تقترب.. إياك أن تفعل.

سرت بضع خطوات بعصبية، ثم استدرت، وقلت بنبرة يشوبها الرجاء:

- ابقَ بعيدًا.

رحلت وهناك شيء يؤنبني على فعلتي، لكني دككتُه بداخلي وأسكته فقد فعلت الصواب، لقد عاهدت نفسي ألا أتعلق بأحد أبدًا فلا يؤذي الإنسان إلا تلك الأشياء التي أحبها بصدق، أخذت صَدفة من الشاطئ وأنا ألقي نظرة حزينة عليه، فأرخى البحر أمواجه على أطراف أصابعي وكأنه يطمئنني أن ما أخذه مني بأمر الله كفاه. واتتني حينها فكرة، في كل مرة سأذهب فيها إلى الشاطئ سآخذ صدفة وأكتب اللحظات الجميلة التي أحببتها في ذلك اليوم في ورقة، وأضعها معها في صندوق وأزورها كلما ضاقت بي الحياة.

جلست على مقعد منعزل، وأخذت دفتري الذي لا يفارقني ومزقت ورقة وكتبت وأنا أتعقبه بعينيَّ وهو يسير مبتعدًا:

- "لقد ابتعد كثيرًا، لكنه كان قريبًا.. قريبًا جدًا."

عدت إلى المنزل والحزن يحتضن خطواتي ويترك أثرًا عميقًا في قلبي، أغلقت باب الغرفة وجلست خلفه كعادتي أؤنب نفسي على صدِّي له، ثم أنفض عني هذه الفكرة وأقول أني فعلت الصواب.. متناقضة أنا وهذا التضاد في تفكيري يهلكني.

دائمًا ما كنت أحمل هم هذه اللحظات عندما أشعر بإعجاب أحدهم بي وأبادله الشعور نفسه، كان عليّ أن أفيق من سَكرتي، فلن أجد أبدًا ذلك الشاب الذي رسمته في مخيلتي مستندة على أبطال الروايات، ثم كيف لي أن أبحث عن شخص أقرب ما يكون للكمال وأنا كلي ثقوب؟ من سيتحمل عصبيتي، وعنادي، وغيرتي، وخوفي، ووحدتي، وماضيّ الذي لا يفارقني، إن روحي مظلمة تحتاج لمن ينيرها، والقَدر يختبر الإنسان دومًا بانطفائه فإما يستسلم أو يقاوم، وفي النهاية تجد كلاً منا لديه ما يكفي ليُنير روحه فقط، فمن سيتحمل أن يضيف عتمة إليه؟

كان أمامي طريقان: إما أن أصده، أو أصارحه بكل عيوبي في البداية وقبل أن أتعلق به، وقد كان الخيار الأول هو الأخف عليّ، فأنا لا أريد أبدًا أن أُعري ضعفي أمام أحد.. أي أحد.

قررت أن أغلق كل أبواب الحيرة التي فتحت في وجهي فجأة في الأيام الأخيرة، أن أنهي تسلل تلك الراحة التي تسكنني عندما أراه، وذلك الضيق وأنا أتهرب منه.

حتى تلك الأوراق المُعطرة تخلصت منها، لكنني لم أستطع رمي الأصداف فقررت الإبقاء عليها كذكرى هادئة، وأحكمت إغلاق نافذتي جيدًا ووضعت ستارة قاتمة عليها وعلى قلبي، لكني عدت في الصباح وفتحتها بلهفة وكأني أريد لمراقبي الصامت أن يصر على وجوده مهما وجد أمامه من عوائق أضعها في طريقه، لقد أردت أن أشعر أن أحدهم يحاول ويقاوم لأجلي.

وبالرغم من احتمالية أن يكون ذلك الشخص صاحب الأوراق المعطرة يسخر مني، إلا أنني استحسنت أن أسميه مراقبي!

لقد وجدت بالفعل الورقة في ذلك اليوم، وفي اليوم الذي يليه.. ثم في صباح اليوم وجدت رسالة منه في ظرف معطر بالعطر ذاته، بدأت أقرأ وكل مرة يزورني شعور غريب لكنه رائع:

"لا أعلم أي خوف تخبئين وراء ثباتكِ المستعار، لكن ما أعلمه جيدًا أني أريد مواجهة ذلك الخوف معك جنبًا إلى جنب، نتخطاه معًا، أعدك بأني لن أمل أبدًا من سماعك، ربما أنت لا تعرفيني، لكني أعرفك بالقدر الذي يكفي لجعلي أود مشاركتك خطوات حياتك.

من فضلك اقبلي دعوتي على العشاء في المكان المُدون على الرسالة.

ملاحظة:

سأنتظرك بفارغ الصبر.

ملاحظة أخرى:

سأقولها عندما أراكِ.

ملاحظة ثالثة:

إن الملاحظة الثانية في غاية الأهمية!

من: ذلك الذي كان تائهًا في همومه وعندما رماها على عتبتك تبدلت زهرًا.

إلى: إليكِ!*

لا أريد أن أتجاوز حدي، وأترك ثغرة تجعلك تتمنعين عن المجيء.

صحيح نسيت أن أخبرك بأني سمعتك المرة الماضية عندما قلت أني وضيع، ومزقت رسالتي!

لكني سامحتكِ.

في العادة أنا لست ثرثارًا، لكن في حضورك الوضع يختلف، ربما ليس أمامك.. لكن معك أشعر أني أريد أن أتقاسم كل ما هو دافئ.

حسنًا سأتوقف الآن، أتمنى أن يدق قلبك ويرق لأجلي. "



سارت مهمومة عندما بلغت نهاية السياج، كانت الطرق أمامها متشابهة، متشابكة، وكأنها تصب في بعضها متعمدة مواراة سبيل النجاة، تشاحنت الخواطر في رأسها، هل ستظل هكذا تائهة بين الأشجار؟ طالما أحبت اللون الأخضر وها هي الآن أسيرته ولا تجد سبيلاً للخلاص، ككل الأشياء التي أحبتها وكانت في الختام مصدر عنائها، تريثت في المشي وهي تستند على جذوع الأشجار تلتمس منها متكأ وقد بلغ التعب منها مبلغًا عظيمًا، وسكن الإرهاق جسدها، سمعت خرير ماء فتتبعته لتجد غدير ماء صغير، اتسعت ابتسامتها وأسرعت إليه تكتم أنَّاتها، ثم استسلمت منهكة القوى على حافته تسحق العشب النديّ بأصابعها لتبث فيه الأوجاع علها تتخلص منها، حتى صبغت أناملها بلونه.

أغمضت عيناها ليُهدهدها خرير الماء الهادئ وحفيف الأشجار مع شقشقة العصافير، مرت عليها موجة هواء باردة ارتجف لها بدنها الهزيل، بدأت تفك رباط ساقها وتأملت بشفقة كاحلها الذي اِزرق لونه وتورم وأحاطت به هالة حمراء قاتمة خشت لمسها، وضعت الوشاح جانبًا وغرفت من الماء بكفيها وسكبت على كاحلها عدة مرات وبدأت تدلكه برفق وحرص، غمست يديها للمرة الأخيرة وغسلت وجهها بالماء البارد المنعش لقد اشتاقت لذلك الشعور، حمدت الله كثيرًا على هذه النعم التي كانت تعتبرها بديهية، نظرت يمينًا ويسارًا ثم قامت وتفقدت المكان حولها حتى تأكدت من خلوه من البشر، دخلت بهدوء إلى الماء مغمضة العينين وأسنانها تصطك من برودته حتى انغمست فيه تمامًا، وبدأت تنظف الأوساخ عنها وهي تلهج بالحمد، لم تخرج إلا عندما تأكدت من نظافة جسدها وملابسها، خرجت بسرعة وهي تدعو الله أن يسترها ويُعمي الأعين المباغتة عنها، جلست في مكان مشمس وتكورت حول نفسها وهي ترتجف من البرودة، لم يمضِ إلا وقت قليل شعرت بعده بأن الله أنزل سكينته عليها، ظلت في مكانها حتى

المغيب تسبحه وتحمده حتى جفت ملابسها عليها، لم تشعر بانقضاء الوقت فقد كانت تستعيد حياتها، وتقف عند كل مشهد آلمها وتحاول الوصول لحكمته، رفعت عيناها للسماء، قالت بتضرع:

- يا رب ألهمني فهم الحكمة من المواقف التي تؤلمني، وارزقني الرضا بقضائك، ولا تكلني لأحد سواك، اللهم أدبني... أدبني يا رب.

أخرجت قنينتها الزجاجية وملأتها من الشلال الصغير الجاري، ثم أعادتها مكانها، أغرقت ذراعها في الماء تلاعبه وتراقب انعكاس صورتها على صفحته وفي خاطرها سؤال واحد، كم خطوة ستأخذها بعد لتغير حياتها جذريًا هكذا؟ ماضي رتيب، وحاضر محير، ومستقبل مجهول، ماذا بعد؟

لم تجد إجابة شافية لسؤالها للأقدار قدرة على تغير كل شيء مهما بدى محكمًا، عقدت ذراعيها حول صدرها وتكورت على نفسها مستمتعة بمرور الهواء البارد على وجهها، تنفست الصعداء طالما كانت تحلم بعزلة كهذه لكن كالعادة تتمنى حدوث الشيء بالنظر لجانبه الجيد فقط وتغض الطرف عن الجانب السيء له، أما الآن وبعد أن عاشت كلاهما فلا يروقها سوى المنزل الدافئ بجوار زوجها الحنون، ولكن لا بأس في بعض الأحيان من المغامرة لكي ندرك قيمة النعم.



١٠/٢

- ماذا يفعل المرء عندما يحتار بين أمر يريده ولكنه خائف من عواقبه يا أبي؟ كيف لك أن ترغب في شيء وتخشى أن تتعلق به في ذات الوقت!

- إن حياة الإنسان عبارة عن مجازفات، ولكن عليه أن يختار فيمَ يجازف؟ وهل ذلك الأمر يستحق المجازفة؟ وما الذي سيجازف به بالتحديد؟

كان حريصًا على جملته السابقة، وهو يضمني إلى صدره، كدت أقول شيئًا لكني آثرت كتمانه، وقمت من مكاني وارتديت معطفي مُعلقة:

- طالما أن دعواتك تلازمني فالله يحميني.

قلت أمازحه وأنا أطبع قبلة على جبينه، أحاول طمأنته بعد أن كنت أبحث عن السَكينة لديه:

- دعني أقبل السطوح هذه المرة.

ضحك بتأنٍ وهو يتابعني بعينيه الحنونتين، أغلقت الباب ورائي وأمسكت بمقبضه وأنا أنازع نفسي هل أذهب أم أعود إلى الحياة التي خططت أن أعيشها.. وحيدة!

❋❋❋❋❋❋❋

"كان الجو باردًا والأمواج عالية تتخبط في بعضها بوحشية كأنها تستعد لحدوث أمر جلل، ترتطم بالصخور بقوة ثم تهدأ عندما تلامس الرمال.

لازالت تتذكر تفاصيل ذلك اليوم، كانت تسير على شاطئ البحر حاملة أخاها الصغير بين ذراعيها، تنغرس قدماها في الرمال الباردة مستمتعة بتلك الرعشة التي تحتل جسدها عندما تداعبها نسمات الهواء الرطبة، نظرت له وطبعت قبلة على جبينه، لم تكد تنهيها حتى انزلقت ساقها بغتة فاختل توازنها وسقطا في الماء، حاولت أن تعتدل لتمسك به لكنها انكبت على وجهها بسبب ألم قدمها، فدفعت نفسها في البحر الذي جرفه على حين غفلة من كل الواقفين.. عداها، انتفض قلبها، وتشنجت أطرافها عندما رأته يبتعد، غطست تصارع الموج لتمسك به، فزعت عندما أدركت أن قدميها لا تلامسان الرمال، ضربت الماء بيديها وقدميها، دفعت نفسها للأعلى وعروق رقبتها تبرز وعيناها تجحظان في مقاومة مستميتة للتماسك، حتى تخلصت من سطوة الموج، شهقت في محاولة للتشبث بالحياة لأجل إنقاذه، فدفعها الموج الهائج بعيدًا عنه أكثر لاهيًا بفزعها، وضربها الخوف بغلظة، صرخت تناديه وهي تتفقد أثره، تعمقت في الماء أكثر فأكثر.. لم تعد تراه، فقط تسمع صرخاته ونداءاته الواهنة، رأته يتأرجح على موجة كورقة في مهب الريح، اندفعت نحوه دون لحظة تفكير واحدة وقلبها يتواثب في سباق مع القَدر، جاهدت من أجل الوصول إليه حتى التقطت ساقه وضغطت عليها في محاولة بائسة للتشبث به، لم تكن قدميها تلامسان سطحًا صلبًا فلم تستطع أن تسحبه ناحيتها ظلا مُعلقين بين الأمواج حتى خارت قواها وأتعبها البكاء، وهي تكرر الصراخ طالبة العون واللُجة تغتصب صيحاتها، قاومت راجية أن تتمالكه لكن ساقه كانت تتفلت من بين كفيها وكأن هناك من يشده ولا يريد له النجاة، توقف عن الحراك تمامًا، هتفت به لتقويه بكل ما تبقى لها من عزم، فتنامت موجة وتعاظمت ثم ألقت بنفسها عليها قاطعة أنفاسها وهاتكة صبرها، شعرت بساقه تنسل من بين أصابعها، جربت التعلق بها لكنها انزلقت، دفعت نفسها مجددًا ناحيته فأمسكت إصبعه، قاومت لتشده وتحتضنه فإما النجاة معًا أو الهلاك سويًا فضربتها موجة أخرى، رفعت رأسها وشهقت عدة شهقات متتالية فلطمها موج آخر، لم تستطع أن تثبت أكثر، وجدت

نفسها تتهاوى إلى الأعماق وفقدت القدرة على الحراك والرؤية وشعرت بالملح يأكل رئتيها.

تحسست بطنها فإذا بذراع يحيط خصرها، حاولت الصراخ:

- أنقذوه... أنقذوه!

لكنها لم تقوَ على ذلك، سمعت بقبقة الماء فقط، لقد تخلت عنها كل الكلمات وهي في أمس الحاجة إليها.

ألقاها حاملها أرضًا وبدأ يضغط على صدرها لم تستوعب بعدها ما حدث، كانت صورة أخيها وهو ينازع الأجل ترتعش في مخيلتها، فتحت عيناها ببطء فاستقرتا على وجه والدتها الذي افترشه التوتر وهي تنقل نظراتها بين اليَم وصغيرتها الملقاة جانبًا، وما أن أدركت ما حدث وتأكدت من ابتلاع البحر لولدها حتى امتقع وجهها وهربت منها عدة صرخات قانتة، عاجزة، فتاكة مزقت أفئدة الواقفين، بكت بعنف ولطمت خديها، وأهالت الرمال على رأسها، ثم انهارت وهي تولول.. وتضحك.. ثم تعود لتجهش في البكاء، وتزمجر وهي تهددها وتتوعدها.

اعتدلت لتستوعب صدمتها شاخصة البصر، وهي تتنفس بصعوبة وكأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة.

انكمشت على نفسها حالما تقدمت إحداهن ناحيتها وهي توبخها، وتنهرها:

- أنتِ السبب، انظري لفعلتك!

ثم تهافت الواقفون كل يدلي بدلوه، فهذا يضربها بيده وآخر يركلها بقدمه وأخرى تصفع خدها بقسوة لم تعهدها، جرح الخوف صدرها ولم تجد غير الأنين والاستسلام سبيلاً، كانت ضئيلة الجسد تواجه العويل، والظلال، والحشود حولها في فزع، تغطي وجهها بذراعين صغيرين، وهي على وشك فقدان وعيها من هول ما يحدث، لم يرحمها أحد رغم تضرعها، وعَبراتها الصامتة، بالتأكيد هي لم ترغب فيما حدث، لكن أنى لأحد أن يفهمها.

اندفعت والدتها في الزحام وهجمت على عنقها وهي في غفلة منها، وأحكمت الأم قبضتها حتى جحظت عينا الصغيرة، تقطعت أنفاسها وهي تحرك شفتيها المُرتعشتين، والدمع يخنق صوتها المنكسر:

- لم أقـ.. أقصد، أقـ.. أقسـ.. أقسم أني لم...

انتزعها كالخِضر بحركة مباغتة وضمها إلى صدره، فتكورت في ركنها الشديد القوي تتألم، أحست بدوار شديد وتثاقل مرور الهواء في صدرها حتى ضاق به، همت والدتها باقتلاعها من بين يديه وهي تغرس أظافرها في لحم يدها بقسوة فأشار إليها بنفاذ صبر، ازدادت امتعاضة ورمتها بنظرة ذات معنى تهديدي صريح.

كان متخبطًا يوزع نظراته بين العُباب وزوجته وقطعة اللحم اللينة التي آوت إلى حضنه وأخفت رأسها بالقرب من قلبه أدناها منه أكثر ليطمئنها، فلفت يداها الصغيرتان حول عنقه تلوذ به وتحتمي، نظر إلى اليَم بشجن وهو يشيع جثمان ولده الذي لم يتخطَ العامين من عمره، كانت عيناه حزينتين، وصامتتين كعمق المحيط.

حملها وأولى الجميع ظهره، بللت دموعها كتفه، كان يعلم أنها لا تمتلك القدرة على ترجمة مشاعرها إلى كلمات وتكتفي بالبكاء الصامت، لطالما كانت دموعها أبلغ رد يعبر عن قلة حيلتها وهوانها، وكان ذلك أقسى جواب يمكن أن يتلقاه، قالت بنبرة مبللة بالدموع في هذيان:

- لقد حاولت إنقاذه.

ثم عادت ناكسة الرأس وهو يصعد بها درج المنزل، دخل إلى غرفتها وهو يضمها بقوة بين ذراعيه ويربت على كتفها ليهدئها، تأمل نظراتها العاجزة المرتبكة وهو يبدل ثيابها، كانت ساهمة تحدق في الفراغ ودموعها تنهمر مدرارًا على خديها، وأوصالها متخشبة، أجلسها على طرف الفراش وذهب ليغلق الباب، رنى إليها شاردًا فاقتحمتها وخزات متتالية في أعمق نقطة من فؤادها، وتبادلا المزيد من النظرات بلا كلمات، بكت بكاء مريرًا، فتقدم نحوها وانفجر باكيًا هو الآخر واحتضنها يلتمس فيها المواساة، تلاشى كل ذلك الصمود والثبات اللذان كانا يظهران للجميع.

ظل حالهما على ما هو عليه حتى هدئا وأصبح نشيجهما خفيفًا، نظر لعينيها المشبعتان بالحمرة فترقرقت عَبراته، أشار إليها فأسندت رأسها على صدره وضمت ساقيها بيديها، وهي تراقب عينيه الذابلتين رغم محاولته اللحوح في طمأنتها إلا أن عجزه بدا جليًا.

زحفت أنامله على وجهها وتمشى بخنصره من جبهتها حتى أرنبة أنفها ذهابًا وإيابًا حتى استكانت وهدأت وعاد قلبها لوتيرته، ثم سردت على مسامعه ما حدث، وهو يجوس بأنظاره في الشرفة المطلة على البحر!"

منذ هذه الحادثة أقسمت ألا تلمس طفلاً، وأشبعت غريزتها الأمومية بالنباتات، ولأن "هادي" كان يُدرك ذلك لم يخبرها يومًا أنه يريد إبنًا، حتى في أشد لحظات غضبه كان حريصًا ألا يقسو عليها بالكلمات كما كان يفعل الآخرون، وسيظل ذلك من جميل الذكرى التي تحملها له في فؤادها، لم تدرِ ماذا تفعل لقد اشتاقت إليه كثيرًا، جلست ترثي حالها وتسقيه دمعًا حتى أصيبت بالدوار، أرخت رأسها على ركبتها، وفي ذهنها تتردد الآية:

- "لَاْ تَخَاْفِي وَلَاْ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكِ"

هاجمها خاطر آخر وهي بين سطوة الأشجار فدائمًا ما أحبتها بأنواعها وأشكالها وحرصت على تكبير مجموعتها التي ورثتها عن جدتها، كانت تقضي أغلب الوقت هناك قليلة الاحتكاك بالبشر وفيرة الصمت والكتمان، وكان هذا أكثر ما يضايق "هادي" منها وأغلب الشجارات بينهما كانت تدور حول ميلها للوحدة وولعها بالخضرة، لكنها الآن وحدها تمامًا، ولا ضرر إذًا أن تعترف، في الحقيقة الوحدة ليست مريحة فها هي الآن تحتاج لمن تشاركه همها، لأحد يعتني بساقها، ويخبرها أنها ستكون على ما يرام، لمن يفكر معها في حل لغزها دون أن يخبرها أن هذا هراء وأنه يجب أن تكون واقعيه أكثر، ربما في البداية كانت تميل للانفراد لأجل أنها كانت موقنة أنها عندما تريد أن تتكلم ستجده موجودًا، فلا بأس أن تحظى ببعض الانطواء.. الكثير منه!

تضايقت وأصابها الندم، لم تكن تعلم أن هذا الشعور مؤذي لهذه الدرجة، كيف تركته كل ذلك الوقت وهي تحسب أنه سيكون بخير بمجرد جلوسها معه على المائدة؟ كانت ترى في عينيه عتابًا، لكنه تركه في الفترة الأخيرة لأنه شعر أن الكلام ما عاد ينفع، تساءلت:

- هل يفتقدني؟ ولكن كيف سيفتقدني وأنا كنت أهمله هكـ...

تنهدت في ضيق، بالفعل لم تكن ستعلم مدى صعوبة الأمر لو لم تحبس هنا، لكنها قررت أن كل شيء سيتبدل، ستتغير معه، وتتحدث، وتعطيه اهتمامها، لقد تحملها طوال خمس سنوات وهي لم تحتمل خمس ليال وحدها!

قالت باستياء:

- إننا لا نستطيع إدراك ما نفعله بالآخرين إلا بعد أن نتجرع مرارته.

تسلل الظلام من داخلها وغمر المكان، فلاذت ببعض الشجيرات المتشابكة التي صنعت تجويفًا يتسع لها تقريبًا، نظرت إلى الخاتم في إصبعها بحنين، وتذكرت كيف كان مصممًا على أن يتزوج بها رغم مصارحتها بكل مخاوفها التي من ضمنها حرمانه أن يكون أبًا.



١٣/٢

كنتُ أريد أن أبكي لكنني لم أستطع لا أدري متى أصبح قلبي قاسيًا لهذه الدرجة، لكن جفاءها هو السبب، صعقت عندما قال لي أبي أن أمي قد أوصت ألا أقف على غسلها، أجل لقد سمعتها تقول ذلك لكني ظننت أنها لحظة غضب، ولم أتخيل أبدًا أنها تتكلم بجِد، لقد كسرت وصيتها آخر شيء كنت أحافظ عليه، حتى أني لم أستطع أن أدعو لها بالرحمة.. لم أقوَ على قولها فقد كانت تشح بها عليّ!

كان قلبي يتمزق على حال أبي وأبكي لأن القدر أبكاه وأرتدي السواد رثاء لحاله، تذكرت كيف ناداني وأنا في طريقي لمعرفة مراقبي الصامت، لقد ركض إليّ واختبأ بين ذراعيّ وخر على ركبتيه، لم أكن أعلم ما عليّ فعله، كيف أواسيه.. فكرت في الأيام القادمة وكيف ستأتي سيرتها؟ "اذكروا محاسن موتاكم!" لقد فتشت كثيرًا عن تلك المحاسن لكني لم أجدها، فقررت أن ألتزم الصمت عندما يأتى ذكرها.

حاولت إجبار نفسي على البكاء، دخلت إلى غرفتها وشممت ثيابها، نظرت إلى صورها لكني لم أجد غير أني أزداد جحودًا، بكيت على ما جعلتني أعيشه، فقد عاقبتني على شيء كان خطأها لكنها ألصقته بي، وأنا لم أجرؤ على مواجهتها فاستسلمت لظلمها، ونما بداخلي كره وحقد عليها، نظرت في المرآة فوجدت شيئًا مني يشبهها فهربت بعيدًا، لم أفكر بها قط إلا عندما وجدت هذه الرسالة المخبأة بين ملابسها وأنا أجمع أغراضها في صندوق، بعد أسبوع من وفاتها: "أشعر بدنو أجلي وأتمنى أن تسامحيني. " كان هذا السطر الوحيد الذي سكن الورقة قلبتُها فوجدت رسالة طويلة لكنها غارقة في الحبر والخطوط العشوائية الكثيرة، وكأنها أرادت أن تخفي حنانها حتى بعد وفاتها! قرأت من بين الخربشات بصعوبة: "أعلم

أني ظلمتك بقسوتي وأن الذنب..." ثم بضع كلمات أخرى: "لم أستطع أن أتجاوز فكرة أنكِ السبب.. "

جعدت الورقة في قبضتي، وضغطت عليها بشدة وأنا أكز على أسناني، دخل أبي وقد كنت على وشك البكاء، لثم جبيني، وقال:

- سأجمع أنا بقية الأغراض، لا تفعلي ذلك إن كان يؤذيك، لا تجبري نفسك على تحمل ألم أنت في غنى عنه.

لاحظ الورقة التي ألقيتها أرضًا قبل أن تتجمهر الدموع في عينيّ، أجلسني على طرف السرير وجلس إلى جواري بعد أن التقطها، وسألني:

- هل تسمحين لي برؤية محتواها؟

نظرت إلى عينيه الحنونتين، واعتصر فؤادي عندما لاحظت تسلل الشيب لرأسه أكثر فأكثر، أنكرت هذه الفكرة، ورجوت بيني وبين نفسي أن يكون رحيلي قبله.. رحيل!

قلت والحيرة توقد نيرانها بوحشية تلهب صدري:

- يطلبون الصفح عندما يخشون الموت، وينسون كيف تسببوا في أذيتنا، لماذا لا يشعرون بالموت وهم يغرسونه فينا بكلماتهم؟

هذه الورقة.. يبدو أن زوجتك كتبتها قبل وفاتها لكن كبرياءها وعدم قدرتها على ترك خيط وِد رفيع أتذكرها به جعلاها غير قادرة على مواجهتي، ولو حتى خلف حبر أسود!

أخذت نفسًا عميقًا عندما احتواني أبي بين ذراعيه، وانحدرت دموعي على معطفه فامتصها عَطفه، وخرج صوتي متقطعًا، مكسورًا، حزينًا:

- لما رأيت هذه الورقة الآن؟ لا أريد لأي شيء أن يجعلني أشعر بالندم على عدم مسامحتي لها، كلما تذكرت ما كانت تفعله معي يصبح فؤادي فارغًا ملكومًا، لطالما تساءلت كيف استطعت تحمل معاملتها لي بهذا الشكل كل هذه السنوات، وماذا كنت سأفعل لو لم تكن أنت موجودًا؟

مسح على رأسي برفق كعادته، ولم يضف حرفًا على كلامي، كان يعلم متى أحتاج إلى الحديث، ومتى النصح، ومتى الصمت.. دائمًا يشعر بي.

عادت هذه الفكرة الخبيثة تراودني عندما رأيت لحيته قد غزاها البياض، وترهل جلده حولها، لم أستطع مقاومة احتضانه بقوة لأن الأمر الذي نهرب منه سيواجهنا في نهاية المطاف.

راح ذهني إلى ذلك الفتى صاحب الأوراق المعطرة لقد انقطع خبره منذ عدة أيام، لابد أنه فهم من عدم حضوري أني أرفض وجوده وما يفعله، أغمضت عيناي بقوة فنزلت دمعة بائسة، إنها الدمعة الأخيرة، تلك التي ندرك فيها أنه لا طائل من بكائنا فنكف عنه رغم حاجتنا الماسة إليه، همست باستسلام:

- لو كان خيرًا لاكتمل.



احتضنت السماء المغيب وهي تتزين بالبرتقالي الدافئ، بينما كانت "لارين" تتمشى في مكان يشبه القبور على جانبيه صخور متراصة بين أشجار التوت السوداء، الأسماء المحفورة على الصخور تدل على أنها كتبت بيد يائسة، يد تركت أحلامها وتفرغت لكتابة أسماء الموتى.

استوقف خطواتها تمثالان بديعا الصنع، كانا عبارة عن غزالتان إحداهما يافعة رأسها متجه ناحية اليسار، الأخشاب الرفيعة في عنقها أعطت إيحاء أن عروقها تنبض بالحياة، وكان يلتصق بهذا التمثال حد الالتحام تمثال آخر لغزال صغير يرفع ساقه الأمامية ويتكئ عليها بينما يستند على بقية أطرافه وكأنه على وشك القيام من مجلسه، ورأسه منحنٍ إلى الأسفل وكأنه يتفقد شيئًا قد سقط.

ضمت حاجبيها في دهشة وهي تلامس أخشابه الهشة الضعيفة، لفت انتباهها فتحة مستطيلة في العين اليسرى للغزال الصغير، فنظرت بتلقائية للأكبر حجمًا لتجد فتحة مشابهة في العين اليسرى أيضًا ولكنها أكبر قليلاً، جذب انتباهها لوح خشبي مستطيل ممتد من أسفل عنقه حتى نهاية صدره، تأملت الكتابات المنقوشة عليه بخط رفيع للغاية، استرعى اهتمامها نقش صغير في منتصف عنق التمثال لساعة رمالها زرقاء ليست كتلك التي اعتادت رؤيتها عند جدتها.. إنها مختلفة!

شردت لثوانٍ ثم هزت كتفيها بلا مبالاة، فإن كانت ستدقق في كل شيء تصادفه فلن تصل لأي شيء في نهاية الأمر، لأن هناك أمورًا تظل ناقصة ولا يكتمل معناها إلا باجتماعها مع أشياء أخرى خُلقت غير تامة أيضًا، حينها فقط تصبح

الصورة واضحة بالكامل فيتيسر الفهم، كانت تدرك أن لكل أمر أهميته حتى ولو كان مبتورًا من وجهة نظرها المحدودة.

بدأت تقرأ بصوت مسموع:

تقول الأسطورة أن أحد أمراء الإنجليز أحب فتاة من قرية صغيرة ثم تركها وهجرها فامتلأ قلبها همًا، وشعرت أنه غير مرغوب بها ولا تستحق أن يضحي لأجلها أحد، فانزوت عن جميع الناس ورفضت كل شاب أتى لخطبتها... مع ازدياد تمنعها الغير مفهوم اتهمها الجميع في عرضها، وقام أهلها بالتبرؤ منها، فامتنعت عن الطعام والشراب حتى ماتت كمدًا، دفنوها في قبر مجهول بعيد عن قبورهم، وهكذا كانت منبوذة في المحيا وبعد الممات.

أما صديقاتها فكن يعرفن أنها تعرضت للخداع والخيانة، ولكنها آثرت البقاء على الوفاء، ذهبن عند قبرها لزيارتها ذات مرة، وقمن بزراعة زهور الليلك الزرقاء حوله، ثم أتين لزيارتها في صبيحة اليوم التالي فوجدن الأزهار الزرقاء قد تحول لونها للبياض الناصع، وقد اعتبرن ذلك دليلاً على براءة صديقتهم من التهمة الملصقة بها، وأنها لم ترتكب الفحشاء كما ظن الجميع، فهرعن للكنيسة وإلى أهلها وأخبرنهم بما حدث، لم يصدقهن أحد، لكنهن ظللنَّ يُلحِحن حتى ذهب أهل القرية عند قبرها وزرعوا الليلك الأزرق ليتأكدوا من صدق كلامهن، وبالفعل في الصباح التالي وجدوا الأزهار قد تغير لونها من الأزرق للبياض الصارخ، وهكذا أصبحت زهرة الليلك البيضاء دليلاً على براءة الفتاة بعد موتها ورمزًا لنبل الحب، وصدقه، وصفائه.

جلست القرفصاء، وضمت كفيها ببعضهما، همست بنفس منكسرة:

- كتلة من المشاعر تحركنا، وتتحكم بمجري حياتنا، ترى مما خلقت المشاعر لتصبح بهذه القوة التي تجعل فتاة في مقتبل العمر توصد على قلبها وتؤثر الموت على أن يمس طيف رجل آخر غير الذي أحبته أعماقها؟ ومشاعر أخرى تجعل أبوين يتبرآن من ابنتيهما تحت ضغط الشك!

أخذت نفسًا قويًا، وأخرجته بهدوء:

- وصديقًا وفيًا لا يقبل علي زيف الكلام يا الله، ويرد أذاه عني إن لم أستطع أن أفعل.

فتحت الحقيبة وأخذت شربة ماء، ثم استرخت أسفل الغزالة اليافعة، فشدها لمعان الخاتم من حقيبتها عندما لامس شعاع الشمس أحد جوانبه، فأخرجته وعاودت النظر للشادن الصغير، شردت هنية متفكرة ثم انتصبت واقفة فجأة فآلمها كاحلها، كزت على أسنانها وتأوهت لكنها تجاهلت الألم ثم أدخلت حلقة الخاتم في الفتحة المستطيلة داخل عين الغزالة اليافعة، وقد كان مناسبًا تمامًا ولا يظهر منه سوى فصه متعدد التعرجات، دارت بعينيها في حيرة ثم جلست على ركبتيها وأفرغت حقيبتها، اصطدم رأسها بفك الغزال الصغير وهي تعود للوراء فسقط منه مفتاح به دائرة مفرغة من أعلاه، بداخلها مرآه انخلعت وتدحرجت بين الأعشاب الطويلة، تجاهلت الألم كما تفعل دومًا وخطتْ بترقب تبحث عنها منتبهة إلى خطواتها حتى لا تدوس عليها فتكسرها، ثم وجدتها أخيرًا عند حافر الغزال الصغير، حاولت عدة مرات تركيبها مكانها لكنها كانت تتفلت من بين أناملها، قبضت على المفتاح غيظًا وألقته جانبًا وأنفاسها تتراكض، ثم كررت المحاولات حتى نجحت، صاحت فرحًا والنصر يتوج نبرتها:

- أخيرًا فعلتها.

وضعت المفتاح في الفتحة المستطيلة داخل عين الغزال الصغير وقد كان مناسبًا لكن شيئًا لم يحدث كما اعتادت أن تقرأ في الروايات والأساطير!

تنهدت بضيق وقد حزمت أمرها أن تبيت ليلتها هنا، فالليل على وشك أن يغطي الآفاق، استرخت ووضعت ذراعها خلف رأسها وهي تتعرقل في زحام الأفكار، هل من حسن حظها أنها ضلت الطريق أثناء البحث عن النباتات ثم عثورها على هذا الكتاب؟ أم أن هناك ما لا يسرها جراء تعقبها لسره؟ صمتت برهة، ثم قالت تسخر من حالها:

- وهل حالي هذا يسر أحدًا؟ لا ضرر من المغامرة طالما مصيري مجهول، لا بأس من المخاطرة إن كان في الطرف الآخر احتمال لنجاتي.

زاحمها طيف "هادي" ترى كيف حاله؟ وهل يشتاق إليها؟ هل يعتني بنباتاتها! دائمًا ما كان يتضايق من اهتمامها بالنباتات، ويتهمها بتفضيلها عليه، ضايقها ذلك الخاطر، فأشاحت نظرها هربًا منه، داهمها خاطر آخر كان وقعه عميقًا في نفسها:

- هل مازال يبحث عني أم أنه فقد الأمل؟

ظل السؤال حائرًا في رأسها بغير إجابة، انتشلها شعاع ضوئي ساقط على بقعة أمامها، نظرت لمصدر الضوء فإذا به الخاتم صاحب الفص البني يسلط شعاعًا ضعيفًا على مرآه المفتاح الذي وجدته وثبتته في عين الشادن الصغير، والضوء مثبت على رقعة بجوار حافره، من دون تفكير انتفضت كنبضة فائرة صدعت فجأة في جسد أوشك على الموت، بدأت تحفر تارة بالجذع وتارة أخرى بيديها.. حتى تخدر كفها من الألم، لكنها واصلت وأصرَّت حتى اصطدم الجذع بشيء صلب، أزاحت الغبار فوجدت صندوقًا حديديًا صغيرًا أصاب الصدأ أغلب أركانه، كان ممتلئًا بالكثير من النتوء والثقوب الصغيرة.

أخذت كمية وفيرة من الهواء وأخرجته برفق وفتحته فوجدت ثمانية مفاتيح ثلجية اللون، ومجتمعة في حلقة حديدية واحدة.

لاحظت أن المفاتيح كلها متشابهة وكأنها نسخ متعددة لمفتاح واحد، دفعها التفكير لأن تنظر لفتحة القفل ففعلت ووجدت أنها ستتسع للمفتاح إن هي أدخلته، تناولت واحدًا عشوائيًا ووضعته داخل الفرجة بعد أن أغلقت دفتا الكتاب وأقفلت القفل، ثم أدارته برفق.. فُتح!

وضعت مفتاحًا ثانيًا.. ثالثًا.. رابعًا.. إنها بالفعل نسخ متطابقة، أزاحت بقية المفاتيح بملل، وفتحت الكتاب فصُدمت، لقد تغير لون أوراقه للون غريب يشبه الطين المُبلل، رمت نظرة سريعة على القفل لازال المفتاح فيه، لاحظت بروزًا للمفتاح الأول المنقوش على القفل، أعادت غلق الكتاب ووضعت مفتاحًا آخر، فبرز النقش السابع، صاحت بحماس:

- ما هذا!

جلست القرفصاء وفتحت الكتاب من جديد، كانت هناك سطور قليلة في منتصف الصفحة الأولى:

- "سأترك هنا الأشياء التي لا أقدر على البوح بها أمام أحد:

أعاني من الفوضى الفكرية، وأتمنى أن أجيد ترتيبها يومًا.

هذه المذكرات لن يصل إليها أحد."

ابتسمت ساخرة وهي تطوي الصفحة:

- على المرء ألا يجزم بشيء لا يضمن حدوثه.

قرأت بصوت هادئ:

- " الكتمان مرهق، ربما تغير الكتابة كل شيء، لقد ولدت بين أبوان صنعا جدران بيتنا من الحب، وجعلوا سقفه من الدفء، وكان الأثاث من الحنان، كل شيء يدفعني للغرام، ويرسم الدنيا وردية في عينيّ منذ الصغر، تمنيت أن ألتقي فتاة وأعيش معها هذه المشاعر الهادئة.

لم يكن لدي إخوة، كنت المدلل لعائلتي، لم أحب اللعب مع الصبيان في المدرسة ولا أجد نفسي بين الفتيات، فانطويت عنهم، كان الفتية يتنمرون على رقة صوتي وهدوئي ولم أكن أستطيع الرد عليهم خشية أن يتهكموا بصوتي الرفيع الحاد، كما أنهم كانوا كثرة وأنا بمفردي، بينما كان البنات يشفقون عليّ ويطلبون وِدي، لكني بقيت كما أنا.

فترة دراستي الابتدائية كانت الأسوأ على الإطلاق.

كبرت قليلاً وتغيرت ملامحي، تدريجيًا أحببت ركوب الخيل، والدراجات، والركض في المزارع مسافات طويلة، والجلوس وقت الغروب بمفردي، تأقلمت على رفض المجتمع لي ورضيت بحب والداي عوضًا عن ذلك، لكني كنت أتألم!

مضت الأيام، وكبرت وصار صوتي غليظًا حتى أني التقيت أحد زملائي في الابتدائية مصادفة، وعندما ألقيتُ عليه التحية ضحك، وقال: "من يسمع صوتك الآن لن يصدق أنه نفسه الذي كنا نمازحك ونضحك عليه"

ابتسمت باستهزاء يخالطه الضيق: "مزاح!"

عندما ذهب كل منا لسبيله تعجبت من تغير الحال، لقد كان همي الأكبر أن يصبح صوتي أغلظ قليلاً، وعندما كبرتُ كنت قد نسيت هذه الأمنية، لقد تحققت بمجرد أن تجاهلتها! وهذا ما جعل لديَّ قناعة أن بعض الأشياء ليس في متناول يدي تغييرها، وإنما عليّ تناسيها وتخطيها حتى تتحقق، وإن لم تحدث أكون قد رحمت نفسي من أمل خائب.

كنتُ شابًا وسيمًا، طويل جدًا، خمريّ البشرة، شعري بني كعيناي، حاجباي كثيفان، وعريض المنكبين، وكحال الشبان الذين في مثل سني كنت أحب لفت الأنظار لي دائمًا، وأن أرى نظرات المعجبات تحوم حولي، لكني لا أسهل الطريق على أي منهن، أرمي الدعابات والابتسامات ثم أختفي، كان غموضي

يثير فضول أغلبهن ويجعلهن يطلبن القرب مني، بينما كنت أتمنع وفي عينيّ الكبرياء..

حتى..

❋❋❋❋❋❋❋

مِن غائب

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- أنتظر.

نظر إليه بذهول:

- مضت خمس سنوات وما زلت تنتظرها!

- لا أنتظرها هي تحديدًا فأنا لم أبُح لها بحبي، وإنما أنتظر أن أحب امرأة كما أحببتها، لن أرضى بأقل من ذلك، لهذا أنتظر.

نظر للأمواج بحسرة وقد ضغط كلامه على الجرح الغائر:

- الانتظار مهلك، لقد غابت زوجتي عني خمسة أيام وسأفقد عقلي من هول الاحتمالات، لا أدري ماذا حدث معها، أبحث عنها في كل مكان ولا أهتدي.

بدأ يتمشى بمحاذاة البحر وعيناه تتأرجحان بين الوجوه اللاهية في الماء، لحق به "غيث" بعد أن أخذ صفارته، بعد دقائق من التفكير سأله يغير مجرى حديثهما:

- ما الذي دفعك للعمل هنا يا "غيث"؟

أجابه ممازحًا:

- هل مللت مني بهذه السرعة؟

- لا لم..

- أعلم مقصدك تمامًا، كنت أحاول فقط جعلك تبتسم، مممم في الحقيقة لقد كنت أهرب، لم أجد على اليابسة هواءً نقيًا فجئت إلى هنا لعلي أجد راحتي بين الأمواج.

ضحك، وسأله متعجبًا:

- ألأنك لم تجد راحتك على اليابسة اخترت أن تعمل مُنقذًا، لكي تساعد من يوشكون على الغرق وتأخذ بيدهم إلى.. اليابسة؟!

- لم أستطع أن أتقمص دور الفيلسوف؟

- إطلاقًا!

قال كلمته الأخيرة وهو يرمقه بطرف عينه، فانخرطا في ضحكٍ يواري خلفه ألمًا أسودًا، قاطع "غيث" تواتر الضحكات فاتحًا الساحة للألم الأسود ليحتلها:

- لقد أخبرتك قصتي كلها منذ ولادتي حتى لحظتي هذه، ماذا عنك؟

- أنت تصر على أيقاظ ما دفنته؟

- إن كان حيًا فدعه يتنفس.

- إن تنفس هو فستحبس أنفاسي حتى أختنق، لأنه يقتات عليّ!

- آه، لقد وجدت من يتقن دور الفيلسوف.

اكتفي بابتسامة دقيقة على طرف شفتيه، قال يبث أشواقه التي قاومها كثيرًا:

- أن تختصر أقرب شخص لديك في سطور قصيدة لأنه لم يعد لديك الحق في طلب حضوره عندما تحتاجه، أنت لا تعلم مدى قسوة هذا الشعور، لأني لم أستشعره إلا عندما تجرعته.

- هل بدأت تكتب القصائد من وقتها؟

- نحن لا نكتب القصائد بل هي التي تُكتب فينا، قد يراها أحد فينفس عنها بكتابتها، وقد لا يلاحظها آخر فتظل مخنوقة بداخله وتضيق عليه صدره وحياته. لن أخبرك بأني أحببتها وبقدر حبي لها تألمت، لأني لا أحب تكرار كلام العاشقين الذي فقد معناه من كثرة تداوله فأصبح مبتذلاً لا يحمل من معناه سوى السطحية، لكن يمكنني القول بأنها أتت بفيض من اللطف والجبر لأيامي، وعندما ذهبت جرت وراءها كل ما أعطته!

❋❋❋❋❋❋❋

تمشى بيده على صفوف الكتب، وومضات من الماضي تراوده عن نفسه كلما قرأ عنوانًا، استقر على كتاب غلافه مهترئ وأوراقه شديدة الاصفرار، أخرجه من مكانه ونفخ التراب عنه، كان هذا أول كتاب يهديه له عمه عندما كان في التاسعة من عمره، امتلك عمه مكتبة عملاقة في غرفة نومه وكان لا يخرج منها أبدًا بعد أن مرض مرضًا لا يقدر معه على فراق فراشه، ومن هنا بدأ "نقاء" يحلم بامتلاك مكتبة مثل تلك التي أفنى عمه عمرًا في تجميعها.. وقد حقق مراده أخيرًا. كان يظن أنه بذلك سيحقق سعادته عندما يستغني بهم عن البشر، لكنه اكتشف أن ذلك كان عبثًا فلا يمكن الاستغناء عن شيء بشيء آخر، فلكل منهم دوره، وضع الكتاب بهدوء على منضدة قريبة، وقال بأسى:

- أنا الذي يترك قطعة من روحه مع كل كتاب يقرؤه، أنا الفقيد الوحيد لشخوص رواياتي، والبطل الذي لم يذكر اسمه ولو لمرة واحدة بين سطورها، رغم أن دموعي كانت أصدقهم حين يبكون، وابتسامتي أوسعهم حين يفرحون، أنا العابر الذي يترك فيضًا من دموعه وقدرًا وفيرًا من سعادته بين صفحات الكتب، أنا الراحل الباقي الذي لن يجد من يحكي بطولاته.

تجول بعينيه في الغرفة المزخرفة بالكتب، كان لكل منها ذكرى طبعت على قلبه، تنفس بعمق يحاول تهدئة مشاعره الفائرة، بدأ يتمتم وهو يؤرجح قلمًا رماديًا يعلوه أرنب فضي بين إصبعيه:

- الإنسان عبارة عن زحام ذكريات، ذكرى فاتت لكنها مخلدة في داخله، وواحدة صنعها ليهرب من ثانية، وأخرى ستكون بعد وفاته، وذكرى ستدفن معه ولم يعلم بها أحد، عاشت وماتت في أعماقه.

وقعت عيناه على صندوق صغير كان ولازال يعتني به، وينفض عنه الغبار يوميًا لأن ما فيه لا يُقدر بثمن، إنها رسائل من صديقة الذي سافر منذ زمن بعيد، احتضن الصندوق بكفيه، واسترخى على الكرسي الهزاز، فتح الصندوق بحنين وبدأ يتأمل العناوين على كل منها "الذكريات، المعروف، أخيرًا تخليت عن حبي، القدر لا يُغرِق من يستسلم له.." استعاد محتواها دون أن يفتحها، فقد قرأها مئات بل آلاف المرات! كانت كل واحدة منها تحمل عنوانًا بريديًا مختلفًا، من بلد غير سابقتها، لقد أمضى "نقاء" السنوات يتلقى الرسائل دون أن يرسل له حتى رسالة واحدة يبث فيها شوقه لرؤيته، فتح الرسالة الأولى بعد تنهيدة طويلة، أراد أن يستأنس بحديثه الذي يحفظه عن ظهر قلب، لكنه الشوق يفعل بنا الأفاعيل:

- "كيف حالك يا "نقاء" وكيف حال الرفاق؟ أطرح عليك سؤالي رغم يقيني بأني لن أتلقى الجواب، فأنا كثير الترحال يا رفيقي ويصعب عليك أن ترسل لي في عنوان معين، الأيام غادرة وأنا أهرب منها قبل أن تفتك بي. مضت خمس سنوات كاملة دون رؤيتكم، أرجوك يا "نقاء" اقرأ السطور القادمة على الأصدقاء، أما الباقي فإنه لك.. "لقد اشتقت إليكم يا رفاق وكلما زارتني ذكراكم صحبتها دموعي، سأحاول أن أكتب إليكم كلما سمحت لي الفرصة، لا تتفرقوا من بعدي."

أما عنك يا "نقاء" فأنت حبيس سري ومن يزول همي بمجرد جلوسي معه، لكنها الأحلام يا صاح تجعلنا نرقص وراءها حتى تقطع أنفاسنا.

لقد حدث معي اليوم موقف غريب هو ما دفعني لأن أكتب إليك، رغم أني غير متأكد إذا كانت هذه الرسالة ستصل إليك من الأساس أم لا، أتمنى أن تصل.

اليوم كان القطار شديد الازدحام فدفعت نفسي بين المتكدسين وأنا أترقب لعلي أجد مقعدًا فارغًا أرتاح عليه بعد أن أنهكني المسير، وجدت أحدهم يقوم من مجلسه وهو ينظر إليّ فثبت خطواتي ومضيت نحوه وأنا أشد أشيائي من بين الواقفين بصعوبة، أفسح الرجل لي بابتسامة حزينة ومضى إلى سبيله، جلست أخيرًا فسقط بصري على الزجاج، كان صاحب المقعد قبلي قد رسم قلبًا من البخار على النافذة المشروخة، تأملته حتى تلاشى في الفراغ، ورسمتُ واحدًا آخر في نفس مكانه وكأني أردت أن أحفظ مشاعر الرجل التي لخصها في قلبٍ صغير، أو لعلي أردتُ أن أضيف مشاعري أيضًا على ذاكرة النافذة، ترى من أي حدث تصدع زجاجها ألمًا وهي تسمع روايته؟!

إيـــــــــــه.. إنه السفر، ترى كم من الحكايا تُدفن على ناصية هذه الكلمة؟ كم من المشاعر يتناساها أصحابها بعد أن يودعوها أسرارًا لغيرهم؟!

تقلبت الذكريات في داخلي وكأن ذلك المكان بجوار النافذة خُلق خصيصًا لاسترجاعها، تنقلت عيناي بين الوجوه المحتشدة حولي لقد تركت الأيام بصمتها على وجوههم بأشد الطرق إيلامًا، تساءلت في نفسي:

- كيف حال ذكراك أنت؟ لازلت تهرب وتترك العلاقات مبتورة مبررًا لنفسك أن أسباب البقاء أصبحت مستحيلة، بينما أنت في حقيقة الأمر تخشى أن تضحي، وتريد الحفاظ على ما تبقي منك. تركتَ في كل مكان داسته قدماك

علاقة منتهية أمام الرائي لكنها في الواقع حية تسعى في داخلك، كلما أهملتها ونسيتها التفت حول فؤادك واعتصرته بلا رحمة.

أعدتُ رسم القلب المائل على الزجاج، كان حاله كحال فؤادي الذي يميل لكل من يرتاح إليه ثم يميل عنه إذا تأذى منه.

توقف القطار ورأيت رجلاً يثابر حتى يتخطى المارة المكتظين ويعثر على مقعد شاغر، فانتظرته حتى انتبه إليّ وتوجه نحوي، قمت من مكاني وربَّت على كتفه حال جلوسه أواسيه قبل أن تتكالب عليه لحظات الماضي، وتغرس أظفارها في عروقه، علها إذا فعلت يركن لموضع يدي فيهدأ، فالإنسان يهرب لآخر لحظة شعر فيها بالأمان ليصم بها قلبه عن قرع طبول الذكريات.



- كان الجو خريفيًا والأوراق تتساقط بكثافة حولي، خرجت لأنظف الحديقة فانتهى بي الأمر جالسًا بجوار الشجرة وقد أسقطتني حيرتي، فقد انتهت علاقتي مع فتاة كنت أحبها، وضعت رأسي بين كفيّ عندما تأكدت أنه لا أحد في المنزل، وانخرطت في بكاء ثقيل، في هذه الفترة كانت تحدث معي مشكلات كثيرة كنت أتمنى أن أتخلص منها، لكنها ازدادت ثقلاً عندما تلقيت خبر وفاة أبي في نفس الليلة، فانهار ثباتي.

احتضن الحزن وجهيهما، وغرس أظافره في قلبيهما كعدو خبيث، وجعل الذكرى تنزف فرثى كل منهما فقده دون أن ينطقا، تحرر "هادي" منه، وقال وهو يستحضر ملامحها:

- لم أكن أحتمل أيام العزاء، فكنت آتي إلى هنا وأجلس أمام الأمواج وأزيدها قطرات من دمعي فتبلل قدماي وكأنها تواسيني، في إحدى هذه الأيام جلست على مقربة مني فتاة هادئة عطوفة، وسألتني بعد تردد: أنت بخير؟

احتضن كفه باليد الأخرى، وأكمل والحنين يغمره:

- عندما أدركت أنه صوت امرأة رفعت الوشاح على وجهي حتى لا تنفضح مدامعي، ففي أرضنا الرجال لا يبكون، نظرت لي وقالت:

- سأجلس هنا ربما تحتاج أنيسًا.

تعجبت من صنيعها، وبقيت ساكنًا، كنت أحتاج أن أبقى وحدي فالدموع تُلح عليّ، وبعد الكثير من المقاومة.. تكلمت.

لم تعلق بأي كلمة وقد كان صمتها مسكنًا لألمي، تحدثتُ وتحدثتُ حتى شعرت بالتهاب في حلقي وحرقة تقتحم عيناي، قامت فجأة وذهبت دون أن تنظر إليّ ، شعرت بالخيبة والراحة معًا، أنا بيت للمشاعر المتناقضة.

كان الفجر على وشك البزوغ ولم يكن هناك غيرنا، عدت للمنزل ونمت ساعات طويلة، وعندما استيقظت واسترجعت ما حدث لم أصدق، ظننت أنها كانت سرابًا اختلقه عقلي حتى يجبرني على البوح بعد أن ملَّ من خنقي للكلام بداخله، لكن في صباح اليوم التالي رأيتها..

كان "غيث" يستمع إليه باهتمام شديد وينتظر أن يُكمل حديثه فقال يستحثه بعدما رآه ساهمًا لبضع ثوان:

- ماذا حدث؟

قال وفي صوته شيء من الضيق:

- أردت استغلال الفرصة فتسرعت في كلامي، وهذا التسرع أبعدني عنها وأخرني سنوات بعد ذلك.

نظر إليه مستفهمًا، فأكمل موضحًا:

- تحدثت معها وأنا محافظ على عدم خلع نظاراتي الشمسية حتى لا ترى عيناي المحقنتان بسبب بكائي في الليلة الماضية، طمأنتني حينها ببضع كلمات "كل هذا سيمضي" لقد كانت جملة عادية بل وربما مبتذلة بلا معنى أمام ما أُعانيه، لكن الطريقة التي قالتها بها وحجم الحنان الذي ضخته فيها أدخلاني في حالة من الهدوء والتسليم لا يسعني وصفها.

أخذ كرسيًا ثم قربه من البحر أكثر وغرس أرجله الأربع في الرمال، وجلس عليه ليداعب الماء قدميه، جاء "غيث" وراءه وصنع صنيعه، فتبسم "هادي" من فعله:

- لقد صنعت مثلك الآن تمامًا، انقدت وراء شعوري دون أن أفكر لماذا أفعل ذلك، أخبرتها أني معجب بشخصها وأني أريد أن نكون معًا طوال العمر، لكنها صدمتني بردها الذي كان صحيحًا تمامًا: "أنت الآن مشتت ولا يمكنك أن تجزم

بأن هذه المشاعر لي أنا، لقد خرجت من علاقة بالأمس فقط، لا أظن أن هذه المشاعر لي، عليك أن تتعافى أولًا من ألمك السابق قبل أن تكتب قصة جديدة**!"**

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

قال بصوت نادم:

- اختفت تمامًا.

وقف "هادي" وتحسس رقبته في قلق:

- أين صفارة الإنذار؟ الشاب الذي هناك يتعمق كثيرًا في البحر وقد يغرق.

نظر "غيث" حيث أشار، وقال يتمهله قبل أن يطلق صفيرًا عاليًا:

- إنها معي.

انتبه الشاب وبدأ يعود أدراجه وهما يتابعانه بعيناهما، سأله "غيث" باهتمام:

- ماذا تعني بأنها اختفت؟**!**

- أعني أني لم أرها بعد ذلك، كنت حينها أعمل محاميًا فلم أكن آتي إلى هنا كثيرًا، لكني كنت أسحب نفسي من بين مشاغلي وآتي باحثًا عن وجهها، ومع ذلك لم أجدها إلا بعد ثلاث سنوات تامة.

تأرجحت مقلتا "غيث" بينه وبين البحر بأمل كسرت الأيام جناحيه، استطرد "هادي" حديثه:

- عندما تركت وظيفتي قررت أن أمتهن الغوص فقد كانت هذه هوايتي منذ أن كنت صغيرًا، لكنه القدر جعلني أعمل هنا منقذًا، لا أدري كيف حدث ذلك، أو لعلي كنت أريد البقاء في المكان الذي قابلتها فيه، لعلي أراها مجددًا، في كل صباح كنت أستيقظ وآخذ الشاطئ ذهابًا وإيابًا أنبه من يوشكون على الغرق بينما أنا تائه في تعقبني لأي أثر يقودني إليها، بدأت أفقد الأمل مع مرور الأيام، حتى فقدته بالفعل، وأصبحت أيامي مكررة ومعتادة لا أميزها من بعضها، حتى أتي ذلك اليوم الذي رأيتها فيه وكانت تسير أمام الماء الجاري، وتجمع الصَدف، صُعقت ولم أصدق عيناي فطلبت من زميلي أن يأخذ مكاني حتى أعود، وذهبتُ أراقبها حتى وصلت لمنزلها، رأيتها تأوي

إلى صومعة مليئة بالنباتات والزهور المختلفة، كان قلبي ينبض بسرعة حتى أني سمعت صوته، وعدت أدراجي أضحك وأركض كالذي أصابه مس جنون، تعرقلت في رمال الشاطئ وسقطت عدة مرات من فرحتي، وقد سقطت هيبتي معي، لكني لم أهتم فالناس الذين سأراهم على الطريق لن يروني ثانية، ركضت وقفزت في البحر، تعمقت في السباحة كثيرًا حتى تأكدت أني بعيد عن كل ما هو بشريّ وصرخت فرحًا، وبكيت.. كيف كانت قريبة مني كل هذا القرب ولم أرها.

وضع يديه في جيبه يُخفي ارتجافة باغتته:

- في صباح اليوم التالي قررت الذهاب لمقابلتها بدون ترتيب أو تفكير، وأن أتحدث أمام والدها بكل ما جرى، كنت أرى أن الطريقة المثلى هي إحضار باقة من أندر الزهور لتكون هدية أنيقة تليق بمقامها، لكني تراجعت عن قراري في الوهلة الأخيرة، وعدت أدراجي أفكر كيف سأعترف لها بطريقة غير اعتيادية، وقعت عيناي على صناديق الأصداف التي كنت أجمعها من صغري فلمعت في ذهني فكرة جعلتني أضحك بصوت مرتفع، صحت:

- أجل.. أجل.

وضعت قماشة بيضاء على الأرض وجلست أرص الأصداف عليها، ثم أنتقي المميزة منها، التي تحمل طابعًا مختلفًا، ولونًا هادئًا، وملمسًا ناعمًا غير حاد. تركتُ البقية أرضًا رغم أني لم أعتد على ذلك فأنا حريص عليهم أشد الحرص، لكن الآن كل شيء يتغير بطريقة لا أستوعبها، أمسكت ورقة وقلمًا بتلهف وبدأت أكتب:

- "أخيرًا وجدتكِ، أخيرًا.. كيف اختفيتِ كل ذلك الوقت؟"

شطبت كلماتي فلم أكن أريد أن أجعلها تحمل عتابًا من أي نوع، وإنما جعلها مفعمة بالحب، ارتفع صوتي:

- الحب!

تناولت ورقة نظيفة:

- "أحبك.."

لكني سرعان ما تذكرت أني في آخر مرة اعترفت لها بذلك اختفت، انقبض فؤادي ومزقت الورقة، درت بعيناي في أرجاء الغرفة بتوتر فوقعتا على زجاجة عِطر، كان ذلك النوع الذي يضعه أبي دائمًا، وعندما اختفى ذلك الحضن الدافئ لم أجد غير عطره لكي يحتويني.

همس "غيث" مواسيًا:

- رحمه الله.

أومأ "هادي" برأسه ممتنًا وكأنه اعتاد على كلمات العزاء بعد أن كان يمقتها فهي لا تُسمن ولا تغني من جوع، نحن في رحمة الله سواء كنا أحياء أم أمواتًا، تجاهل خاطره السابق مستأنفًا:

- قررت ألا أكتب شيئًا ففي آخر مرة جعلتني الكلمات أفقدها ثلاث سنوات متتالية، لعل الصمت يكون أبلغ من الاعتراف هذه المرة، لكني تراجعت عن فكرتي هذه فالصمت بعد طول غياب يزيد الغياب ولا يبقي على الحبيب، كتبت بتمهل وأنا أحسب كلماتي:

- "أنتِ نادرة، لذلك لن أهديك باقة من الزهور أعبر فيها عن حبي كما يفعل أي شاب إن أحب فتاة، دعيني سيدتي أُشاركك أثمن ما لديّ: إن هذه المجموعة من الصدف هي الأفضل والأقرب لي..."

ثم أرسلتها في بريد من دون اسم مع صندوق من الصدف.

نظر إليه مستفهمًا:

- لماذا لم تخبرها في الرسالة من تكون؟

- آه يا صديقي لا يلدغ المرء من جحر مرتين، إنها تؤمن بالحب المقرون بالأفعال لا تميل لكثير الكلام، تريد أن تجد من يحاول لأجلها.

فهم ما يرمي إليه، فقال يمنحه بصيص أمل:

- ستجدها هذه المرة أيضًا صدقني.

حرك رقبته في تسليم، وأكمل ليزيح غيمة الحزن عن رأسه:

- رأيتها في اليوم التالي، كانت تجمع الأصداف من على الشاطئ وكنت أتابعها من بعيد محاولًا أن أتبين ملامحها بشكل أدق.. لم تتغير مطلقًا، لاحظت أنها تبحث عن شيء ما فاقتربت منها وسألتها عما تبحث، نظرت إليّ بتوتر، عندما رأت بذلتي فهمت أني أعمل هنا فطلبت مني المساعدة في تفقد مفتاحها الضائع.

ضيَّق عينيه وهو يداعب الماء بأصابعه قبل أن يستطرد:

- طرق صوتها قلبي فانفجر نبع لزمزم منه، لكني شعرت بغصة في فؤادي عندما لم تعرفني.

فتشت معها عن المفتاح وأنا أختلس النظر إليها وهي غافلة عني، ودقات قلبي تتقافز وتتسارع، وشعور بالضيق يختلط بحماسي، كيف لها أن تنساني وأنا الذي كنت سأجن عندما لم أعثر عليها، بل كيف رحلت هكذا فجأة مثلما جاءت؟
باغتتني بسؤالها:

- هل رأيتك من قبل؟

أخرج كفيه في جيبه وهو يبلل شفتيه ويذمهما:

- لا أدري لما توترت حينها ونفيت ذلك، فاستدارت ذاهبة بعدما فقدنا الأمل في العثور على المفتاح.

سرت وراءها مجددًا دون أن ألفت انتباهها، حينما وصلنا لمنزلها سمعت والدها يناديها بـ "لارين" عندما فتح لها الباب، كان لذلك الاسم رنين غريب في نفسي، وقد عرفت سر تسميتها به بعد زواجنا، فقد كان والدها وحيدًا لجدتها، وقد كانت الجدة تحبه ومع ذلك بقي شوقها لأن يكون لها فتاة صغيرة تهتم بها وترعاها فقامت بزراعة شجرة برتقال جميلة وأغدقت عليها العطاء والمحبة، كانت هذه الشجرة أول بذرة لحبها للنباتات قبل أن تمتلك حديقة غناء، وعندما ولدت "لارين" كان والدها يعلم حب والدته الكبير لتلك الشجرة فسمى ابنته بذلك الاسم تخليدًا لذكراها وإسعادًا لقلب أمه، قالت لي أن اسمها يعني أيضًا الباب العظيم، وقد كان دخولي لحياتها وإصراري على أن تكون شريكة لي أينما امتدت خُطاي في هذه الدنيا بابًا عظيمًا من جبر الله ولطفه، فلن أسمح لأي شيء أن يبعدها عني، وتعود حياتي غائمة بعد أن يغلق بابها، سأجدها مهما كلفني الأمر.

تعالى النداء على "غيث" من المقر فركض ملبيًا له، بينما وقف "هادي" قابضًا على وشاحه الرمادي يلوذ به من تدافع الأفكار في خلده، نفض عن رأسه هذه الخواطر السوداء التي احتلته، ثم عادت تراوده ثانية فانقاد لها مرغمًا: "ترى كيف حالها؟ هل أصيبت بأي أذى وتحتاج لعوني؟ كيف أمضت الخمس ليال الماضية؟ لقد بحثت عنها في كل مكان، أين هي أين؟ "



رفع الغطاء عليها وقبَّل جبينها ثم وقف قليلاً يتأمل شعرها الأزْهَر والتجاعيد التي زينت وجهها، ثم عاد إلى مكتبته بعدما تفقدها وتناول رسالة أخرى من رسائل صديقه، مرَّ بعينيه على مقدمتها التي حفظها من كثرة ما قرأها، كاد يتركها وينتقل لواحدة ثالثة لولا أن استوقفه سطران لامسا شغاف قلبه وكأنها المرة الأولى التي يقرأهما:

- .... غرس البائع أطراف أصابعه في الطمي الليّن ليصنع دائرة مفرغة عندما سأله أحدهم وهو يختار طبقًا فخاريًا:

- برأيك ما الشيء الباقي في هذه الحياة؟

- إنه المَعروف.



- منزلك دافئ للغاية، له رونق خاص، ألوانه هادئة، ورائحته تنفخ الطمأنينة في النفس.

- كل شيء تصنعه بيدها يقطر حبًا.

قال جملته الفائتة وهو يضع أمامه كوبًا من الشاي وكعكعًا بالفراولة، علَّق:

- لن يكون الكعك لذيذًا مثل الذي تعده هي لكني حاولت!

ضحك "غيث":

- اِحمد الله أني لم أتذوق كعكها وإلا لكنت سخرت منك الآن.

قام من مكانه يفتح النافذة والابتسامة لا تفارق ثغره، تسللت أوراق اللارينج حالما وارب الزجاج، مسح على أوراقها وتناول نفسًا عميقًا من عبير الريحان، أكمل حديثًا كانا قد بدآه:

- قررت أن أعترف لها بطريقة تليق بها فقد كانت فريدة وفاتنة، قمت بإحضار قصاصات خضراء بلون الميدالية التي ضاعت، كما أني لاحظت تسلل اللون الأخضر في جميع ملابسها ولو بمزركشات بسيطة وأغرقتها بعطري كما غرقت بحبها، كنت أذهب إلى منزلها يوميًا وأضع الصدفة هنا تمامًا بين أعواد الريحان، وأستمتع وأنا أنتشلها من كل ما يشغل بالها، وأصبح أنا وحدي محور تفكيرها، حتى ولو لم تعلم من أكون!

لقد أبلت خطتي بلاء حسنًا في جذب انتباهها بادئ الأمر، لكن ما لبث أن تحول انبهارها لضيق، حتى أنها أغلقت الستائر مرة، فعزمت أن أشق ذلك الصمت باعتراف على الطريقة التي تحبها، أليست تحب الكتابة؟ إذًا فهي رسالة.

لن أنسى ذلك اليوم عندما كتبت لها الرسالة، ووقفت خلف الشجرة مراقبًا فوجدتها تمزقها، لقد تضايقتُ حينها ورحلت بهدوء فإذا بها تتبعني، لاحظت ذلك من ظلها عندما التفتُ لألقي نظرة أخيرة عليها فركضت لكي لا ينكشف أمري، وجرتْ خلفي وهي تناديني بالغريب، كان بإمكاني حينها أن أقف وأصارحها وأزيل عني ذلك اللقب الذي لم أستحسنه منها، لكني لم أكن جاهزًا بعد لاعتراف صريح كهذا.

جلس بجواره على الأريكة المزينة بزهور بيضاء صغيرة في خلفية وردية، وتناول كوب النعناع ورشف منه بتلذذ كما كانت تفعل تمامًا، أصاب الحزن عيناه عندما وقعتا على صورتها المُعلقة على الجدار، شعر بأن صمته طال وخشي من ملل مرافقه، فقال قاطعًا امتداده:

- ذهبت إلى منزلها في اليوم التالي وراقبتها وأنا أرتب لمقابلة أخرى، حاولت جعلها أقرب ما تكون للمصادفة، وعندما أفصح الصباح عن مشرق جديد تنفست معه الصعداء وأنا أدعو أن يمر اليوم كما خططت له، قررت في اللحظة الأخيرة تغيير عطري، وبينما أنا أرتب للتقرب منها والاستمتاع برؤية صدمتها أني أنا ذاته الذي حيرها، صفعتني بهذه الجملة عندما رأتني: "ابقَ بعيدًا!"

- ماذا بعد؟!

- أخبرتك أنها تحب من يحاول من أجلها ولا يستسلم، وأني لن أسمح بضياعها من جديد، كتبت لها رسالة لكنها لم تعجبني فلم تكن تعبر عني بالشكل الذي أريده، فمزقتها وكتبت أخرى فأخرى.. كنت على وشك تقطيع الرسالة للمرة الخامسة لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة ودسستها في الظرف دون مراجعة، تأملت الجرح في ذراعي لم أكن أشعر به وأنا أكتب رسالتي فقد كان خدر الشوق يجري في أوصالي، ففككت الرباط أتفحص معصمي الذي التهب، تذكرت كيف احتك أثناء هروبي منها بقطعة حديد خارجة من السور الخشبي الذي يضم البستان، ولم أشعر بإصابتي تلك إلا عندما انهرت على سريري منهكًا أحاول كبح أنفاسي التي تسارعت في سباق ملتهب.

أعدت ربط ذراعي وعيناي مثبتتان على الرسالة أتأملها وأرسم آمالاً على ضفتها، لقد تشوشت نظراتي وشعرت بدوار في رأسي ثم...

فتحت عيناي فوجدتني لم أبرح مكاني، لكن ضوء الفجر أشفق عليّ وأيقظني من الإغماء، تجاهلت صوت معدتي وقد كانت وجهتي معروفة سأذهب للطبيب أولاً ثم سأنهي اليوم بالرسالة التي سأدعو فيها حسنائي "لارين" للعشاء، وقد كنت متأكدًا من حضورها، فلابد أنها تريد معرفة هوية مراقبها الخفي.

التهم "غيث" قطعة كبيرة من الكعك، وقال وهو يغطي فمه:

- هل أتت؟

ثم أضاف وهو يشير للطبق:

- أتعلم أنها ليست بهذا السوء، بل إن طعمها رائع.

أومأ برأسه بامتنان، ثم قال وهو يضع الكوب على الطاولة بجواره:

- لم تأتِ، جلست أعصر معصمي من الألم والانتظار يضاعفه، أيقنت بعد مرور ساعة على الموعد المحدد أنها لن تأتي، ومع ذلك قادتني خطواتي إلى منزلها، رأيتها تتوشح السواد ولم يبدُ عليها آثار البكاء، استنتجت أنها قد مزقت رسالتي من دون أن تقرأها أو رمتها، حاولت مقاومة ضيق صدري، كان عليّ أن أستسلم وأُلبي رغبتها "سأبتعد عن طريقها... للأبد."

كان ذلك كل ما يجول بخاطري حينها، قضيت عشرة أيام هي الأسود في حياتي، ولأني خلقت لأحاول.. حاولت نسيانها لكني لم أستطع، قررت حينها أن أُظهر

نفسي وأن أدعها تجيب عن كل أسئلتي حتى لو رمت أحلامي في وجهي وأغلقت الأبواب، لن أترك لنفسي أملاً يخنقني فيما بعد، لن أترك أي فرصة للندم.



"... لقد وفدت جديدًا على منطقة ما وأنا في الخامسة والعشرين من عمري، وعندما وجدت منزلاً أستقر فيه بعد أيام من المبيت في الشوارع أبصرتها وأنا أفتح شباكي، ففتح قلبي بابه لها فقط من بين رؤوس أخواتها المتراصة بجانبها، عندما رأوني دخلن جميعًا إلى بيتهن وأقفلن النافذة، إلا هي دلفت إلى فؤادي فأغلقت خلفها.

أُجيد أن أكون رومانسيًا أليس كذلك يا "نقاء"؟

مضت الأيام ونحن نمضي الليل ننظر لبعضنا من النافذة، لم يكن حديثنا مسموعًا، فقط نترك العَنان لعيوننا مستأنسين بحديثهما، سنتان على هذا الحال، حتى أشفقت عليّ من الانتظار ومنحتني بعض الوصال، كان لقائي بها لا يتخطى دقائقًا معدودة، لم تكن كافية أبدًا لأصف لها الشوق الذي يثور بداخلي آملاً أن يطول اللقاء.

كنا متفاهمين كثيرًا يا رفيق، في الحقيقة هي من كانت تفهمني، وهل يجد البحر عفويته إلا في الشتاء؟ انظر كيف ركبت اسمينا في جملة رائعة، ألا ترى أن بداخلي روح كاتب مبدع؟

لنعد إلى ما أريد البوح به إليك لعل همي يزول ولو قليلاً، كنت ألجأ إليها عندما يضيق بي الكون رغم رحابته، وأرغب برؤيتها ومشاركتها حزني، عندما كنت لا أريد التحدث إلى أحد أجدها أمامي، فتتسرب الكلمات مني طوعًا أو كراهية، أحيانًا كنت أختلق مشاحنات بيني وبين زملائي في العمل وأعيش دور البطل المتسامح، كريم الخلق، فأرى الإعجاب براقًا في عينيها فيستكين خافقي وأرضى عن كذبي لأنه أرضاها.

بالطبع عندما كبرنا أخبرتها على مرات متفرقة عن تلفيقي للبطولات، وكان ذلك بدون قصد مني أن أتحايل عليها، كما يقولون: "فالكذب ليس له قدمان." خطواته قصيرة، وقد كنت أقع في شر أعمالي، الواحد منا يكذب كذبته وينساها فتكشفه الأيام، كانت تضحك عليّ عندما أفضح نفسي أمامها، وكنت أهيم حبًا بتلك الضحكة الخجول.

لكني لم أخبرها يومًا بما أحبه فيها، كنت أتركها حائرة لتلميحاتي، حتى أتى اليوم الذي تقدم فيه لخطبتها قريبٌ لها، لم أتمالك نفسي أمام الخبر الذي نعتني فيه، فتركت ترددي جانبًا وقلت لها أني أريد الزواج بها وأني أحبها، لم تستطع مداراة فرحتها خلف ستار الحياء، فقد سقط المطر أخيرًا بعد طول جفاف... تزوجتها.

من حينها أصبح الأمان أنيس دربي، وعيناها مرسى سعادتي، وكفها سكني، لقد جعلت حياتي تستحق أن أصفها بأنها حياة هادئة، هانئة، وادعة.. كنت أحمل لها ذلك المعروف على عاتقي لكني لم ألفظ به يومًا، ربما لأني اعتدت على الكتمان.. أو لعلي كنت أظن أنها تستشعر امتناني؟ لكني كنت مخطئًا، كيف ستشعر به إن أنا لم أخبرها أبدًا؟

اكتشفت لاحقًا أنك إذا أردت أن يبقى حبل الود متصلاً بينك وبين من تحب فعليك أن تخبره بكل جميل تحمله له في قلبك.

في الحقيقة لقد كنت مقصرًا في اهتمامي بها بقدر حبي لها، لم أستطع أن أرى حزنها الدفين من وراء ابتسامتها اللوامة.

نسيت إخبارك أنها لم تكن تنجب، ولذلك ظننت أن إهمالي لها يرجع لهذا السبب، وكم كنت أخبرها أنني راضٍ بما قسمه الله لنا، ولكن ذلك لم يجدي نفعًا فلم تجد في أفعالي ما يثبت صدق كلامي.

لا أخفيك سرًا يا رفيق أني كنت حزينًا، فكم تمنيت سماع كلمة "أبي" لكني كنت موقنًا أن حزني مهما عَظُم فإنه لن يضاهي حزنها، وأن شوقي مهما طال فلا يقارن بشوقها، صبرنا.. وكلما أردت أن أواسيها لم أستطع فأنا إنسان لا يستطيع أن يواسي أحبابه، بصراحة لقد طلبتْ مني مرارًا أن أتزوج، ولكني كنت أرفض بإصرار مراعاة لشعورها وحبي لها، فهي لم تكن تملك في هذه الدنيا سواي وأنا لم أكن أريد أن يكون لي غيرها.

لكن حتى الآن لا أدري لماذا ابتعدت عنها، سنتان متتاليتان بدافع العمل، لكني في الحقيقة كنت أهرب، لقد كان ثقيلاً عليّ رؤيتها هكذا كل يوم، كنت أشعر بعجز مقيت، رأت في غيابي دعوة لكي ترحل، وأني لا أريد أن أبادر بقطع ما يربطنا، فقررتْ أن تقطع أملها وألمها معًا، وأرسلت لي رسالة على بريدي تطلب فيها الطلاق، كتبتْ أن هذا القرار غير قابل للنقاش، لاحظت دموعها التي أسالت حبر بعض الكلمات، كانت هذه الرسالة الوحيدة التي رددت عليها بين

مئات الرسائل الأخرى التي أرسلَتها على فترات متقاربة، ثم تباعدت بسبب الجفاء والتجاهل اللذان بدرا مني، لقد واقفت على ما طلبته.. طلقتها.

ولا تسألني عن السبب لأنه من ضمن لائحة الأفعال التي لم أدرك لماذا فعلتها حتى يومنا هذا.

بعد ثلاثة أشهر عدت إلى المنزل، ولم أجد فيه أي شيء من ريحها، فشعرت بالغربة رغم أني عدت توًا إلى بلادي.

لا أدري كيف كان قلبي قاسيًا هكذا؟ أنا خجِلٌ حتى من قول هذا أمامك، لكني... لكني تزوجت بعد شهر من "شمس"، مخطئ كثيرًا يا رفيقي من يرى جميع الإناث متشابهات، بل إنه لا يفقه شيئًا، لأنه لن تستطيع أي منهن أن تُنسيك تلك التي أحببتها بصدق... أحببتها.

حاولتُ التهرب من هذه الحقيقة لكن بلا جدوى، لأنها ستظل واقعًا حتى وإن طال إنكاري لها، بعد أربع سنوات من زواجي بـ "شمس" ماتت، وتركت لي ابنة صغيرة "شتاء" أجل على اسم زوجتي الأولى، بالطبع لم أحكِ لـ "شمس" عنها.

لم تكن صغيرتي قد تجاوزت الثالثة من عمرها عندما ماتت أمها، أحببتها كثيرًا يا "نقاء" فقد كانت ذلك النهر بعيد المنال الذي ظهر أخيرًا بعد طول ظمأ، كم كنتُ أرتاح عند سماع كلمة "أبي" من شفتيها الصغيرتين! وكأنها موسيقى هادئة تريح القلب المنهك الذي رسى بعد إبحار طويل. ربيتها، وتعلمنا العديد من الأشياء معًا، استيقظت معها عندما كانت تمرض وسهرتْ معي بعينيها الدامعتين عندما كنتُ أشكو ألمًا.

وفي يومٍ بعيد، كانت عائدة من المدرسة ومرَّت عليّ في المقهى الذي كنت أعمل فيه في ذلك الوقت لتخبرني أن معلمتها التي تحبها مريضة وأنها تريد زيارتها كما فعل أصدقاءها، تساءلت عن سبب مرضها فأخبرتني أنها خضعت لعملية في القلب، في الحقيقة قلقت على ابنتي لأنها رقيقة، وربما تقضي طريق عودتها باكية لذلك أصررت على مرافقتها، وبالفعل ذهبنا..

وتخيل يا "نقاء" إنها هي!

"شِتاء" نعم لقد كانت هي، ظلت تردد اسم ابنتي وهي تنظر إليّ بعينان لائمتان، شعرتُ بانقباضة قلبها فتدافعت الدموع من عيناي وفرت هاربة لتفضح شوقي وخوفي، رأيت في عينيها ما خبأته لها دومًا، ومر أمامي كل شيء كان بيننا

كشريط يُسحب سريعًا وضوء مثبت عليه يهدأ في مواضع سعادتنا، تذكرت كل التفاصيل حتى المهمشة منها، وكأن كل ما مضى كان بالأمس... بالأمس فقط، ضحكاتنا، شجاراتنا الطويلة، بكاءنا، حتى بكى فؤادي، وانفطر عندما رأى أيامنا التي وأدتُها قد رفعت تراب الذكريات وعادت تتنفس، عادت للحياة، كان الأمر يحتاج نظرة حانية منها فقط لتتساقط قسوتي، وينهار جدار النسيان الضعيف الذي جاهدت ليكتمل بناءه، ابتسمت صغيرتي وكأنها فهمت حوار أعيننا، وأمسكتْ بتلك الأشواق التي حلقت عاليًا، تلك التي كذبتني ووضعت الحقيقة أمام عيناي فأنا لم أستطع أبدًا نسيانها.

حبك لأحدهم لا ينفي أن تحب أحدًا آخر، إن أعظم الطاقات التي وضعها الله في الإنسان هي طاقة الحب فكيف تختزلها في إنسان واحد؟ أنت تفعل ذلك بإرادتك عندما تعترف بحبك لأحدهم فتشعر بمسؤولية تجاهه وتريد أن تعطيه كل حب العالم وليس حبك فقط، لكن إذا حدث وانتهى ذلك الحب بأي سبيل، فإنك قد تحزن، تتألم، تنعزل... حتى يدق قلبك للمرة الثانية، والثالثة، وحتى ما بعد العاشرة، وفي كل مرة تفترق عمن أحببت توقن أنه لم تعد لديك مشاعر حب لتبذلها، والحقيقة أنك قد تفنى لكن الحب بداخلك سيظل باقيًا متجددًا، على أوراقك المدفونة في أماكن لا يعرفها سواك، ودموعك الجافة على وسادتك، ونظراتك التائهة في سقف الغرفة، ويدك المرتجفة إذا سمعت اسمه، ووخزة قلبك إذا شممت عطره، وبكاءك إذا وصلك خبر مرضه، وخطاك لانتظاره، ثم جلوسك بجواره، ونقش صغير على شجرة تعاهدتما أن تتلاقيا عندها ما حييتما، فمتما وبقيّ هو خير شاهد ودليل على أن الحب لا يموت حتى لو مات أصحابه، فبصماته موجودة في كل مكان زاره الأحباب.

تعاقبت الأيام وكنت أترك العمل وأتحجج لابنتي لكي أوصلها إلى المدرسة، فمرة أخبرها أن الوقت مازال مبكرًا جدًا على خروجها بمفردها، وأنه يجب عليّ أن أصحبها لأطمئن عليها، أو بالأحرى عليهما، ومرة أخرى أقول لها أن لي ملاحظات حول دروسها مع أني لم أكن أجد شيئًا أقوله عندما نصل، وأرحل والخجل يكسوني من نظراتها التي تكتم ضحكة خلف ستار الجدية.

بعد سنة من هذا الحال وفي نفس اليوم الذي نويت فيه التحدث إليها بما في داخلي بعد تأجيل، أتت صغيرتي باكية لتخبرني أن معلمتها التي تحبها وأحبها ماتت بسبب نوبة قلبية، عاشت وماتت بألم فؤادها، ما يمزقني هو أني كنت السبب في شقائها.

لا أدري لماذا يزور الموت كل من أحبهم، ولا يأتيني؟ مع أني أكثرهم هرولة خلفه، أم أنه لا يركض إلا وراء الخائفين منه؟

لقد كان اسمي آخر ما نطقته وهي تحتضن ابنتي وتبحث عني في عطرها، تأخرتُ جدًا بينما البركة في البكور...

❈❈❈❈❈❈❈

- "شعرت أني أعرفك عندما رأيتك، لكني لم أدرك أنك أنت.. أتفهمني؟

- هناك الكثير لا تعلمينه بعد، لكن بسيطة يمكنكِ فهم كل شيء إن أعطيتني فرصة.

تأملتني بشيء من المطاوعة الممزوجة بالتردد والخوف:

- وماذا ستفعل بها؟

جمعت كفيّ أمامي على الطاولة، ثم قلت بشيء من الحماس:

- سأثبت لكِ أني أستحقها، وأني جاد في مشاعري نحوك.

أزاحت الكرسي قليلاً إلى الوراء:

- أنت لا تعرف عني أي شيء حتى تدين لي بهذه المشاعر.

- لكني أتطلع للمعرفة، حسنًا أعطي كلانا فرصة.

رسمت ابتسامة على جانب ثغرها تهزأ فيها من الحال، قالت تحاول إنهاء الحديث، وإيقاف خطوات الأمل الذي بدأ يتسلل بداخلها:

- لن تتحمل ما أنا عليه.

كدت أقاطعها لكنها أشارت إليّ حاسمة الأمر، فتركها تكمل ما بدأته:

- أنا امرأة تحب العزلة والجلوس بمفردها مع النباتات والكتب، أقضي معظم وقتي بينهم، لن أستطيع تحمل مسؤولية طفل، ولا أنوي الإنجاب أبدًا.

ضحكتْ وهي تنظر إليّ بعين فاحصة:

- أهذا يكفي أم تريد أن تسمع المزيد؟

ضيقت عينيّ متحديًا:

- بل أكملي.

- لا أحب الضوضاء، وأميل للهدوء، مزاجي متقلب للغاية بإمكانك أن تعبث فيه بالكلمات فواحدة تجعلني أعانق السماء من فرط سعادتي وأخرى تقطع أنفاسي من كثرة البكاء، لا أحب أن يتحدث أحد معي بصيغة الأمر إلا الله، لكن من يطلب مني برفق أعطيه عيناي إن أراد، أنا أيضًا سريعة الغضب، لا أستطيع أن أكتم ألمي بداخلي، متسرعة، أفكاري عشوائية، لكني مع ذلك أحب النظام جدًا في المكان الذي أعيش فيه، ربما تراني متناقضة، أشعر بذلك دائمًا، يقولون أن ذلك يرجع لكوني "جوزاء" في الحقيقة أنا لا أؤمن بالأبراج أبدًا، وأعلم أنها محرمة لكني أقولها لتدل على التناقض فقط، ولا أعلم أي شيء آخر عنها.

ضحكتْ بخفوت، وهي تخفي فمها بأطراف أصابعها:

- في بعض الأحيان أكون ثرثارة كما ترى.

بادلتها الابتسام، ثم قلت وأنا أركز عينايّ في عينيها مما جعلها تخجل، وتتضارب أنفاسها:

- لقد صمتِ كثيرًا.. لثلاث سنوات كاملة، ثرثري كثيرًا من فضلك، أنا بحاجة لسماعك ورؤيتك.

قابلت كلماتي بسكوت يحتضنه الحياء، حاولتْ فيه أن تجعل تعبيراتها جامدة لكنها لم تستطع، قلت وأنا أدفع الطاولة ناحيتها قليلاً، ثم قربت الكرسي:

- أنا لست كاملاً حتى أحكم عليك بالنقصان، كل ما قلتيه أستطيع تقبله معك، ربما ليس مع غيرك لكن معك فقط. أنا أيضًا لديّ مخاوفي وعيوبي، وأتمنى أن تتقبليها.

نظرت إليّ مستفهمة، فقلت وأنا أرمقها بطرف عيني:

- أولها أني عنيد عندما أقع في غرام شيء فلا يمكنه الفكاك مني مهما فعل.

أزاحت الكرسي الذي تجلس عليه للوراء مجددًا، وهي تبتلع ريقها بتوتر..."

نظر إلى صورتها المعلقة على الجدار ثانية، قال له "غيث" الذي كان يستمع إليه باستمتاع:

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

ضرب كفًا بكف والندم يحوم في وجهه:

- لا أخفيكَ سرًا أني عندما تركتها وعدت للمنزل وبدأت أفكر بعقلانية فيما قالته ترددت، وشعرت بأني تسرعت في عرضي عليها، تنازع في داخلي شعوران واحد يدفعني دفعًا لكي لا أفلتها مجددًا، والآخر يؤنبني على تسرعي ويخبرني أني قد لا أستطيع تحمل ذلك، وهذا قد يخيب ظنها فيما بعد ويؤثر عليّ، لكن كما هي العادة تنتصر العاطفة دائمًا.

قام وألقى نظرة على القِدر الذي يغلي على النار ونادى "غيث":

- ها قد نضج اللحم هيا أعد لنا الوجبة التي وعدتني بها!

شمر عن ساعديه بحماس:

- سأبهرك.

وقعت عيناه على رفٍ تعلوه الكثير من الفناجين المرسوم عليها أشكال مختلفة من أوراق النعناع والتوت وشرائح البرتقال والفراولة، قال باسمًا:

- لا بد أن هذه الفناجين لها!

حرك رأسه مؤيدًا، فقال "غيث" يحثه على إكمال حديثه وهو يهرس حبات الثوم:

- للعاطفة تأثيرها بالطبع لكن العقل لا يكف عن التدخل في كل أمر حتى ولو نحيته جانبًا فإنه لا يتركك وشأنك.

- هذا ما حدث بالفعل، بعدما تزوجنا ببضعة أشهر وبدأ كل منا يعتاد الآخر أصبحنا نركز على العيوب التي خفيت عنا من حماس البداية، لكن كلانا لم يتحدث بما يضايقه، بدأ الملل يتسرب إلى نفسي واشتاقت روحي منها طفلاً، تحدثت إليها لكنها ثارت عليّ وغضبت مني بشدة وقالت أنها أخبرتني بأنها لا تريد أطفالاً وأنها لم تخدعني فقد كانت صريحة معي منذ البداية، لم أنسَ كلامها

لكني أردت أن أواجه خوفها معها، وأن أحقق تلك الأمنية التي باتت تراودني كثيرًا، ربما كان ذلك لأن كل ممنوع مرغوب.

أخذ طبقًا ووضع فيه اللحم وأضاف عليه الملح والفلفل، بينما ينصت إليه "غيث" في اهتمام:

- لقد عزفت عني وأصبحت لا تتكلم معي، كلما رأيتها كان على وجهها آثار بكاء لم تستطع إخفاءه عني، لم أتحمل ذلك واعتذرت لها ووعدتها أني لن أُكرر ذلك أبدًا، أخبرتها بكل ما في نفسي وأني أريد أن أحمل معها لا أن أُحملها ما لا تطيق، في تلك الليلة ذهبنا معًا إلى بيت والدها وعندما عدنا كان هناك شيء عظيم قد تغير، لقد وافقتْ! بالطبع كان لوالدها يد في هذا التغيير، بعد بضعة أسابيع أخبرتني بأسعد خبر في حياتي، سيكون لنا مولود صغير.

ترقرقت الدموع في عينيه فربت "غيث" على كتفه بشفقة، قال وهو يقاوم ضيقه:

- كسر الخوف فرحتي يومها فقد كنت أعلم أن هذه الفترة لن تكون سهلة علينا، وبالفعل لقد كان ظني في محله، كانت تمر بتقلبات مزاجية كثيرة وتبكي أكثر، تارة ندمًا وتارة خوفًا، أصبحت أكثر توترًا وعصبية، لكني تحملت لأني أعلم مدى صعوبة ما تمر به، وأنها تنازع كل يوم خوفها وذكرياتها، الوحيدة على هذا الكوكب التي لا تحب البحر وتخشى أن يمس ماؤه جسدها فسبحان الذي جمع دربينا!

رأي في عينيه استفهامًا، فقال يبدده:

- لقد غرق أخوها الصغير ولم تستطع إنقاذه، وهي تُحمل نفسها نتيجة ما حدث فقد كانت على وشك إنقاذه لكنها لم تتمكن من الصمود.

بدى على وجهة الأسى، فقال متأثرًا:

- يا إلهي كم أن الحياة قاسية.

- لا بد أن تكون كذلك، وعلينا أن نقاوم وإلا ستدعسنا وتمضي، لذلك حاولت مرات عديدة أن أجعلها تتحدى مخاوفها، لكنها كانت تنهار، مرة تنقاد معي وأخرى تراني قاسيًا أريد لها الهلاك، وأنا بشر لديّ طاقة وهي مهددة بالنفاذ على الدوام وقد حدث ما كنت أخشاه، انفجرتُ بها أثناء خلافٍ لنا، وقلت أنها تحملني

ما لا أطيق ومن حقي أنا أيضًا أن أجد من يسندني، فقد تعبت من كوني الداعم والمواسي دائمًا وأنها لا تبالي إلا براحتها، وإن قصرت معها أو طلبت شيئًا هي لا تريده تقيم الدنيا ولا تُقعدها، حتى وإن تنازلت وفعلَته فبترددها وقلقها الدائم تعكر عليّ فرحتي وتجعلني أندم لأني طلبت شيئًا.

وقفتْ حينها أمامي ذاهلة مصعوقة ووضعت كفها على بطنها.. لم تبكِ، لم تصرخ، قابلت كل هذا بالسكون وهربت من أمامي، تخشبت في مكاني عندما أيقنت ما فعلته، لقد كنت قاسيًا بشدة!

لاحظ ملامح "غيث" الجامدة وكيف أنه كان يلهي نفسه ويتهرب من النظر إليه، كان يعلم السبب فأكمل دون أن يلتفت للضيق الذي ملأ داخله:

- في تلك الليلة نمت على الأريكة، كنت متأكدًا أنها لا تريد رؤية وجهي، لكني تفاجأت بها في منتصف الليل توقظني بهدوء وتقول لي بحنان وكأن شيئًا لم يكن:

- لما أنت نائم هنا، ألا تعلم أني لا أطمئن إلا في وجودك.

أمسكت كفيها والندم يعصرني كدت أعتذر لكنها وضعت أصابعها على فمي وتوجهت للغرفة، ثم استدارت وهي تمسك مقبض الباب:

- الجو بارد هنا تعالَ ونم بالداخل كي لا تمرض.

نظر إليه "غيث" بشيء من اللوم لم يستطع مداراته، قال وهو يضع الغطاء على القِدر:

- لا أدري ماذا أقول لكني متعجب من رد فعلها، توقعت أنها ستصرخ عليك، وتخاصمك، و...

قاطعه "هادي" بانفعال:

- ليتها فعلتْ، ليتها فعلتْ، ليتها فعلتْ.

استيقظتُ في اليوم التالي فوجدتها أعدت الفطور وجلست تتناوله معي ببطء وهدوء كما اعتادت، وهي تمسح على رحِمها برفق، كانت تتألم لكنها تُظهر التماسك، لم أجرؤ على النظر إليها فدخلت لأبدل ثيابي وأذهب للعمل سريعًا كانت قد وضعتها على السرير مسبقًا، لم يتغير أي شيء!

خرجت من المنزل محاولاً الثبات لكن دمعي خانني، وأنا الثابت المتماسك في مثل هذه المواقف.

تسللت هاربًا من نظراتها، وسرت في الطريق تائهًا حتى وقفت أمام البحر كعادتي، وأنا أراقب منطقتي لأنذر من يقترب من المكان العميق في البحر والذي يغرق فيه أعداد كثيرة سنويًا، حتى أيقنت الدولة ما يجري وأصبحت تعين منقذين عند كل شاطئ، لكن من سينقذني وأنا الغارق في همي؟

عادا إلى غرفة الجلوس، فتح "هادي" درجًا وأخرج منه ملابس رضيع، وأضاف:

- تفاجأت بها في منتصف النهار تقف عند حافة الشاطئ والماء يصل حتى ركبتيها، دُهشت مما أرى فقد كانت تخشى أن يمسها البحر ولو بقطرة واحدة، ربما فعلتْ ذلك لأن الخوف يختفي عندما يحل الألم مكانه.

اقتربت لأتيقن من أنها هيّ وقد تأكدت لكنني لم أرد إزعاجها، أو بالأحرى لم أدرِ ما الذي عليّ قوله، كدت أعود أدراجي لولا أنها استوقفتني بكلماتها: "أحيانًا القسوة هي ما تجعلنا نواجه مخاوفنا، ربما هذه ليست قاعدة عامة، وإنما فقط لأني اعتدت عليها من أمي التي كانت تتخذها سبيلاً لجعلي أفعل ما تريده" لقد شقت صدري بما قالت فآثرت عدم الرد وسألتها:

- كيف عرفتِ أنه أنا؟

- من عِطرك، كيف يخفى عليّ وهو ما أرق نومي وشغل بالي لياليٍ طويلة.

تقدمت ناحيتها وأمسكت ذراعها، لم تمنعني.. لم تدفعني فخفت رغم أنه كان يجب أن أطمئن، لكنني أعرفها لا تقابل ألمًا بهذا السكوت إلا إذا جرحها بشدة، حاولت أن أعتذر مجددًا لكن قبل أن أتفوه بأي كلمة باغتتني وأنا أستشعر رجفة خفيفة في يدها:

- أنا لست غاضبة منك، لقد كنت على حق، وتحملتني كثيرًا، من حقك أنت أيضًا أن ترتاح.

وضعتْ يدها على بطنها المتكورة، ثم أضافت:

- لن أهرب مجددًا، سأواجه كل شيء أخافه، سأواجهك أنت أيضًا.

صدمتني كلماتها، فقالت موضحة وهي تفتح صندوق الصدف الذي أهديته لها سابقًا:

- أصبحت أخاف من فقدان اهتمامكَ بي، أتعلم أني في اليوم الذي أرسلت لي فيه صندوق الصدف هذا قال لي أبي عندما طردت من عملي أنه سيتجاوز كل مخاوفي معي، فقلت له أني "لم أعد صغيرة، إلى متى سأظل أختبئ خلفك بعد كل مشكلة أقع بها، بل إلى متي ستتحملني؟!"

وعندما واجهتَني بالأمس بالعبء الذي أضعه على كتفيك ترددت في ذهني هاتان الجملتان "لم أعد صغيرة.. إلى متى ستتحملني!"

سحبتُها من ذراعها وجلسنا على الرمال، قلت وقد فاض الحزن بداخلي نتاج ما قالت:

- سأتحملك طوال عمري، أرجوك سامحيني على ما قلت لم أقصد..

- بل جيد أنك فعلت.

قام من مجلسه مجددًا، واستقر على الكرسي الهزاز:

- سامحني منذ مدة لا أرتاح إلا في مكانها.

حرك "غيث" رأسه مُقدرًا، بينما أكمل وصل كلامه:

- عندما قالت هذه الجملة علمتُ أن كل شيء سيتغير، وقد كان.

وضع بين يديه بذله الرضيع ولم يستطع بعدها أن يكبح دموعه، نظر إليه "غيث" متأثرًا، أكمل عندما هدأت أنفاسه:

- لقد كانت ثابتة وواثقة طوال الأشهر التي سبقت ولادتها، حتى أتى الموعد الذي كنت أنتظره بتلهف كي أسمع صرخة صغيري، وألتقطه بيديّ وأخبئه في حضني، لكن الموت كان أسرع مني، وقفتُ حينها حائرًا أبكي بين قطعة اللحم اللينة التي تكورت في حضني وقد فارقتها الأنفاس كانت فتاة وبين زوجتي، كيف سأخبرها؟ بل كيف سأواسيها وأنا منهار هكذا، فتحتْ عيناها ببطء وابتسمت عندما رأتني أحمل صغيرتنا، خشيت أن تطلبها مني، قالت وهي تستند على السرير وتستوي جالسة بوهن:

- هل أصبح لديّ مولود صغير أعتني به حتى يكبر؟ لا أكاد أصدق، هل أنا في حلم؟ سأعطيه كل الحنان الذي حرمت منه.

انحنيت ووضعت صغيرتي على ساقها، ثم وقفت بجوارها واحتضنتها وأنا أنازع دموعي، نظرت لي بتوتر عندما رأتني أبكي، صرختْ بعدما وضعت يدها على قلب المولودة:

- لماذا لستَ متحمسًا، أين فرحتك؟

ارتجفت يداها وهي تقبض على ذراعي، وتبحث عن أي نبض يطمئنها:

- لا لا لا، أرجوك لا..

أحكمتُ ذراعيّ على جسدها الهزيل بينما مزقت صرخاتها فؤادي، وسقط كل ذلك الثبات الذي كانت تتغطى به طوال الفترة الماضية.



-" لا أصدق أني أكتب إليك أخيرًا، مضت عشر سنوات منذ آخر رسالة أرسلتها لك، إيــــه يا رفيقي لقد غادرتكم لأجل أن أحقق حلمي، لكن الأيام وضعت في طريقي آمالاً أخرى حققتها جميعًا إلا حلمي الذي تركتكم ومضيت في سبيله، غريبة هي الأيام تضع أمامنا شعلة الحماس فنركض خلفها ولا ننتبه إلا وقد احترقت أيامنا، ومضت بنا الأعمار وشابت الرؤوس.

انقطعت عن مراسلتي لك يا "نقاء" لأني كنت أعمل في سفينة تجارية، كانت وظيفتي أن أزودها بالحطب صيفًا وشتاء، أرأيت لم تكتفي الأيام بأن تحرق عمري فقط بل وجسدي أيضًا، إن رأيتني الآن فسيصعب عليك أن تميزني بسبب سماري الشديد، لكن لا يهم، ما يعنيني حقًا أني أحاول جاهدًا أن أعيش حياتي برضى وتفاؤل.

كان معي في رحلتي تلك صديق رائع لكننا افترقنا اليوم وبقيت ذكراه كما بقيت ذكراكم، أحيا بها. سأحاول أن أصف لك ما حدث بشكل مفصل، لأنه كان موقفًا جميلاً لو كنت مؤلفًا أو ممثلاً لوضعته في عمل درامي!

لم أكن أتخيل أن أرى البحر من على الشاطئ مرة أخري، ظننت أني إما سأموت فيه غرقًا أو سأظل أبحر على متن تلك السفينة المتحركة حتى أموت.

رفع صديقي عيناه إلى السماء، ولوح بذراعيه في الهواء بعدما نزلنا عن ظهر السفينة، وقال قاصدًا شد انتباهي إليه:

- لم أكن راضيًا عن تربية والدي لي، كان قاسيًا، ودفع بي إلى العمل وأنا في السادسة من عمري، انظر إلى يديّ، لكل خدش من هذه الخدوش قصة لن أنساها، حتى تلك التي طابت ولم يعد لها أثر، لم أنسَها، لن أنسي معاناتي.

لقد جعلني أعتاد الرمي حتى رميت نفسي في عرض البحر دون أن أبالي، أنا لست راضيًا عن حياتي أبدًا، أريد أن أكون أثرى.

أتمنى أن أدفن كل الماضي هنا، حيث أقف، حتى إذا عدت لهذه النقطة بعد سنوات ووقفت على أثري هذا كنت شخصًا آخر، وبدلاً من قدماي العاريتان أرتدي حذاءً غاليًا، وأحمل حقيبة فيها الكثير والكثير من النقود، وأنظر إلى ساعتي باهظة الثمن لأرى الوقت الذي ستصل فيه سفينتي الخاصة!

صمتنا كلٌ منا ساهم في أفكاره، باغتني سائلاً:

- ماذا عنك؟ ماذا ستفعل بعد أن نفترق هنا يا "بحر"؟

وضعت يدي في جيبي، وأخذت نفسًا قصيرًا وأنا أجيبه:

- الذي كتب لي النجاة من الغرق في هذه الرحلة وقد كان الهَلاك محتمًا، سينجيني هنا أيضًا.

"انظر كيف أصبحت كلماتي رائعة يا "نقاء" رغم أني لم أقرأ منذ زمنٍ بعيد، لكنها الحياة تُعلمنا الفصاحة بعد أن تعصرنا في أوديتها"

قال صديقي وهو يسحب مني الكلام سحبًا:

- بالتأكيد.. بالتأكيد، لكن ماذا ستفعل أنت؟

- أريد أن أكون أفضل.

تجاهل جملتي الأخيرة عندما رأى طفلاً يطفو على الماء تاركًا العنان للأمواج ترفعه وهو في غاية السعادة، قال وهو يشير إليه:

- انظر كيف يرفعه الموج بسهولة!

رددت عليه وأنا مؤمن بكلماتي:

- طالما أنه لا يقاوم الموج فلن يضره في شيء، مثل القَدر.

❋❋❋❋❋❋❋

- "انزلق وعاء الماء المغلي من بين يديها، فتراجعت بهلعٍ للوراء عندما انسكب الماء على الأرض، وتناثر على جسدها الهزيل، كتَمت صرخة متألمة كانت كافية لجعل الجدة تركض إليها والقلق يسابق خطواتها، عندما دخلت رأتها متكورة على نفسها تبكي بتأنيب، وهي تضع خديها بين كفيها الملتهبان وتئن، احتضنتها الجدة تطمئنها وتتفحص يديها، ثم حملتها إلى الحمام، وغمرت مناطق الإصابة بالماء البارد ونظرة الشفقة لا تبرح عيناها الحانيتان، سألتها:

- ما الذي حدث يا صغيرتي؟

أجابتها بصوت مُنكسر:

- لم أقصد يا جدتي، سامحيني.

قبلت جبينها، وهي تهز رأسها مستنكرة:

- لا يهم، كل ما يعنيني أن تكوني بخير، كل شيء يمكن تعويضه إلا حبيبة جدتها.

طبعت قبلة دافئة على وجنتها، قالت وقد اختلط دمعها برذاذ الماء:

- لقد أردت أن أثبت أني قوية، وأستطيع تحمل المسؤولية ومساندة من أحبهم.

أغلقت الجدة صنبور المياه، وأجلستها على ساقها وهي تلفها بمنشفة أخفت جسدها الضئيل ومنحته القليل من الدفء، ثم قالت وهي تُسوي خصلات شعرها المبعثرة:

- لكن هذه ليست مسؤوليتك يا عزيزتي، إن الله خلق لكل منا دور يقوم، انظري إلى شجرة البرتقال تلك تحملها أرضٌ صلبة قوية، كما أنها تحمل أيضًا منزلنا، بينما الشجرة تحمل ثمار البرتقال الرائعة.. ماذا لو قررت الشجرة أن تثبت أنها قوية وأرادت تبديل الأدوار مع الأرض، ألن تُكسر لو فعلت؟

هزت رأسها موافقة، فاستطردت الجدة:

- إذًا على كلٍ منا إنجاز مهامه التي يقدر عليها، وعندما يفعل ذلك فإنه يكون متحملاً للمسؤولية.

نظرت إليها متفهمة، ثم سألت:

- وأنا ما مهمتي يا جدتي؟

حملتها على كتفها، وسارت بها عبر الردهة الطويلة، وقالت وهي تمسح على ظهرها:

- لكل وقت مهمته يا عين جدتك، أما الآن فإنه الوقت المناسب لترتاحي، حالما أعد لكِ الحساء الساخن حتى تكبري وتستطيعي حمل الكثير والكثير من الأوعية، وإطعام جدتكِ طعامكِ اللذيذ."

كان ذلك الموقف هو أول عهدي بجدتها، لقد كانت "لارين" دائمة الحديث عنها وكان ذلك أول ما سمعتُه عن هذه السيدة العطوف، وبالرغم من أني لم أستطع رؤيتها فقد ماتت وعمر "لارين" خمسة عشر عامًا إلا أني أحببتها من كلامها.

تضايق عندما زاره ذلك الخاطر، قال بصوت هامس:

- آه لو تعلم الجدة أن حفيدتها لم تتعلم درسها وأنها لاتزال تلقي نفسها في مسؤوليات أكبر من قدراتها، وتبقى خائفة مترقبة من كل شيء، كنت أشفق عليها من خوفها ذاك وأبقى معها قدر استطاعتي، أما الآن فهي تتدبر أمرها بمفردها.

وقف أمام الطريق الطويل الذي اعتادا السير فيه، كان هناك متجر صغير يبيع الزهور والشتلات توقف أمامه ولوح للبائع الذي رحب به بحرارة قبل أن يواصل طريقه، لقد كان يذهب إليه في سنوات زواجه الأولى، عندما كان يحدث بينه وبين "لارين" شجار فقد كانت الطريقة المثلى لمصالحتها هي شتلة جديدة تضمها لحديقتها.

جلس في محطة القطار، كان المكان خاليًا تمامًا وكان ذلك الوقت الأنسب لتتوالى عليه كلماتها، اخترقت ذهنه فجأة حديثها عن اللعبة التي كان والدها يلعبها معها "الغميضة" في إحدى المرات كان قد أمسكها وهي مختبئة خلف الأريكة بجوار شجرة البرتقال، وعندما خسرت اختبأت بعدها في المكان ذاته، لم يتوقع أنها

ستختبئ في نفس المكان الذي خسرت فيه فلم يبحث هناك، وقد فازت عليه في النهاية عندما لم يستطيع العثور عليها، يتذكر أنها قالت مُعلقة على ذلك الموقف: إنك عندما تخسر شيئًا ما فإن من حولك لا يتوقعون أن يجدوك بقربه، لذلك خالف المتوقع تَفُز.

نفر من مكانه، ووقف يترقب قدوم القطار وهو يردد:

- الغابة، لا بد أنها ضاعت هناك ولم تستطع إيجاد طريق للعودة، داخلي يقين أني سأجدها هناك.

لم يكن هناك دليل على كلامه، هو فقط حال كل البشر عندما يفقدون كل الخيوط التي تربطهم بمرادهم عندها يتبعون شعورهم، الذي لو أخطأ قيد أنملة قد يودي بحياتهم أو حياة من يحبون. لكنه الحب فموت في سبيله خير من انتظار يقتلنا على مهل.

سمع صفارة القطار فوقف مستعدًا، ودلف داخله حالما توقف، كانت العربة شاغرة فرمي بنفسه على أحد الكراسي، ووضع كفيه في جيب سترته وهو ينظر إلى السماء بحيرة، وشعور العجز لا يبرح صدره، لامست أصابعه ورقة استقرت في قاع جيبه فأخرجها وابتسم وهو يفتحها، كانت مع ملابس ابنته الصغيرة لكنه أخفاها عن عينا "غيث" لأنه يرى أنها شيء يجب أن يظل سرًا بينه وبين زوجته، لم يقرأها منذ وقت طويل، قرأها بتمهل:

- "أردت أن أصارحك يا "هادي" ببعض ما بداخلي، لقد كنت أخشى الاقتراب من أحد، أخاف على قلبي من رحيل مفاجئ، فأخذت عهدًا على نفسي ألا أتعلق بأحد، وأن أعطي ما يمكن إعطاؤه وأختفي كعابر لم يتبق منه سوى الأثر.

لكن عندما قابلتك عند الشاطئ في ذلك اليوم، لم أدرك بأنكَ جزئي المفقود وأماني الذي أبحث عنه، شعرت بأنك ستكون في حياتي بطريقة أو بأخرى لكني هربت من هذا الشعور ورفضته، جاهدت كثيرًا تفكيري بكَ وحضورك في مناماتي، كنت أتهم نفسي بالغباء لأني تعلقت بك في ساعات معدودة، فأرفض ذلك الخاطر وأنكره، مضت الأيام وتناسيتك، ثلاث سنوات كاملة مضت، ثم إذا بالقدر يضعك في طريقي في أشد لحظاتي ظلامًا كما وضعني من قبل بجوارك عندما ضاقت بكَ الدنيا، قاومت كثيرًا وجودك الطاغي في عقلي، وكنت أدفعكَ عني دفعًا كلما رأيت إصرارك رغم أني لم أكن أريدك أن تبتعد، وقفت عندك

أقاوم كل شعور بأن قلبي قد وجد ضالته، وكنت كلما هربت منك انجذبت، وعندما قررت إعطاءك فرصة لأعرفك أكثر، راهنت أني سأقف على الناصية ولن أتلعق بك مهما كلفني الثمن، لكن ذلك لم يفلح فأنت تستطيع أن تتحكم في كل شيء إلا المشاعر والأقدار، اللهم حتى الأقدار يمكنكَ تغييرها بالدعاء.

لكني وقعت في الشراك أخيرًا، أدركت ذلك عندما أمسكت بعقلي متلبسًا وهو يفكر بك وبحالك على حين غفلة مني، وكنت أهز رأسي، وأضع وسادتي عليها لأجبر نفسي على عدم التفكير بك، ويأتي اليوم التالي، وأنا أنتظر منك طمأنة على حالك، كنت أستهل يومي بحديثك، وأنهيه بتفكيري في كلماتك التي قلتها لي صباحًا، وفي منتصف اليوم أزجر خوفي عليك ورغبتي الدائمة في الاطمئنان بك، لم أدرك ما فعلته بي وأي أثر تركت داخلي إلا عندما نزلت دموعي وحدها وأنت تصف لي ألمك، شعرت حينها بوخزة قوية وكأن قلبي قد ثُقب حزنًا.

وبات حديثنا يطول وكلما رأيتك بخير كنت أشعر أن الدنيا كلها أزهرت في آن واحد غير آبهة بقواعد الطبيعة، وعندما كنت تحزن كان الخريف يحل على قلبي أولاً فتُعتم عيناي، ولا أهتم بما يحدث حولي.

لم أدرك أني قادرة على أن أميل لأحد هكذا، ملتُ إليك فاستقام حالي.

لأجلك كنت على استعداد أن أتخلى عن مخاوفي، فقط لأجلك، لا أُصدق أني أحمل صغيرنا في رَحمي الآن وأنه سيأتي بعد بضعة أشه، أنا متحمسة للغاية لكي أرعاه وأهتم به وأثبت لكَ أني محل لثقتك، لقد أخبرتني اليوم أن من يعاني في حياته ويحتفظ بنقائه فإنه لن يَظلِم أبدًا، ولن يجعل من حوله يتألمون مثله، قلتَ أني حنون وأني قادرة على احتوائه، أنا ممتنة لكلماتك ولجعلي أواجه مخاوفي.

لم أجد في حياتي أحدًا مثلك، ولن أجد.

أقسم أن هذه الحروف صادقة كُتبت من قلب استشعر كل معنى بها.

أريدك أن تكون بخير دائمًا، أريدك بجواري. "

ربَّت على ساقه بحنان، تفاجأ "هادي" فلم يشعر به وهو يجلس بجواره، لكنه بادله ابتسامه ودودة وهو يطوي الرسالة ويعيدها إلى جيبه، قال العجوز وهو يشير إلى النافذة:

- اصبر وارتقب، واترك الليل يُعسعس ما شاء الله أن يفعل، ولا تغمض عيناك من حزن فيفوتك تنفس الصبح في شروقه المُنتظر.

تأمل "هادي" هيئته الهادئة، كان رجلاً في السبعين من عمره تقريبًا، اجتاح الشيب رأسه وحفرت التجاعيد نفسها على وجهه، شعر حاجباه الكثيفان يغطي جفنيه، كان يضع على فخذه حقيبة من الجلد المدبوغ، أصابعه متشققة بدا عليها العناء، لكن هناك بريق في عينيه الزرقاوان وكأنهما خُلقا من تضارب موجتان، يغمرك النظر إليه براحة لا تعلم متى نُفخ فيها الروح، ربما هو القبول الذي يضعه الله في بعض عباده، تمتم واليأس يتسلل إلى صوته:

- هل نجد ضالتنا؟

قبض على كفه، وقال مبشرًا:

- نجدها.. بالطبع نجدها.

ثم أشار بسبابته إلى السماء، ووضع يده الأخرى على صدره، وقال بيقين:

- يجبرك من حيث لا تدري أين الباب الذي أطلَّ منه جبرك، ويُرضيك حتى تنهال دموعك فرحًا، ويؤنسك حتى تكتفي به عن الجميع، ويداويك فلا ترى في غيره دواءك، ويكفكف دمعك، ويحنو عليك، ويمسح على قلبك حتى تظن أنك ما بكيت يومًا، الله أرحم من أن يراك تبكي ولا يكف عنك الأذى.. إنما يبتليك لتصبح أقوى.

استدركه قبل أن ينطق قائلاً:

- ماذا ترجو من الله يا ولدي؟

أخذ نفسًا طويلاً، وقال وهو يحرره:

- أن أجدها.

رأى العجوز علامات الحزن بادية على تقاسيمه، فتجاهل رده، وقال بنبرة مرحة وصوت مرتفع وهو يفتح راحتيه:

- أنا حلمي أن أمتلك فيلاً

نظر إليه مستنكرًا ثم ضحك:

- فيل!.

- أجل.. أجل.. فيل، أتعلم ما السبب؟ لأني قرأت ذات مرة وأنا صغير أنك إن نفخت في خرطوم الفيل مرة واحدة فإنه لن ينساك أبدًا، ولو لم يركَ مجددًا.

- حقًا!

- نعم، وقد كان ما قرأته صحيحًا.

ثم قال مُعللاً لكلامه السابق:

- إن كلاً منا يبحث عما يفتقده، وأنا أفتقد أحدًا لا ينساني.

توقف القطار فقاما من مجلسهما بعد أن أخبره العجوز أنه سينزل معه فهو يقصد الغابة أيضًا، خرجا معًا وجلسا على مقعد للانتظار سأله "هادي" عن مبتغاه، فقال وعيناه مركزتان على الطريق:

- لقد تغيرت معالم كل شيء، سأجلس هنا قليلاً حتى أتدبر أمري، اذهب أنت يا بني.

شدَّ "هادي" على يده، وقال وهو يستعد للرحيل:

- أتمنى أن تحقق حلمك.

- وأنا أتمني أن تجد ضالتك.

قال جملته الأخيرة ثم أخرج ورقة وقلمًا وكتب بضعة كلمات، ثم طوى الورقة ودسها في يديه مردفًا:

- عدني أنك ستحتفظ بها، وأنك ستذكرني بالدعاء كلما رأيتها.

نظر إليه نظرة وعد وثيق، ثم ودعه وركض حتى اختفى بين الأشجار.

بعد الكثير والكثير من الركض وقف يلتقط أنفاسه وهو يقلب ناظريه والحيرة تلتهم تفكيره وتشتته، تمشى بخطوات حريصة وهو يلتفت للوراء كلما شعر بالتيه، لم يرد أن يتوغل كثيرًا وحده، فقرر أن يعود ويستأجر دليلاً لكي يساعده في البحث عنها بشكل أسرع ولا يضيع هنا، طعنه شعور آخر يحثه على التفتيش عنها وعدم إضاعة المزيد من الوقت فربما هي في أشد حاجتها إليه الآن، كاد

ينقاد وراء شعوره ذاك لكنه سرعان ما تراجع عنه فليس من الحكمة أن يرمي بنفسه للهلاك، عليه أن يصبر قليلاً بعد.

فزع عندما ناداه أحد من خلفه:

- ما الأمر يا بني؟

استدار ناحية الصوت فإذا به عجوز يحمل على ظهره الحطب، ابتسم متعجبًا فما باله يقابل العجائز فقط اليوم، عاد إلى تفحص هيئته البسيطة، وبعد تردد سأله:

- أبحث عن زوجتي وأعتقد أنها تاهت هنا أثناء جمعها للنباتات، هل رأيتها؟ أو هل تعرف دليلاً لكي يساعدني في البحث عنها؟

توقف العجوز متفكرًا وقد بدت على ملامحه أمارات الحزن:

- لم أرها يا بني لكني أعرف رجلاً سيساعدك.

تهلل وجهه، وتمتم بالشكر:

- هل تأخذني إليه من فضلك؟

أومأ برأسه موافقًا ثم سار معه وهو يستند على عصاه، لم يتلفظ بأي كلمة حتى وصلا لكوخ بسيط، استقبلهما مالكه بالحفاوة ووعده أن يساند الضيف الكريم، ربتَّ المسن على ظهر "هادي" ثم حمل حقيبة الحطب على كتفه وتوكأ على عصاه وودعهما، التفت "هادي" للدليل قائلاً:

- متى سنبدأ البحث؟

- في الحال.



تأرجحت عيناه بين ظلال المارة وهما حائرتان، كان يبحث عن قلم رمادي يزين أرنب صغير من الفضة أعلاه اغتم لأنه سقط منه دون أن ينتبه، بحث كثيرًا لكن طول المسير والتخبط بين السائرين أرهقه، تنهد وجرجر ساقيه عائدًا إلى المنزل، حالما وصل توجه صوب غرفة مكتبته التي طالت رفوفها السقف، ضغط على أصابعه بقوة في أسى، كان يعلم إن "ليل" زوجته ستحزن إن علمت أنه أضاع ذلك

القلم حتى ولو لم تُظهر، وكان ذلك أصعب شيء يمكن أن يلاقيه منها ولن يستطيع تجاهله!

اجتاح الإصرار رأسه وقرر معاودة البحث، التقط تفاحة من على مكتبه وقضمها، ورشف شربة ماء ثم خرج باحثًا بين الطرقات وحشود المارين، عاد للسير في كل طريق مر به، ظل يبحث ويبحث ويبحث.. حتى تملكه التعب واحتجت ساقاه الواهنتان على شقاءهما فما عادتا قادرتان على مطاوعته، شعر أن مفاصله تتآكل من الألم، فانسحب إلى منزله مرة أخرى، لم يكد يستريح حتى غزى الضيق صدره فإن أمله في العثور عليه بات أشبه بالمستحيل، ارتمى على كرسي مكتبه فوقعت عيناه على قارورة كبيرة زجاجية شفافيتها مائلة للزُرقة فتحتها واسعة وبها الكثير والكثير من أقلام الرصاص الملونة والصغيرة للغاية التي سبق استعمالها، تخلله الحزن واحتشدت الأحزان في نفسه حتى غمرتها، وكأن همًا واحدًا لا يكفي قلبه العجوز.

كان تجميع هذه الأقلام هواية ابنته الصغيرة "عِطر" رحمها الله، ابتسم حالما زارته الذكرى فقد كانت تحتفظ بالقلم في هذه الزجاجة بعدما تصبح غير قادرة على الإمساك به بأناملها الصغيرة، وقد أكملت "ليل" هواية ابنتها وباتت تصنع صنيعها، ومنذ أن فقدت بصرها أصبح هو يضع أقلام الرصاص فيها، خاصة الزرقاء لأنه كان اللون المفضل لهما.

يتذكر جيدًا تلك الليالي التي كان يُمضي المساء بطوله يبري أقلام الرصاص الزرقاء من دون استخدامها، ثم يضعها في القارورة مهمومًا وكأنه بذلك يزيد من عمر ابنته! نحن لا نعرف قيمة من حولنا إلا عندما نفقدهم، ونُعيد ما كانوا يفعلونه لكي تؤنسنا الذكرى ويظل طيفهم حولنا، نتشبث به بعد أن كان يزعجنا أحيانًا.

مد يده إلى الصندوق الخشبي الصغير المطلي باللون الأسود وقام بفتحه وتأمل بطانته الحريرية الزرقاء والميدالية التي تتوسطه، كانت دائرية على شكل سماء بها غيوم، وطائر يفرد جناحيه وكأنه يحتضن السماء، كانت تلك الميدالية هديتها له مع القلم الرمادي كتبت له رسالة لطيفة وقتها، فتح الرسالة وقرأها بعينيه:

- " أتمنى ألا تكف عن المحاولة أبدًا، من يحاول يبلغ دائمًا عنان حلمه، بينما من يستسلم فقد كتب على نفسه البقاء في القاع للأبد، لا تيأس"

أحس وكأنه يقرأ رسالتها للمرة الأولى، شيء ما تحرك في جوفه وكأنها شعلة صغيرة أُنيرت للتو، شرد وهو ينظر إليها والحسرة تغرق فؤاده.

رفع عيناه بيأس فوقعتا على برواز من الخشب القديم المطعم باللون الأسود وبه الكثير من النقوش المذهبة، كان متهالكًا فقد مرت عليه سنون طويلة، إنه لوالدة صديقه "بحر" ماتت ولم تترك له شيئًا آخر اللهم إلا تلك المذكرات والرسالة التي عثر عليها بعد سفر صديقه، الذي ترك البرواز أمانة لديه خشية أن يبلى معه وهو لا يعلم وجهته وقد تأتي عليه بعض الليالي التي يتوسد ذراعه ويتغطى بالسحاب.

تخلى عن ذلك الخاطر وتأمل حواف البرواز العتيقة التي تحتضن قولاً للإمام "عليّ بن أبي طالب":

- "أريحوا أجسادكم بالتعب ولا تتعبوها بالراحة."

استقام واقفًا، وقال بحزم:

- ولا تتعبوها بالراحة.

ثم خرج من المنزل وأغلق الباب، أصبحت خطواته أكثر ثباتًا رجع إلى حيث كان جالسًا وبدأ ينقب من جديد في الأماكن التي مشى فيها ويسأل كل من يصادفه بعينان آملتان، وبالرغم من أن هذه الفكرة لم تكن مريحة له في بادئ الأمر لأنه كان على يقين بأنه إن وجد أحدهم ذلك القلم فلن يتردد في أخذه، ولن يُبالي بدموع وحسرة عجوز.

لكن من يدري فربما وقع في يدٍ أمينة، تمسك بذلك الأمل الصغير الذي هدهد روحه وطمأنها، تفاني في البحث وهو يسأل الجميع.. ظنه البعض مخبولاً وصاروا يتهامسون ويتغامزون لكنه لم يسمح لليأس بسحق خطواته، بينما رماه البعض بنظرات شفقة، وآخرون لم يلتفتوا إليه حتى، في الوقت ذاته عرض عليه القليل من الشباب المساعدة. ظلَّ يبحث حتى غمر العرق جبينه واستحال إصراره إلى قنوط، وعزم أن يرجع لمنزله، فإذا بصوت هرِم يستوقفه وهو يحاول التقاط أنفاسه...

❋❋❋❋❋❋❋

تأمل "هادي" انعكاس صورته على زجاج أحد أحواض الأسماك الموزعة في الغرفة، لقد خفت بريق عيناه وأحاط بهما قوسان قاتمان، صار باهتًا متعبًا كما لم يعهد نفسه، لاتزال بنيته قوية وعضلاته بارزة لكنه يشعر بعجز لم يسبق له أن

أحسه، عاجز أن يجدها رغم قوته، وأمواله، وتفكيره، ما معنى وجود القوة والشخص الذي رهن حياته لحمايته ليس موجودًا؟

أخرج الورقة التي أعطاها له الرجل المُسن في القطار، قرأها بصوت مسموع وهو يتكئ بذراعه على حافة الحوض:

- "بركة العمر حسن العمل."

أحس بالضيق يقبض على قلبه عندما تذكر كيف أمضى النهار باحثًا عنها في الغابة وكانت محاولاته بلا جدوى، أخبره الدليل أنهم سيكملون بحثهم في صباح الغد لأن الليل باغتهم، لكنه الآن متردد ويخشى أنه يضيع الوقت عبثًا، تنهد محاولاً مواساة روحه. دخل "غيث" عليه وهو يمسح رذاذ الماء معن وجهه الأسمر، ولحيته الخفيفة، ومقدمة شعره الناعم:

- ما الذي يشغلك يا صاح؟

استدار "هادي" فوجده واقفًا على أطراف أصابعه ويضع يده في حوض للأسماك موضوع على رف عال، نهره محذرًا:

أبعد يدك يا "غيث" بسرعة.

أخرج يده بتوتر، ونظر إليه مترقبًا وقد اصفر وجهه، اقترب "هادي" منه وتفحص يده سائلاً بذعر:

- هل لمستها؟

كان فؤاد "غيث" مقبوضًا، أجابه متلعثمًا:

- لا.. لا لم أفعل!

ندت عنه زفرة وربت على كتفه، ومن ثَم أنزل الحوض وأمسك بعصاة رفيعة، قال وهو يدسها في الماء:

- هذه السمكة خطيرة للغاية، تسمي "سمكة الحجر" وهي ليست شعبًا مرجانيًا أو صخرة كما تخيلت.. انظر.

قال كلمته الفائتة وقام بوكز السمكة بالعود الرفيع؛ فانفرج فمها وتفصدت الكثير من الأشواك على جسدها، تراجع "غيث" للوراء فزعًا، أكمل الأخير:

- لونها الرمادي المملوء بالبقع البرتقالية تستخدمه للتمويه، وهذه الأشواك على جسدها بالرغم من صغرها إلا أنها شديدة السُمية والخطورة على الإنسان، لو انغرست شوكة منها في يدك سيتخدر مكانها وستشعر بالغثيان والقيء والإسهال، وقد تسبب الوفاة حسب كمية السم التي أدخلتها ومكان الإصابة.

تجمدت يدا "غيث" وتمتم معتذرًا:

- لن ألمس شيئًا مرة أخرى قبل استئذانك.

ضرب "هادي" على كتفه، قال مشجعًا:

- بل غامر..

كان لوقع هذه الكلمة أثر بليغ في نفسه، لاحت أمامه صورة "لارين" بعيناها المنكسرتان، فهز رأسه رافضًا الفكرة وخامره شعور آخر بأنه ليس لديه أدنى استعداد أن يغامر بحياتها، لذلك سيبحث في أماكن أخرى ولن يضيع وقته في الغابة.. لكن ماذا إن كانت ضائعة هناك بالفعل؟ ألن يكون قد غامر بحياتها بمجرد تفكيره ذاك. ضاق صدره، نظر إلى الورقة التي في يده وأعاد قراءتها لكن هذه المرة كان تأثيرها أقوى "بَركة العمر حسن العمل" صحيح، طالما بدأ البحث في الغابة فلن ينتقل إلى مكان آخر قبل أن ينهي تفتيشه هناك لكي لا يبقى باله مشغولاً.

أصدر الباب أزيزًا خفيفًا، ظهرت من خلفه فتاة في مقتبل العشرين، أومأ "هادي" برأسه سامحًا لها بالدخول وهو يواصل حديثه:

- لولا أن أحدهم غامر بلمس هذه السمكة لما اكتشفنا قدرتها السُمية وعرفنا خطرها علينا، بسبب هذه المغامرة نجا ملايين البشر الذين يدفعهم الفضول للمس كل ما هو غريب عنهم، وعندما علموا أنها خطيرة وقد تودي بحياتهم، تفادوا لمسها، أحيانًا علينا أن نغامر فقد تكون الفائدة أضعاف أضعاف الضرر، ولكن يجب عليك أن تبحث وتدرس جيدًا وتجمع كل المعلومات الممكنة عن الشيء الذي ستغامر فيه، فشتان بين رمي النفس للهلاك، وبين المغامر على علم، ووجود كلا النوعين من الناس يخدم البشرية بشكل أو بآخر.

ضحك "غيث" وهو يمسح جبينه بتوتر:

- تمزح؛ بالتأكيد لن أكون مسرورًا أبدًا عندما تنتهي حياتي على يد سمكة! دع المغامرة لمن يركض وراءها أما أنا فلا أريد سوى السكينة.

تبادلوا الضحكات بينما أشار "هادي" بيده ناحية الأريكة فجلست على استحياء، واستقر على الكرسي المقابل ذو الجلد الأسود و "غيث" بجواره، بادرها "هادي":

- لا بد أنكِ "ماريانا"؟

أومأت برأسها مؤكدة وهي تتلاعب بسوار فضي أحاط معصمها، قال بترحيب موجهًا كلامه لـ "غيث":

- ستكون زميلتنا في العمل، إنها أول فتاة أراها تمتهن هذه المهنة، أحييكِ يا فتاة.

لمعت عيناه وهز رأسه مهنئًا، قال بحرارة:

- أسعدنا انضمامكِ إلينا.

ارتجفت ابتسامة صغيرة على ثغرها، وهي تحك أصابعها بتوتر، لم تنطق بكلمة واحدة منذ أن وصلت، بدت خجولة نوعًا ما رغم ملامحها الواثقة، عيناها واسعتان يعلوهما حاجبان رفيعان، وأنفها دقيق، وشفتاها ممتلئتان، بشرتها قمحية اللون، وقامتها متوسطة. أرجعت خصلات شعرها البني الملفوف خلف أذنها فبدت أكثر حدة.

راود "غيث" خاطر مُلِح، شتان بين ملامحها، وحركاتها، وطريقة كلامها، هناك شيء راقه بها وجذب روحه نحوها.

قطع "هادي" عليه حديث نفسه:

- أتعلمين معنى اسمك يا "ماريانا"؟

ترددت نظراتها بين وجهيهما للحظات ثم فردت ظهرها، وأجابت:

- هو أعمق نقطة في الكرة الأرضية، عبارة عن خندق تحت الماء على شكل الحرف «v» بالإنجليزية.

رفع "هادي" حاجبيه، وقال مُعلقًا:

- مدهش!

استقام واقفًا، ووضع كفيه في جيبيّ بنطاله، قال متأهبًا للرحيل:

- أتمنى أن نكون فريقًا متعاونًا.. بل أنا واثق من ذلك.

توجه صوب الباب، استدار فجأة، وقال مستدركًا:

- سأحضر لنا الشاي، لا تجازفا بدس أيديكما في أي حوض، فبعضها خطرة.

- يستحيل أن أكررها.

لاحظ ابتسامة "غيث" المتوترة وهو ينظر إليها، همس أثناء خروجه يكاد يسمع نفسه:

- أحدهم توهجت بداخله شعلة الحب، ترى أتُنسيه "ماريانا" تلك الفتاة التي انتظرها!

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

التفت ليجد رجلاً استباح الشيب رأسه، يحمل حقيبة من الجلد العتيق على ظهره، نظر إلى يده الممتدة بالقلم فتهلل وجهه وقفزت الفرحة إلى قلبه فبرقت في عيناه، قال وهو يلتقطه منه:

- شكرًا حزيلاً لك يا سيدي، أشكرك بكل امتنان.

كاد يستدير راحلاً وعيناه مركزتان على القلم، استوقفه قائلاً:

- لقد كنت أتبعك منذ أن تركتَه بجواري في محطة القطار، حاولت اللحاق بك لكنك كنت تمشي بخطوات سريعة فلم أستطع أن أدركك، كنتُ قريبًا منك وتفصلني عنك بضع خطوات لكنك كنت تختفي فجأة ولا أراك، لمحتك عدة مرات في ذات المكان لكني كلما هممت إليك لم أجدك، ظننت أنه يهيأ لي بسبب الإرهاق فقررت الرحيل فقد تخيلت أن هذا القلم لا يهمك بالقدر الذي تخيلته، حينها رأيتك مجددًا وعيناك تائهتان فتبددت شكوكي، وصممت على اللحاق بك، وثانية تبخرت من أمامي، في الحقيقة تحطمت ساقاي وأنهكني التعب وكدت أعود لمكاني وأتركه هناك في طريق عودتي، لكني صادفتُ شابًا يسأل المارة عن مواصفات القلم فسألته عن مكانك فأشار لي، وها قد وجدتك أخيرًا.

ترددت صورة الشاب في ذهنه لا بد أنه ذو الابتسامة الودودة الذي كان مصرًا على مساعدته، تعلقت بوجهه ابتسامة امتنان وجال بعيناه باحثًا عنه ليشكره لكنه لم يجده، ذلك هو حال فاعلي الخير يزرعونه ويرحلون دون أن ينتظروا مقابلاً لجميل صنيعهم، قطع حبل أفكاره مستأنفًا:

- لو أنك لم تبحث كثيرًا لما وجدته.

قال بوقار حالما لوحت له الذكرى:

- هكذا علمني عمي، كان يقول: "إن لم تبحث كثيرًا فلن تجد شيئًا، وإن أعظم فقد يا ولدي هو فقد إصرارك وعزيمتك." حتى وإن يئست يومًا فإن كلماته تذكرني بألا أستسلم، حينها فقط أجد الله يضع في طريقي أشخاصًا مثلك ينيرون الدرب ثم يختفون بعد أن يعطوني قبسًا من روحهم.

صمت وهلة ثم واصل وقد ارتسم اليقين على محياه:

- إنها رسائل الله الخفية التي نحيا ونكمل بفضها.

قال جملته وهو يحتضن بكفيه كفه، واستأنف مختتمًا كلامه:

- أشكركَ جزيلاً؛ هذا القلم يعني لي الكثير وما كنت لأسامح نفسي لو لم أجده.

- صدق حبيبي حينما قال: "المرء بأصغريه قلبه ولسانه. " ليرفق الله بقلبك ويجري الجبر على لسانك.

استمهل خطواته التي تحفزت للذهاب:

- لا أعرف طريق العودة لمحطة القطار هلا دللتني؟

ندت عنه ضحكة، أجاب مرحبًا:

- بالتأكيد.

ثم أشار إليه ليسير بجواره، فقال وهو يضع يده علي قلبه:

- يا رب ثبت لي قدمي وقلبي، سبحانك اللهم أنت حسبي.

نظر إليه متفاجئًا وهو يتأمل وجهه لبضع ثوانٍ، سأله بعجب من ردة فعله:

- ما الأمر؟ لما تنظر لي هكذا؟

- لقد ذكرتني بصديق قديم كان يقول هذه الجملة دائمًا، إنها للإمام عليّ، لا يكاد يقول جملة إلا وبها بضع كلمات للإمام.

رسم على طرف ثغره ابتسامة، ثم أكمل والحنين يغمر صوته:

- عيناك الزرقاوان مثل عيناه، لابد أنك من أشباهه الأربعين، لكن لماذا كُتب علينا مقابلة الأشباه دون أن نلتقي بالأصل رغم حاجتنا الشديدة لذلك اللقاء!

عقد حاجبيه متسائلاً:

- ما اسم صديقك ذاك؟

- "بحر."
شعر وكأن صاعقة أصابته، فسأله وهو يضيق عيناه متأملاً أن يكون الجواب كما يتمنى:
- وما اسمكَ أنت؟
- "نقاء."
صاحت الفجأة في وجهه، وهمَّ يحتضنه بغتة حتى كادت ضلوعهما تتشابك، وهو يتمايل به يمينًا ويسارًا، ويقول في أذنه:
- لقد وجدت الأصل يا صديقي، وجدته.
فتح عيناه عن آخرهما وهو مصدوم، سأله بعد تردد قصير:
- أم أنك....
قاطعه بصوته المكتوم وهو يقبل كتفه:
- بحر.. بحر.. بحر.
أحكم كلاً منهما ذراعه على الآخر وكأنه يخشي أن يفقده مجددًا، وانهمرت دموعهما مدرارًا والناس حولهما ينظرون متعجبين وعلى وجههم علامات الحيرة تمازجها بعض ابتسامات متأثرة وأخرى ساخرة، ظل يردد بصوت تقتطعه دموعه:
- يا الله يا كريم.. يا الله يا كريم.. أخيرًا رأيتك أيها العجوز القصير، عيب عليك يا رجل ألا زلت قصيرًا هكذا رغم شيب شعرك**!**
بادله ضحكاته التي يخالطها السعال والبكاء:
- ألن ترحمني في شبابك ومشيبك من تنمرك يا رأس الفلفل**!**
- آه أتينا إلى هذا أيضًا، أقسم لكَ أني منذ أن رحلت عنكم لم أتناول الفلفل الحار أبدًا لقد فقدتُ شهيتي له، على الأقل أحدنا تخلى عن شيء ما.
أشار بيده مازحًا ليدل على شدة قصره، عانقه مرة أخرى بعد أن أفلته، همس بشوق عميق:
- اشتقت إليك يا صديقي، والله اشتقت إليك.
ازدرد ريقه وعيناه تتمايلان على وجه "نقاء" يتأمله بحنين، أحكم قبضته على كفيه بحنان:

حمدًا لله.. حمدًا لله، لقد دعوت أن أجدك مطولًا يا صديقي، وكنت ذِكري في قيامي وسجودي.

غمزه، ثم أكمل:

- لا زلتَ تضيع الأشياء أيها الشقي ولا زلتُ أجدها لك، على العهد يا صديقي مهما فرقت بيننا الأيام.

كست ثغره ابتسامة واسعة:

- وأنت.. هل اشتريت فيلاً؟

قهقه "بحر" مُجيبًا:

- ألازلت تذكر؟

- وكيف أنسى؟ كيف أنسى أي شيء يخصك؟!

اخترقت كلماته ثنايا قلبه المهجور فأحيته، قال وفي صوته بقايا حسرة:

- لم اشترِه بعد لكني سأفعل، أردت أن أجدك أنت والرفاق أولاً، صحيح كيف حال "ليل"؟

نكزه بكتفه مواصلاً بنبرته المرحة:

- كنت تحبها يا شقي.

ابتسم بخجل، وقال مجيبًا بخبث:

- تزوجتها.

تعالت ضحكات "بحر" وقال مبتهجًا:

- كنتُ أعلم أنكما ستتزوجان، فقد كنتما تليقان ببعضكما كثيرًا، كم لديك من الأطفال أخبرني؟ أخبرني كل شيء لابد أنه قد فاتني الكثير.

تبدلت نظرات "نقاء" للحزن ولكنه سرعان ما استعاد ابتسامته:

- سأخبرك بكل شيء، ولكن تعالَ إلى منزلي أولاً، لن أتركك ترحل مرة أخرى.. أبدًا.

تأبط ذراعه وسارا كل منهما يستند على الآخر حتى اختفى ظلهما بين المارة.

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

هي الوحيدة التي لن تراكَ.

كانت الأشجار متشابكة إلى حد جعلها تختنق كلما رفعت رأسها للأعلى، تذكرت ما كان والدها يقوله دائمًا:

- "من تكون بداياته مأساوية فإن خاتمته تكون عظيمة."

تأملت حالها ساخرة، هل كتب عليها أن تعيش وتموت بألم دون وجود أحد معها، وحيدة تمامًا كما كانت طوال عمرها! تكالبت الذكريات على رأسها تنهشه، ووضعت أمام عينيها كل لحظة توجعت بها، وكيف كان شعورها، انهارت باكية وهي تجر ساقها، وتستند على جذوع الشجر، كان بكاؤها مريرًا تقتطعه الكثير من الشهقات، لِما يولد المرء إن كان هذا مصيره! خارت قواها فانهارت أرضًا، والكلمات القاسية تتخبط في داخلها، وتُحدث صدوعًا وكسورًا جديدة كأنها لا تكتفي أبدًا: "ضيعتُ عمري هباء عليك.

من في مثل سِنك أفضل منك.

أفسدتِه.

كسرتِه.

أضعتِه.

ابتعدي عني لا أريد رؤيتك.

لن تستطيعي الاعتماد على نفسك.

لن تستطيعي."

كزَّت على أسنانها بغضب ووقفت تضغط على كاحلها المتورم غير آبهة بالإصابة، وكأنه ما عاد هناك شيء يؤثر فيها فقد فاض عمقها بالكثير من الأوجاع، أحكمت قبضتها على الحقيبة، وتابعت السير وهي تطيح بالأوراق التي تسد طريقها، وتصيح بسخط:

- ليس بعد.. ليس بعد، لن أستسلم الآن.

لمحت من بعيد ظلاً لمنزل فوق شجرة عملاقة راسخة في الأرض، والغيوم تكتنفها من جميع الجهات، يتدلى منه سُلم خشبي، ويتأرجح ظل شخص ما يصعد عليه، ركضت نحوه تتحامل على ساقها وهي تئن، توقفت وهلة ونظرت للكتاب ثم تلفتت يمينًا ويسارًا، شعور ما أخبرها بأنه لا يجب أن تذهب بالكتاب إلى هناك، احتضنت حقيبتها بتوتر، وعيناها تجولان في المكان، ترى أين ستخبئه؟

جلست على الأرض بجوار شجرة عملاقة تقادم عمرها لكنها لازالت قوية، متماسكة رغم الخدوش، وآثار القطع، وسقوط بعض أوراقها، صامدة رغم الظروف القاسية التي جعلت جذعها متآكلاً.. وأيضًا مازالت جميلة!

تحسست التربة حولها واختارت اللينة منها، وانتقت حجرًا أطرافه حادة وبدأت تحفر وتحفر حتى صنعت ثغرة عميقة في التربة الندية، كادت تضع الكتاب لولا فضولها الذي دفعها لقراءة المزيد من خباياه، نظرت للبيت المُعلق بأمل، خامرها خاطر بأنها تستطيع طلب المساعدة في أي وقت، ستسترق سطورًا قليلة فقط، فتحت الكتاب وهي تستند على جذع الشجرة، وتبحث عن الصفحة التي توقفت عندها، وجدتها فبدأت تقرأ:

- " كنت جالسًا على مقعد أمام البحر، ولا شيء في بالي غير صوتها وهي تخبرني باسمها: "روح" لقد كنت باردًا من الداخل ومظلمًا حتى رأيتها وشعرت أنها سكنتني، لا أدري كيف انتهى النقاش بنا وتركتها تذهب.

ولا كيف قادتني قدماي للجلوس هنا؟ مر من أمامي جمع من الناس يسيرون خلف جنازة، ملأ البكاء والصراخ والنحيب الفراغ فجأة فتشوش تفكيري، وسرت خلفهم مسلوب الإرادة، وكأني أردت أن أنعي نفسي القديمة مع الجنازة وأستقبل نفسًا جديدة تمامًا، كان الفارق بين موت هذه وحياة تلك أني قابلت "روح"، عندما تمتمت باسمها في أعماقي رأيتها في الصف الأمامي تتوشح السواد وتبكي في صمت سحيق، بثبات واضح، دفعت السائرين وتقدمت نحوها كالمجنون، كان غريبًا علي بعدما رأيتها بالأبيض الفضفاض أن أجد السواد يغرقها في ظلامه، أمسكت ذراعها وسحبتها نحوي، صدمت عندما رأتني ونظرت لي لثانيتين ثم دفنت رأسها بين عنقي وصدري حتى أغرقت دموعها رقبتي، كدت أسألها عما حدث بعد ذلك الوقت الضئيل الذي تركتها فيه، لكني آثرت الصمت، ووضعت كفي تحت ذراعها وأمسكت يدها لأسندها وأنا أسير محاذيًا خطواتها، كان الجميع ينظرون إليّ بريبة، سمعت همسات كثيرة تتساءل عن هويتي، لكني أردت أن أثبت عيني على الطريق فوضعت رأسها عند فؤادي.. "

كانت تقاوم لكي تكمل بقية ما حدث، لكن الرؤية أصبحت صعبة للغاية بسبب حلول الليل، أرادت استغلال بصيص الضوء الخافت، فأغلقت الكتاب ووأدته، ووضعت بداخله الظرف، ومن ثَم فكت القماشة عن ساقها، ومسحت يداها من بقايا الطين، ودسَّت طرفها بين دفة الكتاب وصفحته الأولي، وشرعت تلملم الحصى وضعت صفًا منه على الكتاب، ثم ظلت ممسكة بطرف القماشة الآخر بيدها وهي تردمه بالطين حتى غطته تمامًا، ظل جزء صغير من القماشة خارجًا من التربة تركته عمدًا كعلامة لها، أدركت أن هذه العلامة الصغيرة لا تفي بالغرض، فقد يمر حيوان أو إنسان فوقها فيغرسها في الأرض، وحينها سيصعب عليها إيجاد الكتاب مرة أخرى، هذا إن وجدته! نظفت الحجر من الطين العالق به ثم نقشت على جذع الشجرة خمس خطوط عرضًا، وتنهدت تنهيدة طويلة تلتها ابتسامة عريضة، ثم حملت حقيبتها وسارت ناحية بيت الشجرة، لكنها توقفت فجأة بعد عدة خطوات واستدارت لتنظر للشجرة، وهي تغمغم مستفهمة:

- لقد وضعت لنفسي علامة الآن لتبين لي أي شجرة دفنت بجوارها الكتاب، ماذا إن عثر أحد الفضوليين أشباهي على هذه العلامات؟ بالطبع سيفكر بشكل بداهي عن سر هذه الخطوط، ويبدأ بالبحث عن المغزى، في حين أني وضعتها فقط كعلامة لي وليس لها أي سبب آخر! ماذا لو كان حالي أنا أيضًا هكذا؟ وأني ألاحق إشارات وضعها أشخاص آخرون قبلي، وربما يكونون قد نسوها من الأساس، أو كانوا يعبثون ولا يوجد أي شيء خلف ما يشغلني من أمر الكتاب ومُرفقاته؟

أطالت النظر للآثار واستعمرت الأسئلة عقلها، هزت رأسها نافية، وقالت بثقة:

- لا، مستحيل.. هذا ليس شيئًا عاديًا يمكن التغافل عنه، إنه يثير تساؤلي، ويربكني وأشعر أني أود معرفه ما وراءه مهما كلفني الثمن.

نظرت لثيابها الرثة ويداها المتسختان، وهمست ساخرة:

- أساسًا لم يعد لدي ما أخشى خسارته.

أخذت نفسًا عميقًا، وركضت ناحية المنزل، وكلما تملكها الألم اتخذت من جذوع الأشجار متكأ حتى وصلت، نادت وهي تحاول التقاط أنفاسها:

- هل من أحد هنا؟

باغتها شخص من خلفها قائلاً:

- ما الأمر هل تريدين المساعدة؟

شهقت فزِعة، وتراجعت بضع خطوات فتعثرت وسقطت، كان عجوزًا ارتسم الشقاء بين تجاعيده، ومع ذلك لم يتغلب على ابتسامته الحنون التي برزت من خلف الضوء الخافت للقنديل، كان يحمل في يده قطع من الخشب للتدفئة.

قالت بعد أن اطمأنت إليه، وتبدد خوفها:

- أجل يا عم أنا تائهة منذ عدة أيام، ولا أعرف طريق العودة، وساقي مصابة، أرجوك ساعدني على الخروج من هنا.

انحنى وأعانها على الوقوف، ثم وضع الخشب في كيس قماشي موضوع بجوار السلم، وحمله على ظهره، وصعد على الدرجات وهو يمسكه بقوة خشية السقوط من دون أن يُعلق، نظرت إليه مندهشة:

- عماه.. ماذا عني!

صدرت عنه قهقهه متحشرجة، وقال بصوت تتخلله أنفاسه المتسارعة:

- اتبعيني.

نظرت إليه بتوتر، ثم قالت بعد تردد قصير:

- لكن قدمي مصابة وأريد الخروج من هنا، لا بد أن زوجي وأبي قلق لأجلي.

نظر إليها بطرف عينه فاحصًا، وتذكر ذلك الشاب الذي قابله صباحًا، ثم قال بابتسامة مطمئنة:

- لنداوي جراحكِ أولاً ثم سأوصلكِ بنفسي إلى حيث تشائين، انتظريني هنا رجاء.

❄❄❄❄❄❄❄

رفعت عيناها إلى السماء فعكس القمر لمعان الدموع فيهما، أمسكت بتأنٍ فنجان القهوة تستمد منه دفئًا، رشفت بحرص رشفة منه فعلقت مرارة القهوة على شفتيها وداعب بخارها أنفها الصغير، مدت يدها وتحسست المكتب على يسارها حتى وصلت إلى درجه ففتحته وأخرجت دفترًا أزرق اللون مُزقت منه الكثير من

الأوراق، تركته على ساقها ومسحت عيناها بوهن فلامست التجاعيد حولهما، لقد بلغت من العمر عتيًا، وترك الزمان ندباته في قلبها حتى برزت على تقاسيمها.

رسمت ابتسامة هادئة بها ظل حزن قديم، واستسلمت لخواطرها وتمتمت وهي تحتضن الدفتر:

- إنها الذكرى الثانية العشرين على ذلك اليوم الممقوت الذي استسلمت فيه وفقدت كل معنى للحياة فأصبحت بقايا إنسان باهت كل ما يربطه بالدنيا أنه مازال يتنفس، أصبح كل شيء اعتياديًا وشاحبًا في نظري، لم يعد هناك ما يشعرني بالسعادة سوى ذلك السوار السماوي الذي يحتضن معصمي، هو وحده الذي كلما نظر.ت إليه ابتسمت ولا شيء غيره.

تأرجحت في ذهنها صورة ابنتها صاحبة العينان العسليتان بابتسامتها الطفولية المشبعة بالمرح، وهي تهديها ذلك السوار البلاستيكي يوم مولدها لعلمها بمدى حبها لذلك اللون.

تنهدت وأغمضت عيناها وهي تردد بصوت كسير وتوجه الكرسي المتحرك ناحية الشرفة التي تحفظ مكانها جيدًا:

- لقد كانت بهجة حياتي تختبئ في حروف اسمك، كنت ذلك الضوء الذي أنار عالمي الصغير، لكنه قدر الله.. أخذك مني بعد سبعة أعوام فقط، لم أدخر من ضوئك يا صغيرتي للأيام الحالكة، رحلت فعم الظلام، ومن حزني عليكِ بكيت حتى سكن السواد مقلتاي وفقدتُ الرؤية.

سرت قشعريرة في جسدها، وقالت بخفوت:

- لكن لا.. أنت لم ترحلي، أنت هنا دائمًا.

وضعت يدها على فؤادها تلتمس الاطمئنان إثر خاطرها الأخير، واستكملت والدموع تفيض من عينيها:

- الله يعلم أني ما قنطت ولا اعترضت فهو الرحيم، لولا لطفه لما صبرت علي فراقكِ يا صغيرتي، أعطاني الله ألمًا كبيرًا ووهبني قوة وصبرًا عظيمين لأتحمله.

أطلقت تنهدات، وهي تهمس:

- كنتُ فقط أريد أن أكتب لك رسالة وأضعها عند قبرك مثل كل عام.

تزلزل صوتها أثر الدموع، استكملت:

- لكني أعلم أنك تسمعينني، أنت هنا حولي في كل مكان يكتنفني طيفك.

استندت بكفيها على السور وتحاملت على نفسها وهي تحاول الوقوف فوقعت على الكرسي في مكانها، قاومت البكاء وسكنت هنية، وتنفست الصعداء، تمتمت بصوت تأسره العَبرات:

- أعني يا الله.. أعني.

فتح الباب برفق وتسلل من خلفها ومسح براحته على كتفها مخففًا، أرخت خدها على كفه، وقالت بخفوت:

- كنت أطلب من الله العون، فأرسلك.

أحاط جذعها بذراعه ليوقفها، ثم أسند رأسه على كتفها، لا يدري أهو من يسندها أم هي من تسنده،

ترك قبلة على رأسها:

- لستُ العون الوحيد الذي أتى، تعلمين من بالخارج؟

هزت رأسها نافية، فأجابها بنبرة مرحة:

- بحر.

صُعقت، وقالت بصوت يملؤه الشوق:

- بحر؟

أ.. أنت لا تمازحني أليس كذلك؟ رُحماك ربي، خذني إليه يا "نقاء" خذني إليه!

جاءها صوته من خلفها:

- آتي أنا إليك أيتها الشقية أينما كنت.

شقت الدموع مجراها مجددًا على خدها، وضعت يدها على فؤادها:

- لازال صوتك كما هو يا صديقي، كيف أصبح شكلك؟

أجابها ممازحًا:

- لازلت شابًا يافعًا مفتول العضلات، أصغرك بأعوام.

قهقهت، ومسحت على صدرها بحنين:

- هيييه يا "بحر" لازلت خفيف الظل كما عهدناك!

- ومن قال لكِ أني أمازحك، لازلت صغيرًا.. تغارين أليس كذلك.. تغارين!

لمح ابتسامتها الحزينة ثم استكمل:

- لم أكذب عليك، كيف يشيخ القلب الذي عرف للحب طريقًا! وأنتم يا أصدقائي أثمن حب قد يحصل عليه المرء.

❊❊❊❊❊❊❊

ظلت تنظر إليها بحيرة على فترات متقاربة، وهي تجلس أمامها على كرسي خشبي، وخصلات شعرها الكستنائي تتدلى لتصل إلى منتصف ظهرها في تموجات ملساء واسعة، كانت تطحن بعض الأعشاب وهي ساهمة كأنها في عالم آخر خلقته لنفسها ولا تدري عن واقعها شيئًا، جميلة للغاية ببشرتها القمحية وعيناها اللتان اقتبستا لونهما من مسحوق القهوة الذي تبعثر الكثير منه على بشرتها الملساء، وفوق حاجباها المُعوجان، لم تنطق بكلمة واحدة منذ أن اقتحمتْ "لارين" عالمها ككائن متطفل.

كانت ملامحها رقيقة، وهادئة، دافئة تسلب فؤادك وكأنك تشاهد غروب الشمس للمرة الأولى بعد سجن دام سنوات وسنوات.

دارت بعينيها في الغرفة البسيطة، كانت ممتلئة بالأغراض الكلاسيكية، فعلى المكتب العتيق كان هناك قنديل إنارة، والعديد من الأوراق القديمة والأحبار، هناك أيضًا اللوحات.. الكثير والكثير منها، ما بين معلقة على الجدران، ومصفوفة في أركان الحجرة خاصةً بجوار الأريكة ذات الكسوة الخضراء المزينة بزهور صغيرة بيضاء ذات قلوب صفراء، كما أن هناك رائحة عطر هادئ تملأ الجو وتبعث في النفس السَكينة وتجبرك على الاسترخاء.

استقرت عيناها على زجاجات صغيرة، وأباريق معلقة على رفين في الحائط المقابل لمكان جلوسها، وأسفله يوجد طاولة عليها كمية كبيرة من زهور الأقحوان، وكرسي أمام الطاولة بجواره موقد عليه وعاء به ماء يغلي.

دخل "رحيم" ذلك الرجل الطيب الذي أصر على علاجها بابتسامته الحنون ومعه صحن من الفخار يحتوي مجموعة من الأعشاب المهروسة، تركه أمامها ثم ذهب وأحضر كأسًا من منقوع البابونج وناوله لها وهو يحثها على شربه:

- سيساعدك على النوم.

كان بسيطًا، وقد أسعدها تصرفه هذا، لأنه لم يشعرها بأنها "ضيفة ثقيلة" كما يقولون! بل عاملها بكل لطف وكأنها أحد أفراد هذه الاسرة الصغيرة، هذا ما أقر الطمأنينة في نفسها.

فحص كاحلها والأسف باد على وجهه:

- من الواضح أنكِ تألمتِ في الأيام الماضية، كيف حدث هذا معكِ يا ابنتي؟

استرقت نظرة إلى الفتاة الهادئة، لعلها ترى الفضول في عينيها وما إن كانت تريد معرفة حكاية تلك الغريبة التي حلت على منزلهم في ساعة غير متوقعة، لكن الأخرى كانت منغمسة بما تفعله ولم تبدِ أي اهتمام، التفت "لارين" إليه وبدأت تسرد على مسامعه ما حدث معها، وتحذف كل ما يخص الكتاب الغريب الذي وجدته، أخبرته أيضًا عن ذلك الشاب الذي اعترض سيرها.

نظرت إليها الفتاة مهتمة من دون أن تلاحظها، لكن "لارين" باغتتها ورفعت عيناها نحوها فأطرقت في الكتاب بخجل، وكأنها كانت تتعمد أن تظهر "للارين" أنها تتجاهلها، أخذت "لارين" نفسًا طويلاً، وقالت تقطع تسلسل الحديث:

- هكذا التوت ساقي، دائمًا ما كنت متسرعة، ولكني وعدت نفسي أن أفكر مليًا فيما بعد فما حدث لم يكن سهلاً على الإطلاق.

ابتسم "رحيم" وربت على كتفها في حنو:

- جيد أنكِ أتيتِ إلى هنا، أنتِ الآن في أمان، لا تقلقي سأعتني بكِ، وستصبحين بخير.

قام بصعوبة وهو يمسك ظهره، وابتسامته لا تفارق ثغره:

- يا حيّ، هيا يا ابنتي استريحي ولا تنهكي نفسك بالتفكير، سأصحبك إلى خارج الغابة متى أردتِ، بل سأوصلك حتى باب منزلكِ.

نظرت إليه بامتنان، قائلة:

- أشكرك أيها الطيب.

خرج من الغرفة متكأ على عصاه التي تدق الأرض دقًا، وكأنها تفتخر أن عظيمًا مثله يستند عليها، استلقت "لارين" على ظهرها وتنهدت، فأتاها صوت الفتاة الحاني هامسًا:

- كم عمرك؟

ابتسمت "لارين" وقد أطل الفرح على وجهها، فجلست وضمت راحتيها لبعضهما:

- سأتم التاسعة والعشرون قريبًا.

رفعت حاجبيها مشدوهة، وهي تضع خصلات شعرها التي انسابت على عيناها خلف أذنها، وقالت مستفهمة:

- حقا؟ لا يبدو عليك، ما أقصده أنكِ تبدين أصغر من ذلك بكثير!

ضحكت "لارين" وسألتها بنبرة يمتزج بها المرح:

- ربما لأني نحيفة، أليس كذلك؟

حركت رأسها نافية، وأجابتها بتلعثم:

- لا، بك شيء مختلف، تصرفاتك، والطريقة التي تتحدثين بها عفوية وطفولية، وهذا ما جعلني أقول ذلك.

ابتسمت "لارين" بخجل، وسألتها:

- هل هذا أمر جيد أم سيء؟

- لا.. لا.. أقصد أنه بالطبع جيد، ويدل على نقاء سريرتك.

هزت "لارين" كتفيها، وقلبت شفتها السفلى:

- ربما تكونين محقة.

غمرهما الصمت بضع ثوان، فأزاحته "لارين" سائلة:

- وأنتِ ما اسمك، وكم عمرك؟

- اسمي "دفء"، وعمري أربعة وعشرون خريفًا ونيف.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه "لارين" أردفت بحماس:

- يا الله! لاق عليكِ كثيرًا هذا الاسم.

قالت جملتها الأخيرة ولم تترك لها فرصة التعليق، استأنفت وهي تشير للكتب على الرفوف في محاولة للاستئناس بحديثها:

- أرى أنك تحبين القراءة والزهور؟

لمعت عيناها وقد راقها أن يكون ما تحبه هو محور كلامهما، فقلما اهتم أحد باهتماماتها وسألها عما تحب، لم تكتمل سعادتها فقد كادت تقول شيئًا لولا صوت "رحيم" الذي ناداها لتأتي إليه على عَجَل، انكمشت ملامحها متذمرة، واستأذنت من "لارين" التي بادلتها النظرات المتفهمة، وقالت مبشرة:

- لا بأس، سنتحدث غدًا بكثرة.

خرجت، بينما أخذت "لارين" نفسًا طويلاً وهي تتحسس السرير، أخيرًا ستنام قريرة العين بعد كل هذا العناء الذي لاقته في الأيام الخوالي.

❈❈❈❈❈❈❈

- إلى أين تصحبني يا "نقاء"؟

- انتظر وسترى.

فتح "نقاء" بابًا عتيقًا، ودلف وخلفه "بحر" الذي وقف مشدوهًا لما رآه:

- هل هذه المكتبة العظيمة لك؟

حرك رأسه منتفش الصدر، فضربه "بحر" بقبضته ممازحًا، وهو يدور بنظراته في المكان مستكملاً بفخر:

- إذًا حققت حلمك.

قال "نقاء" مستفهمًا وهو يمسح على ظهره:

- ماذا عنك؟

استقرت عينا "بحر" على البرواز الذي يضم كلمات الإمام عليّ بن أبي طالب، دمعت عيناه وهو يشير إليه، متجاهلاً السؤال:

- لازلت تحتفظ به!

- لازلتُ أحتفظ بكل شيء يا صديقي.

انحنى "نقاء" وجلب صندوقًا خشبيًا كان يعلم مكانه جيدًا، وينتظر مثل هذه اللحظة، قال موضحًا وهو يدق عليه:

- لكن قبل أن أنسى، هذه الأمانة لك.

عقد حاجبيه بدهشة، وقال مستفسرًا:

- ممن؟

- ومن غيرها.. "نسيم".

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه، وتسللت العَبرات لمقلتيه، قال بشوق:

- كيف حالها؟ أوحشتني.

نكس "نقاء" رأسه مجيبًا:

- توفاها الله قبل عامين من الآن، كانت تكتب لك الرسائل وتخفيها عندي في هذا الصندوق، وقد أمنتني أن أعطيه لك إن عدت.

شعر وكأن خنجرًا غُرس في فؤاده، وانسكبت دموعه بلا تقديم، فتح الصندوق فتسلل عطر الرسائل الخافت إلى أنف "بحر" واستشعر فيه عتابًا، قال وهو يناوله الأوراق الباهتة:

- كانت على ثقة بأنك ستعود يا "بحر"، وقد عدتَ بالفعل ولكن بعد أن رحلت هي، كانت أكثرنا شوقًا إليك وهي الوحيدة التي لن تراك.

انقبض فؤاد "بحر" ووضع يده عليه يواسيه، وأغمض عينيه، تنهد وأمسك الرسالة الأولى، وقرأ ما فيها بصوت كسير:

- "اليوم يا "بحر" أنجبت توأمًا، فتاة وصبي أسميتهما "كسوف" البنت، "خسوف".

تتساءل عن سر هاذين الاسمين أليس كذلك؟! لقد حرمت الإنجاب لسنوات طوال، ويئست ويئس الأطباء مني، ثم أمر الله وقال: كُن؛ فكانا توأمًا.

بعد ولادتهما مباشرة كان زوجي يقف عند رأسي، وأخبرني حينها أن هناك خسوفًا للقمر بالخارج، حينها سألته:

- هل يجتمع الخسوف والكسوف في يوم واحد؟

هز كتفيه، ثم نطق بعد تفكير قصير:

- لا أعلم.. من الممكن أن يكون قد حدث، لكن لا أعتقد.

أغمضت عيناي، وثبتُّ يدي على قلبي، كما كنت تفعل يا "بحر" وقلت بهدوء:

- بلى يحدث، وأسميتهما بهذان الاسمان."

أغلق "بحر" الرسالة وابتسم ساخرًا من تحطيم الأيام لأمانيه:

- تزوجت إذًا؟

مسح على جبينه بكفه المرتعش، سأل:

- هل لديك صورة لها؟

أمسك بيده مواسيًا، ومتجنبًا طلبه:

- ألم تشتَق لمكاننا؟

- بل أحرقني الشوق رغم أني "بحر"...

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

كان يصب الشاي في الأكواب بهدوء وهو يرفع ذراعه لتملأ الرغوة سطح الكأس، سيطرت رائحة النعناع على مزاجه وهدهدت روحه، دلفت "دفء" وهي تستنشق رائحة الكعك اللذيذ، قالت بحماس:

- من الواضح أنه ينتظرنا فطور رائع اليوم.

نظر إليها بطرف عينه، وقال ممازحًا:

- اليوم فقط!

ضحكت، ووقفت على أطراف أصابعها تقبل رأسه قائلة:

- أقسم أن كل شيء تصنعه جميل.

أخرج الكعكة من الفرن، ووضعها بجوار الشاي:

- بل إن الشيء الجميل هو ما ستصنعينه أنت بعد أن نتناول الفطور.

نظرت إليه مستفهمة فسارع بالتوضيح لها:

- قابلت شابًا نهار البارحة وقد كان يبحث عن زوجته الضائعة، وأنا أظن أنها ضيفتنا، كنت قد ذهبت به إلى "قريب" ذلك الدليل عند طرف الغابة الشرقي، تعرفينه؟

قالت أنها تعرفه، فواصل:

- ستذهبين إليه يا صغيرتي وتخبرينه أن يأتي بالشاب إلى هنا، وإن كان قد ترك له عنوانًا فخذيه منه.

قالت وهي تنظر إليها بشفقة:

- بالطبع سأفعل، يبدو عليها العناء، إنها كثيرة الهم.

كانت "لارين" تحدق في الفراغ، توهمت أنها سترتاح وتقضي ليلتها وهي تنام بهناء لكن ما حدث كان على النقيض تمامًا، فلا استطاعت أن تنام ولا فارقتها الأفكار، أمضت ليلتها باكية بدون سبب واضح حتى أشرف النهار، لابد أنها الهموم والآلام حين تتراكم وتتراكب فوق بعضها ثم تنفجر في لحظة ليست في الحسبان، لقد مرت عليها الأيام الماضية بثقل لم تعهده، يكفيها إحساس الفقد الذي

كان يتخللها، كل شيء كانت تغامر به كان لأجل يقينها أنها ستموت أو ستظل تائهة مؤبدًا، غامرت بأشياء ما كانت لتضحي بها لو أن خيار حياتها كان واضحًا، وبالرغم من أنها ضمنت النجاة_ بالتقدير البشري_ إلا أنها لازالت متمسكة بفهم لغز الكتاب الذي دفنته، حتى أنها دفنته بحرص شديد لكي لا يعثر عليه أحد سواها.

لم تشعر "لارين" بأن "دفء" كانت تقف عند زاوية الغرفة وتنظر إليها، وقد ترقرقت الدموع في عيناها رثاء لحالها، فابتسمت عندما رأتها، هكذا تطابق اسم "دفء" مع شكلها عندما انعكس ضوء الشمس على خصلات شعرها فأضفى عليه بريقًا هادئًا، وامتصته عيناها فبدت وكأنها تشعان بسحر جذاب، كانت تحمل سلة تتدلى منها قماشة بيضاء، مسحت "لارين" عيناها بسرعة، ورسمت ملامح مرحٍ زائفة لم تستطع أن تخفي وراءها آثار الدموع وانعدام النوم، قالت وهي تتهرب من عينا "دفء" المتسائلتان:

- صباح الخير..

تصنعت "دفء" ابتسامة رقيقة على طرف فمها بعد أن شعرت أنه ليس من الصواب الآن سؤالها عما يُبكيها:

- سأذهب لجمع بعض الزهور والفاكهة، كنت أريد أن أصحبكِ معي لكن لا بأس عندما تشفى ساقكِ سنذهب سوية، هيا الآن لنتناول الفطور معًا.

دخل "رحيم" عليهما مبتسمًا والتجاعيد تزاحم الحنان على وجهه، وضع الطعام أمامها بعد أن قرب الطاولة، وقال يطمئنها:

- ستتحسنين يا غاليتي، هيا تفضلي، بسم الله.

همست بتلقائية غير مدركة أن صوتها كان مسموعًا:

- يا لك من رجل طيب رقيق الطبع والقول.

استحت عندما لاحظت ضحكته الخافتة:

- الله يضع في طريقك من يشبهونك يا صغيرتي.

رشفت من كوب الشاي ليساعدها على ابتلاع قطعة الكعك الكبيرة التي التهمتها، وقالت بنبرة يكسرها الحزن:

- هذا ليس صحيحًا.. أعتذر، أقصد أنه هناك أشخاص لا يشبهوننا أبدًا و..

أشار إليها متفهمًا:

- ابتلاء.

لوت شفتها بتسليم، وأغمضت عيناها وهي ترشف من كوب الشاي وقد راقها مذاقه، كان هناك مزيج هادئ لطيف جعلها تهدأ، طقطقة النار في المدفأة مع صوت الأمطار الخفيفة يشعرها ببعض الأمان الذي كانت تفتقده، نحن لا نعلم قيمة ما نمتلكه حتى نفقده.

ارتدت "دفء" معطفها ورحلت بخفة، بينما قام "رحيم" من مجلسه وأتى بعد بضع دقائق وبين يديه لفافة قماشية ووعاء فخاري رائحته توشي بأنه يحتوي على خلطة عشبية:

- سأغير القماشة التي على كاحلك وأضع هذه الأعشاب التي ستساعدكِ على التعافي بسرعة.

تردد في أذن "لارين" بغتة صوت "هادي" يناديها، وضعت يدها على فؤادها الذي اقشعر، وأمعنت الإنصات فسمعت نداءه الثاني، شهقت وقفزت إلى النافذة وقد نست ألم ساقها، وسألته بلهفة:

- هل سمعتَ ما سمعته يا عماه؟

عقد حاجبيه، وقال متسائلاً:

- سمعتُ ماذا؟

دفعت نفسها والتقطت حقيبتها وكأنها تستعد للرحيل، استوقفها مستفهمًا:

- إلى أين يا ابنتي؟

أجابته بشوق والعبرات تنساب على خديها بلا إرادة:

- "هادي" إنه هنا، أنا متأكدة.

- أنا لم أسمع شيئًا، لا بُد أنكِ تتوهمين يا صغيرتي، ولن أسمح لكِ بالمغادرة وأذية نفسكِ مجددًا، أعدكِ عندما تتعافين تمامًا سآخذك بنفسي إلى منزلكِ، هل لكِ أن تصفي لي زوجكِ؟

أجابته والحزن واضح في نبرتها:

- لكني سمعته، لقد سمعته يُنادي باسمي، لا شك أنه لم ينسني أليس كذلك.. إنه يبحث عني؟

❄❄❄❄❄❄❄

سارا مُتكاتفين "بحر" يمسك الصندوق الذي تركته له "نسيم" باغته سائلاً والأسى مستقر على وجهه:

- لم تخبرني كيف وصلت "ليل" لهذه الحال؟

تنهد بعمق، وقال مجيبًا وقد تباطأت خطواته فقد أثقله حمل السؤال:

- كانت "ليل" تتمشى بالقرب من القطار الذي قابلتك فيه ومعها ابنتنا "عِطر" وصديقتها الصغيرة "مطر" على حين غفلة من" ليل" ركضتا ناحية السكة الحديدية للقطار، التفتت "ليل" فرأت القطار يقترب، لم تشعر إلا وهي تلقي بنفسها عليهما وتحتضنهما، تدحرجت بعيدًا عن عجلات القطار، اعتدلت "ليل" فوجدت "مطر" ترتجف، وذراع "عِطر" فقط، استدارت فلم تجد سوى الدماء!

استكمل "نقاء" بنفس نبرته الحزينة:

- لم تتكلم بعدها لعامين حتى ظننت أنها فقدت النطق، "نسيم" هي من جعلتها تتحدث، جميعنا كنا نتجنب الحديث عن "عِطر" أمامها، إلا "نسيم" جلست وتحدثت عنها وكانت تطمئنها أنها تراها دومًا، وتبكيان معًا حتى تنام "ليل" بين ذراعي "نسيم" كانت تطمئن لها كعادتيهما منذ الصغر، لم يفترقا أو تتغير علاقتهما أبدًا، كانت "ليل" تجلس في الظلام دومًا ولا ترى الضوء إلا عندما تدخل إليها "نسيم".

توقف قليلاً واستند على الجدار، تأمل عينا "بحر" وكان فيهما عتابًا:

- عندما توفت "نسيم" عادت "ليل" لفقاعتها بين دموعها وظلامها حتى سكن الظلام عيناها.

ربَّت على كتفه مواسيًا:

- وأنت تتحمل كل هذا يا صديقي؟

- وهل الدنيا إلا دار ابتلاء؟ ليميز الله الخبيث من الطيب ويرفعنا في الجنان درجات، أتحمل.. أتحمل وأصبر على قضاء الله، أفأقنط من ابتلائه وقد أعطاني كل ما تمنيت؟ زوجني من أُحب، واستطعت بفضله بناء المكتبة كما حلمت، والكثير الكثير من الكرم.. كان ختامه أن جمعني بك.

أليس في كل عطاء منع وفي كل منع عطاء؟ هو وحده يعلم الخفايا ولا يحملنا مالا نطيق.

عمَّ الصمت قليلاً فقطعه "بحر" مردفًا:

- لقد تغيرت الكثير من الأشياء في غيابي، ليتني كنت موجودًا ولم أغب عنكم، لكان وقعها عليّ أهون من اجتماعها هكذا.. أردت أن أجتمع بكم ولكن في الحقيقة اجتمعت ببقاياكم.

قال جملته الأخيرة وهو يحكم ذراعه على الصندوق، استكمل:

- أريد أن ألتقي بـ"خسوف" و"كسوف" بالطبع هي رقيقة ورفيعة مثل والدتها، تحتمي بأخيها كما كانت "نسيم" تحتمي بي أيام الميتم.

استطرد متسائلاً وهو يحك ذقنه بيده المجعدة بارزة العروق:

- صحيح.. ألا زال الملجأ قائمًا؟

- نعم يا صديقي، ونحن جميعًا نقوم على رعاية من فيه.

استقرت عينا "بحر" على البيت الصغير فارتسمت ابتسامة عميقة تحمل الشوق على ذراعيها، كُرت كل الذكريات أمام عينيه عندما رأى مقرهم الصغير، كان بيتًا قديمًا، أخشابه قوية كما عهدها رغم مرور العقود عليها، نصف البيت من الخشب، ويستند على صخرة عملاقة مجوفة تشكل النصف الآخر منه، على الجانب الأيسر استقرت الشجرة العملاقة التي كانوا يتسلقونها معًا، غطت أوراقهما سقف المنزل

حتى أخفته، والأعشاب حول البيت أطول من باقي الأماكن وأكثف حتى أنها طالت مقعد الأرجوحة، بدا أن حبال الأرجوحة قد تجددت عن قريب، تذكر كيف كانت "نسيم" تجره من يده ليدفعها عليها، كانت "نسيم" أول من عثر على هذا المنزل وأخبرت البقية، ومن حينها أصبح مكانهم الذي يلعبون فيه جميعًا ويخفون به ألعابهم.

كان ذلك المنزل الصغير يقع على جزيرة في منتصف النهر، يربطه بها جسر قديم لاحظ "بحر" صدعًا فيه وهو يسير خلف "نقاء" فسأله:

- لماذا لم تصلحوه؟

- لقد كُسر الجسر في اليوم الذي ماتت "نسيم" فيه، وعندما قررت أن أصلحه منعني "رحيم" مُعللاً: أن الأشياء والأماكن تشعر بأصحابها، فوالله لو أصلحته ومرَّ عليه أحد غيرها لتصدع ألمًا كلما ذكرته خطوات أحدهم بخطواتها، حينها لم أفهم كلماته وظننتها ضربًا من جنونه الفلسفي، ولكني وجدتني كلما اشتقت إليك أُنزل بروازك وأنظر إليه لساعات فيسهل عليّ تذكر ملامحك وطريقة كلامك، أو أهرب إلى صورنا ونحن أطفال، أو إلى هنا...

للأماكن أيضًا ذاكرة يا صديقي، الأماكن لا تصبح مهجورة إلا حين يهجرها أصحابها، ومهما وجدها آخرون وجددوها من بعدهم ستظل ذكراهم موجودة فيها، وستبقى مهجورة مهما تزاحمت فيها الأنفاس، رسمكَ مثلاً على الجدار لن يُمحى ولو طُلي بألف طلاء؛ الذكرى لا تُمحى حتى ولو هُدمت الجدران لأن مكانها في حد ذاته ذكرى.

اقتربا من الباب فقرأ ما هو مكتوب على اللافتة الخشبية المتهالكة والحنين يحتضن كلماته:

- القارة التاسعة.

كان هو من كتبها، قال يُمازحه:

- لقد كان خطي قبيحًا للغاية!

ضحك "نقاء" وهو يفتح الباب فأصدر أزيزًا هو أحب الأصوات إلى قلبه، دخلا فتسللت رائحة الغرفة إلى أنفه، هربت دمعة من عينيه، وقال:

- ليتنا نجتمع مرة أخرى مثل الأيام الخوالي، يومًا واحدًا فقط.. يومًا فقط.

وضع حقيبته أرضًا، وضحك قائلاً:

- أتذكر كيف كنا نعتقد أن هذا المنزل عبارة عن مكان بين الحاضر والماضي نظرًا لشكله العجيب، وأن النصف الحجري منه يرجع للماضي بينما الجزء الخشبي فهو ينتمي لواقعنا، اعتقدنا حينها أنه يحتوي على أسرار الزمان وخفايا القَدر، وكنا قد تعاهدنا أن نكتشف هذه المكنونات؛ إنها الطفولة وخيالاتها، لولا خيال الطفولة الخارقة ما كنا صُدمنا بصفعة الواقع الأليم.

ابتسم حالما رأى الكرسي الذي كان يجلس عليه في صغره، لازال في مكانه، موضوع أمام اللوحة الخاصة بمكتبة "نقاء" التي أصبحت اليوم تنبض بالحياة، تفحص الخربشات التي كان يصنعها بالمسمار على كرسيه، حاول قراءتها وهو يتمشى بأنامله عليها:

- ليتني أرحل من هنا وأحقق حلمي.

استند "بحر" على الجدار بذراعه:

- ها قد رحلت يا "بحر" ولم تجنِ إلا الخسارات من وراء ذهابك، حزمت حقائبك وودعت الرفاق لأجل حلمك، ثم ماذا.. عُدت بدونه!

جلس على الكرسي حتى ارتخت أعصابه، أخرج "نقاء" صندوقًا صغيرًا، وقال مهونًا عليه:

- انظر هذا الصندوق يخصك.

ثم ربَّت على كتفه، وقال محاولاً مواساته:

- هوِّن على قلبك فإنه مأجور على صبره.

فتح "بحر" الصندوق بعد أن بادله ابتسامة يقين، أخرج أوراقًا قديمة سرعان ما ميزها، نظر إليها بنفس الحنين الذي يلازمه منذ أن سمع صوت "نقاء"، كانت رسوماته عندما كان صغيرًا، وكلها عبارة عن أفيال.

وقف "نقاء" أمام الباب تاركًا إياه يقلب في الصندوق، تزاحمت الدموع في عيني "بحر" وتسارعت على خديه، فهذا ديوان للإمام عليّ بن أبي طالب، كان قد سرقه من المكتبة وركض وصاحب المكتبة يلاحقه وهو يقذفه بالسباب واللعان، حينها توقف عند امرأة عجوز تبيع المناديل وأعطاها النقود التي كان سيدفعها ثمنًا

للكتاب، فعل ذلك لأنه كان يكره صاحب المكتبة لقسوته فقد كان يضربه بالعصا إن اقترب من الكتب مع أنه كان ينوي شراءها لا سرقتها كما يقول ذلك المعتوه، بسبب ذلك قرر الانتقام منه. ابتسم عندما تذكر كيف أمضى ليلته نادمًا يدعو الله أن يغفر له، وعندما حلَّ الصباح عقد النية على إصلاح خطئه، فتسلل وترك ثمن الكتاب في قفل المتجر واستدار ليجد صاحب المكتبة واقفًا خلفه، احتضنه الرجل حينها وعرض عليه أن ينتقي من الكتب ما يشاء لأمانته، لكنه رفض، فأهداه البائع قلم تلوين أزرق، لكنه طلب منه واحدًا ورديًا بدل الأزرق فأعطاه صاحب المكتبة القلمان، ذهب حينها وأهداهما لـ "نسيم" ورسما بهما على الجدار خلف اللوحة العملاقة للكتب، لم تكن حينها قد وُضعت بعد.

قام "بحر" وأزاحها فوجد الرسمة في مكانها، لكنها كانت باهته كعينيه، كانت عبارة عن صبي وفتاة يُمسكان يد بعضهما.

قبض على قلبه بقوة عندما أفرغ الصندوق فسقطت منه دمية على شكل فيل، كان قد وجدها أمام إحدى البنايات، وقد كانت ممزقة فرقعتها "ليل" بخرقة من جيب بنطالها. أما هذه الأوراق في القماشة الخضراء فكانت اعترافاته لـ "نسيم" بحبه لها، كان قد وضعها في أمانة "نقاء" الذي كتم سره وأخفاهم عنها بعد غيابه الطويل، بل وأعانها على الزواج من "نجم"، فلم يكن ليرضى أن تحترق حياتها وهي تنتظره أن يعود ويخبرها بحبه، وحمدًا لله أنه فعل؛ فبعض الأسرار يُفضل أن تظل أسرارًا.

وجد خاتمًا فضيًا فلمعت عيناه حالما رآه، وقال بحماس:

- ظننت أنه سقط مني.

ثم أكمل والاشتياق يهز صوته:

- لقد أهداني إياه "رحيم" قبل رحيلي بعدة أيام، اشتقتُ إليه.

قال جملته الأخيرة بقلق وهو يترقب رد "نقاء"

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

مالت الشمس للغروب، وأرخت شعاعها الدافئ لتُقبِل رؤوس الأشجار العالية، وتمخترت النسمات الباردة تؤرجح أوراق الشجر وتُدغدغ بتلات الزهور، كان يتأمل هذا الجو الهادئ وهو يسقي تربة العنب، ويُدندن بصوت حانٍ:

- هل جلست العصر مثلي.. بين جفنات العنب.

والعناقيد تدلّت.. كثريّات الذهب.

هل فرشت العشب ليلاً.. وتلحّفت الفضا.

زاهدًا في ما سيأتي.. ناسيًا ما قد مضى.

أعطني الناي وغنِّ.. فالغنا عدل القلوب.

وأنين الناي يبقى.. بعد أن تفنى الذنوب.

أعطني الناي وغنِّ.. وانْسَ داءً ودواء

إنّما الناس سطور.. كُتبت لكن بماء.

كانت "لارين" تتابعه، وتتأمل مشيته، روحه الخفيفة تكاد ترفعه عن الأرض فيهيأ لكَ أنه إن مشى على أرض لينة لن يترك خلفه أثرًا.

كانت "دفء" تُعلق الزهور من سيقانها في حبل لتجففها، اصطدم ذراعها بالرف المجاور فهبت إليها "لارين" وهي تتكئ على عصا "رحيم" عندما سمعت صرختها، وساعدتها على إعادة الأشياء لمكانها، توقفت "دفء" لوهلة عند ألبوم ضخم من الصور، قالت بعد تنهيدة قصيرة:

- إن الإنسان يحب أن يعيد كرَّ الذكريات لعله يُعيد شعوره حينها.

وضعت "لارين" يدها على كتفها وربتت عليه:

- اتركي الماضي وشأنه.

- أنا أتركه.. أتركه بالطبع لكن لماذا هو لا يفلتني!

- لأننا نكذب على أنفسنا، نقول أننا نسينا وتجاوزنا بينما في الحقيقة نحن نتألم بصمت، نضع أمامنا كل شيء يذكرنا، نحب أشخاصًا يشبهون من جعلونا نتألم آملين أن نُغير النتيجة، لكن للأسف هذا لا يحدث فالمعاناة تتضاعف ونُحشر في زاوية مظلمة.

عندما قلت لكِ اتركي الماضي وشأنه لم أعنِ بذلك أن تُنكريه كأنه لم يكن، بل أن تتقبلي وجوده لأنه جزء لا يتجزأ من تكوينكِ، عليكِ أن تعتادي عليه، أن تتركيه يتخلل قلبكِ وتنتمي له، لا تهربي منه لأنه سيلاحقكِ ولكن بأبشع صوره، وحينها ستتعب روحكِ وتبهت.

تأملتها بعينين حائرتين، آثرت ألا تُعلق على كلامها، فتحت الألبوم وأخرجت منه صورة قديمة ممزقة من منتصفها، بها طفلة صغيرة ترتدي فستانًا بنيًا قصيرًا، قالت موضحة وهي تنزل عن السلم الخشبي وتجلس على الأريكة:

- كنت فتاة مدللة تربيتُ على العز والغنى، والداي لم يكونا يهتمان كثيرًا لأمري من ناحية الحنان، المهم هو أن جيبي فيه الكثير من المال ومعدتي ممتلئة وثيابي من أغلى الثياب على الإطلاق، كنت أعلم أني لست الوحيدة التي تعيش مثل هذه الحياة، وأن هناك الكثيرات حالهن كحالي.

سكتت تنتظر منها تعليقًا، وعندما لم تفعل قالت مُستنتجة:

- أعلم أنك عندما سمعتِ مني ذلك الآن ظننت أنني سأتذمر لأني كنتُ أريد حنانًا ودفئًا، ولكني حقًا لم أكن أريده.

رفعت "لارين" حاجبيها، لقد راودتها الكثير من التساؤلات في اللحظة ذاتها، "رحيم" يبدو حنونًا للغاية، ولماذا سيعيش رجل بهذا الثراء في بيت شجرة في الغابة؟ بل وكيف لا تبحث عن الحنان وهي فتاة واسمها "دفء"؟ تعلم أنه يكون للإنسان حظ وفير من اسمه.

أكملت "دفء" وكأنها قرأت ما يراودها:

- كنت أعلم أنه لا شيء كامل في هذا الكون، وطالما في جيبي نقود سأسعد نفسي ومن حولي، السعادة بالنسبة لي لم تكن بأنواع الثياب والأطعمة والنزهات والحفلات. بل هي أشياء مختلفة، فمثلاً كنت أذهب كل يوم أربعاء لملجأ للأيتام وأقضي معهم كل اليوم وأبيت هناك، وقد بدأت قصتي مع هذا الدار عندما كنتُ في رحلة مع صديقاتي هناك، ولمحت طفلة لا تريد أن تلعب معنا، وعندما سألتها عن السبب قالت أننا سنقضي معهم وقتا جميلاً ثم سنرحل كالبقية، وكان ردي عليها:

- فلنقضي وقتًا جميلاً حتى ولو كان بسيطًا.

لكن جوابها كان قاسيًا بالرغم من بساطته:

- ولكني سأشتاق إليكم وسأظل أبكي.

هزتني كلماتها فقد قالتها بحسرة لم أعهدها، آلمني أن أرى طفلة تبكي بحرقة أم فقدت أولادها جميعًا في الحرب، الحزن يا "لارين" يضيف لأعمارنا سنوات وسنوات حتى يشيخ فؤادنا وهو ما زال في مهده.

صمتت هنية لتمسح دموعها، ثم استأنفت:

- حينها اتخذت قراري سأذهب دائمًا إلى هناك، أن تكون سببًا في سعادة شخصٍ ما طيلة حياته خير من أن توزع سعادات صغيرة منسية على قلوب أثقلتها الهموم، قررتُ أن أكون أُمًا لها بدلاً من أن أُرضي ضميري بالذهاب والتبرع في أماكن متفرقة، وبالفعل لم تتصوري السعادة التي رأيتها في عينيها عندما زرتها مجددًا، وكأنها كانت موقنة أني لن آتي، وأني أواسيها فقط بالكلام ثم سأختفي.

تبدلت حياتي تمامًا منذ دخلتها، كانت تنام بين ذراعي يوم الأربعاء وتجعلني أحكي لها الحكايا، أخرجت من داخلي حنانًا وحبًا لم أدرِ كيف كانا بداخلي، أصبحت سعادتي تتمحور حول ابتسامتها، كل تفكيري كان في كيفية إسعادها وجعلها تشعر بالأمان معي، وتعويضها عما فقدت، كنت أشعر أنها مسؤولة مني، كنا نصنع كل شيء معًا، نفكر ونخطط ونقرر وننفذ، نعطي الأطفال الهدايا سويةً، وفي ذكرى مولدها التي افترضوها كانت أمنيتها أن يذهب أطفال الميتم إلى الملاهي معها، أرادت أن تسعدهم جميعًا لا أن تذهب بمفردها؛ لقد تعلمتُ منها كثيرًا، أجل لا تستغربي إنها طفلة ولكني أخذت منها دروسًا عظيمة.

عندما كانت تنام بين ذراعي تلتمس فيهما دفئًا وحنانًا كنت أنا بحاجة إلى ضمتها أكثر منها، وكأني وجدتُ كل ما ينقصني لديها.

رمت نظرة إلى النافذة، وقالت باستسلام أحيته الحسرة:

- بالطبع والداي لم يكونا يعلمان عني شيئًا ولا أين أبيت يوم الاربعاء، لم يشعرا بوجودي فكيف سيلاحظان غيابي؟ ولكن صدقيني أنا لست ساخطة عليهما فلولا الوضع الذي وضعاني فيه ما كنت سأتعرف عليها.

قالت "لارين" بإنكار مقاطعة إياها وهي تشير للباب:

- لحظة.. لحظة، أنا أصدقك بالطبع ولكن العم "رحيم" لا يبدو عليه مثل هذه القسوة!



وقف يتأمل أمواج البحر التي تتالى وتتسلل بهدوء لتمسح ذاكرة الشاطئ وتواري آثار من أودعوها سرهم.

"تتكوم الأسرار المحمولة ببصمات الحزن فتضيف للقاع ظلمة على ظلماته."

ضم كفيه خلف ظهره وهو يتطلع إلى الأفق مضيقًا عينيه، همس:

- هكذا كنت تقولين لي يا "زمن".

أذكر يوم زفافنا الذي سحبتني فيه من بين الحضور، وركضت وأنا خلفك عبر الردهة الطويلة، وعبرت الشارع، ثم مضيت نحو الغابة، كان الركض خاليًا إلا من تنهداتنا، وأنا وراءك أحاول التقاط أنفاسي الفزعة ولا أفهم ما يحدث، لكني استسلمت ولم أسألك، حتى وجدت أننا قد توقفنا عند ضفة هذا الشاطئ، تمامًا في مكاني هذا، تسمرت مكاني بينما سرت أنت بضع خطوات للأمام وأخرجت ورقة وقلمًا وكتبت شيئًا ما ثم رميت الورقة في الماء.

سألتك حينها عما كتبتِه، فاقتربت مني وقلت أنه في صغرك أخذتك جدتك إلى هنا، وحكت لك كيف تزوجت من جدك، ومنذ وفاته اعتادت أن تأتي إلى هذا المكان حيث كان أول لقاء لهما، وتكتب له الرسائل وترميها في البحر دون قنينة تحميها، كانت واثقة أن الحب يصل بدون وسيلة، فلو ذابت الرسالة فالكلمات باقية ما بقيت الروح، وستظل ترددها حتى تفنى.

أخبرتِني حينها أنك بدأت تقلدينها، وقد كانت تفرح بهذا، حتى أتى اليوم الذي ماتت فيه، وذهبت حينها إلى البحر، وكان ذلك أول يوم تذهبين فيه بدونها، بدا البحر لك حزينًا، أمواجه راكدة وكأنها كفت عن الاستماع للأسرار في ذلك اليوم؛ حدادًا على وفاة مؤنستها، كتبت أول ورقة من دون جدتك، وقد كانت سطرًا واحدًا:

- «لن أنساكِ»

احتضنت موجة صغيرة ورقتكِ، ومن حينها توطدت علاقتك بالبحر، وصار حبيس سرك.

وفي اليوم الذي جلستُ فيه بجوارك وأنت ترسمين، قلت لي أنك في صباح ذلك اليوم قبل أن آتي وأتطفل عليك، كنت قد كتبت ورقة بها صفات الشخص الذي تريدين أن تصبحي زوجته، وأنك تحلمين بقصة حب فريدة عفيفة، وعندما جلست بجوارك كنت قد لاحظت وجودي، نظرت لي خلسة، تلك النظرة التي طمأنتك لي، ولم تعلمي سبب هذا الارتياح الذي غمرك ودفع بك لأن تهديني لوحتك وترحلين بصمت، ربما شعرت أن هناك شيئًا ما سيربطنا فأردتِ أن تقويه، وعندما سألتك عما كتبتِ في الورقة التي ألقيتها توًا يوم زفافنا، قلت لي أنك كتبت:

- «لقد وجدته»

حينها شعرت بفرحة عارمة، كان شعورًا غامرًا مريحًا أن أكون انتصارك الذي انتظرته، أخبرتني وقتها أنك طالما شاركت الأمواج أحزانك، وأمانيك، فكان حقًا عليك أن تشاركيها أفراحك.

شعرت حينها بمسؤولية كبيرة نحوك، وأنه لا يجب عليّ أن أخيب ظنك بي، كان لمعان السعادة في عينيكِ ذلك اليوم يأسرني؛ ومن حينها كلما تشاجرنا ونظرتُ لعينيك فأجد غضبي يتلاشى.

تقدمت يومها نحو الماء أكثر، فأمسكتُ بذراعك لأوقفك وقلتُ وأنا خاجل منك:

- أنا أخاف من المياه الجارية، لا أريد الاقتراب.

أمسكتِ يدي، كانت تلك المرة الأولي التي تقتربين فيها مني هكذا، شعرتُ برعشة تسري في فؤادي وانقدت معك بخطوات مترددة، وعندما لامس الموج قدماك تركت يدي وأغمضت عيناك، وتراجعت أنا خطوتين للوراء فقد كنت أستمد ثباتي من ملامستك، أما وإن تركتني فالوضع يختلف، حينها باغتني قائلة:

- الموج مثل اسمك وطبعك يا "رحيم"

كدت تقولين شيئًا لكنني ثرثار كعادتي، قاطعتك بهزة نافية من رأسي وأنا أضم يداي إلى صدري لأخفي الرجفة التي أصابتهما، لكن اصطكاك أسناني فضحني وأنا أتحدث، فاقتربت مني لطمأنتي وقبضتِ على يدي عندما رأيت انسياب دمعي، لكنني تجاهلته قائلاً وأنا أشير في الفراغ ناحية الشرق:

- منذ عدة سنوات رأيت طفلاً صغيرًا يغرق، وأخته تكبره بسنوات قليلة تنازع الموت وهي تحاول إعادته إلى الشاطئ، في البداية ظننتهما يلعبان

فصرفت النظر عنهما وأنا أصف أهلهما بالإهمال لتركهما صغيران يغوصان وحدهما هكذا، ثم ما إن ركزت عليهما حتى أدركت أنهما يغرقان، رميت نفسي في الماء بدون أي تفكير، وما إن ابتل نصفي حتى عاد رُهابي للماء وشعرت بالغثيان والدوار، تذكرت ما حدث لي في صغري بشريط سريع، كنت داخل البحر أنا و"نقاء" وكنا نرمي بالكرة لبعضنا، رماها لي "نقاء" بعيدًا فتدحرجت داخل الأمواج، فدفعت نفسي في الماء لأحضرها، شعرتُ أن الموج يسحبني، كان شعورًا غريبًا لكنه راقني، وتفنن عقلي في رسم المغامرة المنشودة التي سأكون بطلها، فربما لو تركتُ العنان للموجات تسحبني ستظهر لي حورية بحر مثلاً وتنتشلني من الغرق بحركة لولبية من ذيلها وترفعني لأعلى وتضعني على الشاطئ ثم ترحل، وأنا أقضي حياتي بحثًا عنها، أو ربما أجد كنزًا طافيًا على الماء وأبني به بيت شجرة، وأشتري الكثير من الحلوى والألعاب.

تهت مع أفكاري بين الأمواج، وأفقت على صفعة الواقع المؤلم، نظرت حولي فوجدتني وحيدًا تمامًا، الشاطئ بعيد جدًا وقدماي طافيتان ولا تلامسان القاع الذي أصبحت لا أراه، صرخت بكل ما أوتيت من قوة وظللتُ أضرب الماء بأطرافي، لم أكن أستطيع السباحة، ودخل الماء شديد الملوحة إلى أنفي، وكلما ضربته كلما ابتعدت أكثر وكأنه يعاقبني، لا أدري ماذا حدث لكن صوتًا ما أخبرني أن أترك نفسي ولا أحاول فعل أي شيء، وبالفعل أرخيت أعصابي المشدودة فوجدت أني أطفو على الماء، شعرت بالرعب وتخيلت أن سمكة قرش عملاقة ستأتي وتنزع مؤخرتي من مكانها فواريتها بيدي، عدتُ لأتقلب والماء يدخل في عينيّ وأذنيّ حتى ظننت أني تشبعت به، لا أدري ماذا حدث بعد ذلك، استيقظت ووجدتني على الشاطئ، كان "نقاء" قد استدعاهم لينقذوني، ومن وقتها وأنا لا أقرب الماء الجاري.. بحرًا كان أم نهرًا.

عدت مهرولاً فزعًا عيناي معلقتان على الصغيران، ناديت الواقفين وأشرت إلى مكانهما فاندفع جمع من الشباب صوبهما، ووقفت أرقب ما يحدث وعيناي تفيضان بالدمع، خاصة عندما أتو بالصغيرة وقالوا أنهم لم يجدوا أثرًا للصغير الذي كان معها، شعرت حينها بالندم والعجز، فلو أني كنت أكثر شجاعة لكان قد كتب له الحياة، ازدحم الناس حول الصغيرة، فهمت من الصراخ أن الفتى كان أخاها كما ظننت، تكورت على نفسها وبكت وهي تكتم صرخاتها، انهال الجمع عليها بالشتائم والضرب، حتى طالتها يد والدتها وقبضت على عنقها بقسوة، لم أستطع تمالك نفسي حينها ودفعتني بين جمع المتفرجين لكي أنتشلها من قبضة الأم المكلوم، لكن

رجلًا مهيبًا بدا وكأنه والدها التقطها وحملها على كتفه ورحل وهو يحبس دموعه في عينيه، ووراءه صراخ زوجته يحاوطها النساء وهم يحكمون أيديهم على كفوف صغارهم بخوف، بينما رحلت وأنا أجر خلفي خيبتي.

ربتِ حينها على كتفي وأنت تراقبين شفتاي المرتجفتان، وقلت لي:

- الأمواج جند من جنود الله يسيرها كيفما شاء، فقد تكون راحة لأحدهم وهلاكًا لآخر، الأقدار تختلف، واليد التي كتبتها واحدة.

أحسستِ بوغزات الخوف في قلبي؛ فأدركتني قائلة:

- ثم إني لا أحب أن أغوص بداخل الماء، أحيانًا يجدر بنا عندما نحب شيئًا أن نبقى على مسافة آمنة منه وألا نغوص في تفاصيله، يكمن الجمال أحيانًا في أن تبقَ بعيدًا وتراقب، وأحيانًا أخرى...

قاطعه صوت "نقاء" الهادئ وهو يضع يده على كتفه:

- كنت أعلم أني سأجدك هنا.

ابتسم "رحيم" ولم يلتفت:

- وجدت قدماي تقوداني إلى هنا، وتذكرت ليلة زفافي.

ضحك "نقاء" ملئ ثغره مردفًا بصوت تتخلله الضحكات الواهنة:

- يوم تركتني أعتذر للحاضرين وركضت.

- لن تنسى أبدًا؟

- وهل نسيت أنت حتى أنسى أنا؟!

تنهد "رحيم":

- أنا لا أنسى أي شيء يخصها.

- وأنا لا أنسى أي شيء يخصك!

التف واحتضنه وربت على ظهره فباغته "نقاء" بمرح يخالطه المزاح:

- لقد عاد.

اتسعت حدقتا "رحيم"، وسأله:

- من، أهو؟!

- أجل "بحر"

احتضنه، وقبض على ظهره بقوة، قفزت الدموع إلى عينيه:

- هل ما سمعته صحيح أم أنك تمزح، هل عاد "بحر"؟!

حلَّ "نقاء" نفسه من ذراعيه، فرأى احمرار عينيه، واهتزاز الدموع في مقلتيه:

- لقد عاد.

قبض على كفه وأمسك عصاه وهو يشده وراءه:

- ماذا تنتظر؟ خذني إليه، خذني إليه بسرعة.

- يا "رحيم" عيب عليك يا "رحيم" أن تجر رجلاً في مثل سني هكذا، أفلتني أيها العجوز الخرف، الأطفال يضحكون عليّ... أنت لا تعلم أين هو، إلى أين تجرني هكذا؟!

توقف "رحيم":

- صحيح، أنا لا أعلم أين هو، صحيح أنت من تعلم، إذًا هيا هيا امشِ أمامي هيا قدني إليه..

❄❄❄❄❄❄❄

قرَّب القنديل ثم نظر للرسائل وهو يتفكر فيها ويتخيلها وكأنها تتحدث أمامه، فتح واحدة وبدأ بقراءتها على مهل فقد أربكه تقلص عدد الرسائل، كان يحمل لها شوقًا غامرًا وهو مجبر الآن أن يتركه بين هذه الأوراق القديمة بدلاً من أن ينقله إليها في عناق طويل، تجاهل خواطره المضطربة، وقرأ بصوت خفيض:

- "اليوم استندت "كسوف" على ساقي وأنا أقرأ كتابًا، ووقفت، إنها المرة الأولى التي تقف فيها بمفردها، هذا هو عامها الأول.

إنها تشبهني كثيرًا، لديها نفس الضحكة، والعينان الواسعتان، والأنف العريض، والشفاه الممتلئة، أما "خسوف" يُشبه أباه أكثر، بشرته بيضاء مقارنة بـ"كسوف"، لا يبدوان كتوأم إطلاقًا، لكن لكل منهما جماله الخاص.

لقد راودتني ذكريات الماضي عن نفسي فلم أستعصم منها لأني أجد في قربها المؤلم عزائي، اصطحبتُ "كسوف" إلى مكاننا وأجلستها على الأرجوحة ودفعتها برفق فتناهت إليّ الذكريات وأنَّت بداخلي كما اعتادت أن تفعل، لماذا تصبح ضحكاتنا معًا في الماضي هي سبب بكائي الآن؟ ماذا أفعل إن كان عذابي وهنائي في المكان ذاته؟ فإن ابتعدتُ أعادني ألم الاشتياق وإن بقيت لازمتني وغزة الحنين!

فقط لو عُدتَ لتبدلت الأحوال ولعاد هذا المكان مقرنا ومستودعنا كما كان دائمًا، هبتّ على وجهي الآن نسمة هواء باردة، وأنا أكتب إليك وعيناي معلقتان على ابنتي وكأني أراني فيها.

ذكرني هذا المشهد عندما عثرت على هذا المكان، كنتُ بمفردي وقتها وما جذبني له هو تلك الأرجوحة المُعلقة على شجرته فتسللت عبر الجسر القديم إليها، كانت حبالها متهالكة ومقعدها مليء بالغبار، صعدتُ عليها ولم أعبأ لكني بقيت ساكنة في مكاني لم أستطع جعلها تتحرك، حينها ظهرت أنت من وراء الجسر البالي كالخِضر وجريت نحوي وبدأت بدفعي ومن هنا بدأت صداقتنا. تتذكر كيف تشاركنا بداياتنا وكيف كان مآل كل منا للملجأ؟

كنا نأتي إلى هنا أنا وأنت ونلعب سوية في الخفاء حتى تمزقت حبال الأرجوحة ذات يوم وسقطتُ عنها، لم تدرِ ماذا تفعل حينها أردت أن تصلحها لي فقد بكيتُ عليها أكثر من بكائي على سقطتي، ركضت إلى "رحيم"_ رغم أنك كنتَ تتشاجر معه دومًا لأنه كان يأخذ ألعابك خلسة واتضح فيما بعد أنه كان يُصلحها لك_ فاستعنت به، تتذكر كيف كانت الشجارات بينكما لا تخمد أبدًا لكنك كنت تعلم أنه لن يخفي سرك أحد مثله، فهو الأمين.

كان "رحيم" أكبرنا سنًا، كثير الصمت كالقبر الذي وجدوه بجواره عندما كان مولودًا، في ذلك اليوم كانت مديرة الملجأ قد ذهبت لتدفن يتيمًا توفى في أيامه الأولى لعدم استطاعتهم إنقاذه، وعادت ومعها يتيم آخر، وكأن المكان يأبى أن ينقص ولو فردًا واحدًا، أمسى "رحيم" الأقرب لفؤادها إلى أن ماتت هذه المديرة قبل أن نأتي بقيتنا إلى الملجأ، وهذا ما جعل "رحيم" ينطوي عن الجميع فقد اعتبرها أمًا له، حكى لنا

هذه الواقعة عندما جئتَ به ليساعدنا في إصلاح الأرجوحة، وبكينا جميعًا، آهٍ كم يؤلمني فؤادي كلما تذكرت ذلك الموقف الصعب.

كانت تلك أيضًا المرة الأولى التي أسمع حكايتك يا "بحر"، فقد وجدتك إحداهن في قارب صغير على ضفة الشاطئ، وبجوارك برواز للإمام عليّ ابن أبي طالب_ رضي الله عنه_ كان هو الذكرى الوحيدة من عائلتك، أسمتك حينها المرأة التي وجدتك "بحر" وقالت أن عيناك تشبهان زرقة الماء، كنت وليدًا بينما كان "رحيم" قد بلغ أعوامه الأربع.

عندما اجتمعنا حكيت لنا قصتك بجَلد لم يبد عليك أي حزن أو تساؤل عن هوية أبويك، لم تبكِ، وكأن عيناك اعتادتا أن تتوجع في الخفاء فقط، يومها أحضرت البرواز وقلت أننا سنحتفظ بأشيائنا الثمينة في هذا المقر.

أما أنا فلم أكن أعلم ما قصتي بتاتًا لكني كنت أريد معرفتها، وفي يوم من الأيام لا بد أنك تذكره جيدًا، وجدتك أمامي وبين يديك دفتر قديم عليه اسمي، فتحتَه وبدأت تقرأ معي، فهمنا حينها أنهم وجدوني في نفس العام الذي عثروا عليك فيه لقد كنتَ تكبرني بشهرين من زمن إيجادنا، كُتب في ذلك الدفتر أن أبي كان طبيبًا يسكن بجوار الملجأ في كوخ بسيط وكان يربي دجاجًا ويحضر كل يوم ما يقسمه له الله من البيض لكي يشارك في رعاية هؤلاء الأيتام ويداوي مرضاهم ويلعب معهم، ثم يرحل.

في وقت ما لاحظت المعلمات أنه لم يأتِ منذ عدة أيام فذهبت إحداهن لزيارته، وقد كانت تعلم أن زوجته حاملاً، فوجئت عندما رأته مُلقى على الأرض ورائحة الكوخ شديدة السوء وأنا نائمة بجواره لم أبلغ اليومين، أخذتني وتم الاعتناء بي، انتشلوني من بين أظفار الموت بصعوبة، تبين فيما بعد أن والدتي قد ماتت إثر ولادتي، ومات بعدها أبي كمدًا عليها.

دهسني الألم حينها وأمسى قلبي نازفًا ملكومًا، لم أسألك كيف أحضرت ذلك الدفتر فقد كان الضيق يقبض عليّ ويخنق أنفاسي، وقفتَ أمامي حائرًا تتلفت لا تدري ما تصنع، عكفت تردد:

- ليتني لم أحضره لكِ، ليتني لم أفعل، سامحيني أرجوكِ.. أرجوكِ.

جلست تبكي بجواري، وعندما اقتربت منا "ليل" وقد كانت تصغرني بثلاث سنوات، جلست بقربنا وسألتنا عما يحزننا، لكنك مسحت دموعك وركضت دون أن تنطق بكلمة، لم أدرِ إلى أين ذهبت لكني كنت أعرف أنك لم تكن بخير، اصطحبتُ "ليل" حينها إلى حيث الأرجوحة وفي الطريق تبادلنا الهموم وعلمتُ أنها ابنة عاملة نظافة في الميتم، وقد طلبت أمها من الإدارة أن تحضر "ليل" لتلعب مع الأطفال وتتلقى الدروس معنا حتى تكون تحت ناظريها وتستطيع الاعتناء بها فليس لها من يرعاها، وافقت الإدارة على طلبها وبعد عدة سنوات ماتت والدتها المسكينة، فتبدل حال "ليل" من زائرة لمُقيمة.

عندما وصلنا إلى البيت الصغير وجدناك هناك تجلس مع "رحيم" وتنزع الحشائش من الأرض بغضب. أتعلم يا "بحر" لقد طالت هذه الحشائش كثيرًا منذ أن رحلت، صدقني أنا لا أمزح لقد كنت تقطعها دومًا ولا تقوم لها قائمة طالما أنك تقف على رأسها، ومنذ ذلك الحين أصبحنا نحن الأربعة أصدقاء، ثم أتى اليوم الذي وجدنا فيه طفلاً في الحادية عشر من عمره يبكي حتى احمرت عيناه، كان "نقاء" يكبرنا _ أنا وأنت _ بسنة، تذكر أنه عندما أتى إلى الملجأ كنتُ في العاشرة من عمري؟ كان والده متوفيًا وهو في رعاية عمه، وعندما مات عمه أحضره ابن عمه وتركوه في الملجأ، فأصبح رفيقنا، وبعد عامين فوجئنا بابن عمه الذي أحضره إذا به يأتي ليأخذه معه، بكينا كثيرًا وظننا أننا لن نرى "نقاء" مجددًا، لقد تزوج ابن عمه ذاك وفي كل مرة كانت زوجته توشك على الولادة يموت مولودها، كان يشعر أن ذلك بذنب "نقاء" لأنه رماه في الملجأ وأكل ماله حرامًا، لكن "نقاء" رفض الذهاب معه، وطلب منه أن يعطيه اللوحة الكبيرة التي كان عمه يحتفظ بها في مكتبته العملاقة، وبالفعل أحضرها له ابن عمه ووضعها "نقاء" في مكاننا.

ليست كل البدايات جميلة يا "بحر" ولا النهايات أيضًا، فرحيلك عنا كان أبعد نهاية يُخيل لي أن تحدث، ربما الجمال هو في الأثر والذكريات التي لا تُمحى، لا أظن أن هناك علاقة بين الجمال والبداية أو النهاية، إنه الأثر الذي يحدث عندما تتلاقى أرواحنا، الأثر ولا شيء غيره. "

أغلق الورقة برفق ووضعها جانبًا، وأخذ واحدة أخرى، أمسك بيده الأخرى وكأنه يحتضن نفسه، وهو يقرأ بهمس:

- " إنه يومنا الأول الذي نجلس فيه على الطعام بدونك، لقد تركت مكانك فارغًا على مائدتنا، من ذا الذي سيملأ الأجواء بهجة ويجعل ضحكاتنا تتعالى بعد رحيلك؟ سيظل مكانك شاغرًا في قلوبنا.. قلبي أنا خاصة، وعلى المائدة.

ماذا عنك؟ بمن ستستبدلنا وقد قررت الذهاب؟ هل ستنسانا أم أننا سنتردد كثيرًا على ذكراك؟ لم أكن أتخيل أن يأتي اليوم الذي تنفصل فيه عن كياننا، وكيف تنفك المهجة عن الجسد، أمَا يحتاج كل منهما إلى الآخر ليعيش؟! أخرقت هذه النظرية مُتحديًا العلم وتركتنا نعاني لأجل انتصارك؟

ماذا عنك؟ ألم يوقفك ألم الانفصال، ووخزك فؤادك آمرًا إياك بالعودة؟ ألم تناديك الذكريات؟

ألم تطاردك وجوهنا الدامعة وعيناي الحائرتان من بعد فرارك فأعادتاك؟ أستقوى قلبك على كل ذلك وهجرتنا؟

حسنًا لقد كُتب علينا الفراق وأسلمنا له أمرنا، فمتى العودة؟ اغتربت وتركتنا خلفك وأسلمتنا للانتظار يمزق ما تبقَ فينا من جَلد بدم بارد، كل ذلك الثبات الذي اصطنعه الجميع أمامك تلاشى حين أدرت ظهرك وأنت تخطو بعيدًا، كنت أظنك في رحلة ما وستعود لكن سماع الخبر مزق فؤادي وأنا أتلقاه مُغلقًا بالخيبات، لم يسعني سوى أن أُردد بعتاب لن يصلك صداه: لم تودعني!"

قبض "بحر" يده بقوة حتى غرس أظافرة في راحته متوجعًا، انتقل إلى رسالة ثالثة قبل أن يندمل جرح الثانية، ورائحة قبر "نسيم" تواسيه.. أو تزيد من عذاب روحه، هي برفقته لكنه لا يراها فقط البقايا.. بقايا عزيزٍ غاب لكنه لم يبرح القلب.

نظر للطريق الذي ذهب منه "نقاء" لعله يأتي وينقذه من حطام الحزن الذي انزلق أسفله، استسلم أخيرًا وعاد إلى كنف رسائلها:

- " مرت السنون وأنا أنتظرك على قارعة الطريق، أراقب ظلال المارة وعيناي تُفتشان عنك علَّك تأتي وتروي ظمأ شوقي، كلما يئست يراودني شعور أنك قريب وقد تأتي في تلك اللحظة التي أرحل بها، ألم تكن تُخبرني دومًا أن الأشياء الجميلة تأتي عندما نمل من انتظارها... فأين أنت؟

لقد أشفقت عليَّ الشجرة التي أجلس تحتها وأدلت أوراقها لتُخفي الطريق الذي رحلتَ منه وكأنها أرادت إخباري أن أذهب وألا أنتظر، أو لعلها تُخفيني عن ناظريك حتى أذا أتيت وانعطفت بجوارها وجدتني ما زلت أنتظرك لم أترك مكاني.

أما آن لك أن تعود؟ أما آن لك أن تسقي عودي الذي ذبل وانحنى وهو يراقب الطريق بعينين تتوقان لرؤيتك، أليست إغاثة الملهوف حق علينا، فلِما تأخر غيثُك؟

أم أنك قد اكتسبت من البحر اسمه وصفاته، فأصبح الغارق فيك لا ينوبه منك سوى غرقه، وزيادة عطشه، وحيرته؟! "

شعر بانقباض في فؤاده، فتهاوى تماسكه، وتسربت الدموع إلى مقلتيه، مسح على قبرها قائلاً بألم كاد ينزع قلبه:

- هأنذا يا "نسيم"، فأين أنتِ؟ لقد رحلت وتركت لي كل هذا العَتب، هل أردت أن أعيش ما عِشته؟!

لما لم تراعي الفارق الوحيد؟ كان لديك أمل في أن أعود، أما أنا فأراك مستلقية هنا على ميمنتي ولا يسعني أن أشفي اشتياقي بالنظر إليك، أتعاقبيني بالقرب والبعد معًا؟ معًا يا "نسيم" معًا؟

ليتنا نصبح معًا مرة أخرى.. ليت!

انتقل إلى الورقة التي وضعها أسفل ركبته، قرأها بعينان غائمتان:

- "كلما حاولت نسيانك أجد ذكراك تغمر أركاني، أنا أشعر بالذنب تجاه زوجي "نجم"، كيف لي أن أخلص في حبي له وأنا أستشعرك في كل ما أرى وأفعل؟

الله حكيم عندما حرم علينا الاختلاط بالجنس الآخر في غير ضرورة كان يعلم أن قلوبنا ضعيفة وأننا سنميل لبعضنا رغمًا عنا فهذه فطرتنا.. لماذا لا يطبق الخلق ما أمر به الخالق! أهو استهوان أم تحدي أم استهتار!

ليتنا طبقنا ما أمرنا الله به، لما كنا الآن نُعاني بهذا الشكل المؤلم، فبينما أنا مع رجل آخر لا أستطيع نزعك من داخلي، خاصة منذ أن قرأت رسائلك_ التي خبأتَها في القماشة الخضراء_ وعرفت أنك كنت تحبني أوقدت داخلي نارًا ظننتها خمدت، لما تركت خلفك تلك الرسائل التي رفعت الغطاء عن المستور فأحيت بداخلي شيئًا خلته توقف عن التنفس منذ أمد بعيد، جاء اعترافك متأخرًا حتى أنه لا يسعني أن أسميه اعترافًا فلم أسمعه منك وإنما قد تكاتفت الأحداث لتريني هوية المتواري، ربما لو لم أعرف لكان حالي أفضل مما أنا عليه الآن..

لا أحد يعلم أني أكتب لك سوى "نقاء" أشعر أن ما أفعله خطأ جسيم، لو لم يكن خطأً لما أخفيته عن الجميع حتى عن "ليل" لا أدري لماذا أحتفظ بهذه الرسائل.. لماذا لا أمزقها وتظل سرًا دفينًا؟

ربما لأني أريد أن أعاقبك بمثل ما عاقبتني، يراودني شعور أنك ستأتي.. أجل ستأتي حتى ولو عاندني الجميع وقالوا أنك أدرت ظهرك ولن تتراجع، ستأتي، ولكن عندما تصل إلى هنا سأكون أنا قد رحلت.

أعلم أن ما أقوله ليس يقينًا لكني لا أتمنى أن ألقاك وبجواري زوجي وأولادي، لن يسعني أن أراك أمامي بعد طول غياب وأكتفي بابتسامة! كيف سأفعلها؟ كيف سيسعني أن أعاتبك على كتمانك حبي ورحيلك من دون أن تودعني؟ كيف سأراك وأغتصب كل تلك الكلمات التي خبأتها لك وأختصرها بنظرة أُخفي خلفها عتابي؟

كيف! وليست كل كيفٍ لها جواب. "



- "رحيم" ليس والدي، بل إنه والد زوجي، وأنا أقول له أبي لأني بالفعل أستشعر هذه الكلمة من أعماقي.

- والد زوجكِ، وأين زوجكِ إذًا؟

- سأسرد لكِ كل التفاصيل.

أومأت "لارين" برأسها موافقة على ما قالته، ومقاومة الغرق في بحر الأسئلة الذي علا موجه داخل رأسها، في حين غيرت "دفء" مجرى الحديث فجأة:

- صحيح، قال أبي أنه قابل شابًا كان يبحث عن زوجته في الغابة، وقد اصطحبه إلى دليل لكي يُعينه، وهو يشك أنه زوجك، واليوم أرسلني لكي أعثر على أي شيء يصلنا به، وقد قال لي الدليل أنه سيخبرنا إن أتى له ذلك الشاب مجددًا.

وقعت الكلمات على رأسها كالصاعقة فهاجت دموعها وماجت، لقد كانت قلقة من لحظة مواجهة "هادي" لم تكن تتوقع رد فعله عندما يراها بعد هذا الوقت، كانت تخشى نظرة الصدمة في عينيه، تخاف أنه استسلم وسلَّم بحقيقة غيابها، لكنها الآن مطمئنة تمامًا، بل والشوق إليه يعصرها عصرًا، تجاهلت فكرة أنه قد لا يكون هو

نفسه الشاب الذي تتحدث عنه "دفء" شعور ما همس في أذنها بأنه هو، احتضنتها "دفء" على حين غفلة، وقبلت كتفها قائلة:

- لا تخافي، كل شيء سيكون بخير.

تنهدت بعمق وهي تتحسس كاحلها، ثم قالت وقد سكن داخلها:

- أنا متشوقة لسماعكِ.

نظرت إليها بامتنان، قالت والشوق يغرز أظافره في حلقها:

- مرت سنتان على هذا الحال، حتى أصبحت لا أستطيع مفارقتها كان اسمها "لُطف" وهي اسم على مسمى، فقد انقسم اللُطف الذي خلقه الله تعالى كله إلى قسمين قسم تجسد فيها، والآخر توزع على باقي البشر، ولم يجد غيرها سكنًا فعاد وسكنها.

عضت على شفتها السفلى بأسى:

- أتى اليوم الذي قررت فيه أن آخذها معي للمنزل أخيرًا، كنت ذاهبة لأزف لها البشرى، وأخبرها أننا لن نفترق أبدًا، حينها جاءني هاتف من والدي وقال لي أن شركته أفلست بسبب مناقصة خاسرة وضع بها كل ما يملك، والحكومة ستحجز على القصر وكل شيء إن لم يسلم المبلغ الذي عليه خلال اثنان وسبعون ساعة.

انهرت، وبكيت، احترت أين أذهب ولمن أشتكي فوجدتني أوقف سيارتي أمام باب الملجأ، لأني شعرت أن كل ما أحتاج إليه هو احتضان "لطف" والبكاء بين ذراعيها، لكن عندما دخلت وبحثت عنها لم أجدها، سألت الجميع، ولم يكن هناك من أحد يجيب إجابة شافية:

- لا نعلم، أخذتها المديرة بالأمس.

هرعتُ ركضًا إلى مكتب المديرة وفي داخلي هاجس يرعبني، لكني لم أعترف به، كنت أزجره عني زجرًا، عندما رأتني المديرة أطرقت رأسها في الارض ولم تتحدث، سألتها:

- أين هي؟

أعدت السؤال مرات عديدة وهي تحرك شفتيها بتوتر، في كل مرة كان الشك يأكل فؤادي، بينما سكتت، لم أتمالك نفسي حينها، فصرخت بها:

- أخبريني أين "لُطف"؟ أخبريني بسرعة لم أعد أحتمل.. أرجوك!

قامت المديرة واحتضنتني، وهمست في أذني بحزن سحيق:

- لقد رحلت.

دفعتها عني بقوة، وعلا صوتي:

- رحلت، إلى أين؟ ماذا تعنين برحلت؟

نزلت دموعها، ووضحت لي بنشيج مكتوم:

- لقد ماتت.

اخترقتني الصدمة، وصرخت بها حتى ظننت أن حنجرتي قد تصدعت:

- ماذا تقولين؟ أنتِ تكذبين.. أنتِ كاذبة.. لا يمكن أن تتركني وترحل! تعدون لي مفاجأة أليس كذلك؟ مزاحكم ثقيل بالمناسبة، هيا هيا أحضروها.

أحضروها إليّ الآن، حالاً.

ارتفع صراخي وأنا أُناديها بصوتٍ تقتطعه الدموع، ركضت عبر الردهة الطويلة، عقلي لا يستوعب ما سمعته للتو، كنت جازعة، ساخطة، منهارة، مكسورة:

- تعالي يا "لُطف" تعالي أيتها الشقية، لقد اكتشفتُ ألعوبتك، تختبرين حبي؟ هيا اظهري الآن.. هيا أرجوكِ أنا أحتاجكِ.. لا تتركيني.

لحقت بي المديرة حتى احتضنتني بقوة بين ذراعيها، واصطحبتني إلى غرفة مجاورة وطلبت لي الماء، وأعادت على مسامعي ما قالته مجددًا لتؤكد لي ما حدث، انهرتُ على ركبتاي عندما رأيت دموع المديرة تتزايد، وقد أدارت لي ظهرها وبدأت تبكي وهي تحاول كتم صوتها؛ حارت عيناي، لم أكن في وعيي، أخذت أحطم في المكان، وأرمي الكتب أرضًا، وأنا أصرخ بإنكار:

- تكذبين.. أنتِ تكذبين!

اندفعتُ نحو الباب بعد أن قالت لي أين قاموا بدفنها، كانوا قد دفنوها في مقبرة الملجأ بجوار هذه الغابة، توجهت إلى سيارتي، وما رأيت أمامي بعدها.. لا أذكر أي شيء سوى أني استيقظت ووجدت نفسي في هذا المنزل، وأخبرني أبي "رحيم" أني كنت ملقاه على طريق الغابة وجسدي مشوه بالجراح، ويبدو أن أحدهم وجدني وسرق كل ما أملك من نقود، وأخذ السيارة المُهشمة، ورماني في طرقات الغابة، لكن الله أرسل أبي "رحيم" رحمة لي فقام بإنقاذي، وداوى إصاباتي التي كان منها ما هو سطحي وما هو غائر، كانت الجراح مؤلمة ولكن ليس كألم فراقها، كل هذه الكدمات شُفيت وتلاشت، إلا خدش فقدها مازال ينزف بغزارته الأولى.

لم تستطع "دفء" أن توقف تدفق دموعها التي كانت تنسكب سكبًا رغم محاولتها التماسك، فهناك بعض الجروح التي يمتد ألمها من وقت حدوثها حتى نموت، وكلما تذكرناها تألمنا أكثر ولا نجد طريقًا للخلاص منها مهما فعلنا، بل إننا نعيد سردها على مسامع المُقربين ظانين أن بتكرارها سيبرد الألم، فالتكرار ممل ويجعلنا نعتاد المعاناة، ولكن النقيض هو ما يحدث فمع مرور الأيام تصبح الإعادة هي مواساتنا الوحيدة، ثم تموت معنا وتفيض الروح إلى خالقها حاملة أنينها تسأله المواساة.

ضمت "لارين" حاجبيها في حسرة، كادت تقوم لتحتضنها ولكن "دفء" أشارت بيدها أن اجلسي، أكملت وهي تشهق في محاولة فاشلة لإيقاف دموعها:

- عندما شفيت، كان قد مضى شهر تقريبًا على غيابي عن أهلي، استأذنت منه أن أذهب لرؤيه والداي، وودعته بامتنان وأنا لا أعلم ماذا سأفعل وما مصيري؟ وعند خروجي من المنزل اصطدمت بولده "جاسر" الذي كان عائدًا من السفر_ كان يعمل كيميائيًا_ وقد أصرَّ على اصطحابي إلى بيتي بعدما عرف حكايتي من أبيه، وبالفعل ذهب معي وعندما وصلت منزل أبي لم أجد أحدًا سوى خادم كان يعمل لدينا، فسألته عن والداي فأخبرني أنه قد تم القبض عليه بينما سافرت أمي خارج البلاد من دون أن تنظر وراءها وتبحث عن ابنتها الوحيدة، حملت كل ما غلا ثمنه وخف وزنه ورحلت.

فهمت بعدها أنها هي من أقحمت والدي في هذا المأزق، لكني لم أعرف كيف! ولم أعد أهتم بمعرفة ذلك، لقد بقي كل شيء سرًا، خاصة عندما ذهبتُ بعدها لزيارة والدي فرفض الزيارة ظانًا منه أني تخيلت عنه كما فعلت أمي، هو لا يدرك أني كنت في أزمة حقيقية، ولم يترك لي فرصة لأبرر له، وكأنه لا أحد يعاني في الدنيا غيره. أصرَّ "جاسر" عليّ أن أعود معه، وبالفعل فعلتُ بعد إلحاح، لأنه لم يكن لي مكان آخر كما أني وثقت بهما.

نظرتْ لصورته المعلقة على الجدار باشتياق:

- مرت الأيام طويلة منذ أول يوم اصطدمت فيه بـ "جاسر" رأيت بريق الحب قد شعَّ في عينيه فانعكس على قلبي، لكني لم أكن أعترف بذلك، كان يعاملني بكل لطف ولا يمل من تكرار حديثي الدائم عن "لطف" على مسامعه، يحكي لي الحكايا عن البلاد التي زارها، والتركيبات الكيميائية التي يعمل عليها، وعندما يعود من سفره كان يناديني ويأخذني لجولة في الغابة، ويحكي لي التفاصيل التي حدثت معه، لقد أراني أماكنًا خلابة الجمال.

لكن أبي "رحيم" كان يتضايق عندما نختلي ونذهب سوية إلى الغابة فأخذه يومًا للتجول وقد كان يشعر أن هناك حبًا مُتبادلاً بيننا ولكن كلانا يخشى أن يخبر الآخر خشية أن يخسره، سأله عن مشاعره تجاهي، كان سهلاً عليه أن يُخبر والده بالحقيقة، ولكن عندما سألني أنا.. ترددتُ، ليس من رفض وإنما لأني لا أدري ما رأي "جاسر" وأخشى أن تنفضح مشاعري أمامه بينما هو لا يبادلني الشعور نفسه، فربما كان ما أُحسه وهمًا، حينها طمأنني أبي "رحيم" وقد فهم خوفي، فقال أن جاسرًا ينوي الزواج مني ولكنه ينتظر موافقتي، ازداد خجلي حينها وتصاعدت الدماء إلى رأسي، وتسارعت خفقات قلبي حتى ظننتُ أن أبي يسمعها، فوضعت يدي عليه أن اسكت أيها الشقي ستفضحنا، رأيت ابتسامته وهو يعيد سؤاله، فتقبلته بالصمت وأنا أغتصب ابتسامة لم أفلح في إخفائها، فقام من مكانه قائلاً:

- إذًا على بركة الله.

ضحكت "لارين" بفرح جلي لكنها سرعان ما تساءلت في نفسها عنه فهي لم تره، لم تنتظر طويلاً حتى سقت "دفء" تساؤلها وهي تصل أطراف كلامها:

- "جاسر" كان يعاني من السيولة الدموية، فكان إذا خدش خدشًا طفيفًا تسيل منه الكثير من الدماء، خاصةً الجروح العميقة التي قد تؤدي لفقدانه الوعي أحيانًا إن لم يكن بجواره أحد يساعده على تضميد جرحه، وفي إحدى المرات كان يجمع بعض الأعشاب، لكن على حين غفلة سقط وتدحرج على الأرض، وانغرس في ساقه غصن متين، كان الجرح عميقًا جدًا حتى أنه لم يقوَ على المشي فحاول الزحف وساقه تنزف حتى وصل إلى مكان قريب من هنا، عندما لاحظنا غيابه وقلقنا عليه نزلنا للبحث عنه، وجدناه حينها مدرجًا بدمائه بجوار شجرة الأقحوان تلك، ووجهه معفر وساعداه مليئان بالجروح.

نظرت "لارين" للشجرة التي أشارت إليها "دفء" والدموع تنساب على نمطها المعتاد:

- لم نستطع إنقاذه، مات وتركني هو الآخر؛ كل من تعلقت بوجودهم رحلوا، كل من استأنستُ بجوارهم تركوا أماكنهم خاوية تملؤها الذكريات، الكثير والكثير من الذكريات، آهٍ لو نعلم أن تلك الذكريات الحلوة ستؤلمنا في الأيام القادمة لما اخترنا أن نعيشها أبدًا.. أبدًا.

❋❋❋❋❋❋❋

اقتربا من المقبرة فانحسر نبض "رحيم" كان كلما زار القبور ضاق صدره وتخلله خوف غريب لا يعلم له سببًا وهو الذي لا يهاب إلا خالقه، لا يدري ما الذي يخشاه، ربما هي الذكرى الكئيبة لأبويه، عندما تركاه عند القبر وهو رضيع ليلاقي وجه القَدر الأقسى.. الموت!

من يدري ماذا رأى أثناء مكوثه هناك، وكم من الوقت مضى عليه وهو جائع لا يد تُمد إليه بدفء أو طعام؟

لقد قاسى منذ لحظاته الأولى، كيف مرَّ عليه الليل بجوار أجسادٍ ميتة؟

هل أشفق عليه طير أو حيوان ورقد بجواره يؤنسه ويواسي وحشته؟

إن الرجال الغِلاظ الشداد لا يحتملون أن يبيتوا ليلة واحدة بجوار قبر، فكيف استطاع هو أن يحتمل؟

كان لا يذكر شيئًا عن تلك الآونة لكن حواسه لم تنسَ، وتركت له رهابه كدليل على سوء ما عاشه وقتها.

طالما تساءل لماذا تركه أبواه حتى يولد ثم رموه عند القبور؟ ألكي يحررا نفسيهما من الإثم ولا يقتلا النفس التي حرم الله؟ ومن قال لهما أن تركه عند قبرٍ حياة.. بل من قال لهما أن عُمرًا من دون أبوين يُطاق؟

أم أنهما أرادا أن يريحا ضميرهما على حساب حياة إنسان، حياة كاملة، وأي إنسان.. إنه ابنهما!

كونه لم يكن وحيدًا وأنه بين أصدقاء يشبههم ويشبهونه كان يواسيه ويؤلمه في آن، فكان كلما جاء طفل آخر إلى الملجأ شعر بوغزة في قلبه يعقبها أيام من الحُزن، طفل

آخر التقمه الميتم بعد أن زفره رحِم والدته، لقد جاء الرحِم من الرحمة فكيف يُلقي بالوليد إلى كفوف الدنيا القاسية دون أن يمر على يد أمه الحانية ليُدرك الفارق ويستوعب الأحداث! كيف ترمي برضيع عاش في بطن أمه الواسع يأتيه طعامه وشرابه وحنانها متى أراد إلى هذه الأرض الضيقة الظالم أهلها؟

كان لـ "رحيم" نصيبٌ من اسمه، يتألم لألم القادمين الجُدد، ويعاني من حسرة الماكثين، وحيرة الراحلين، وكأن أحزان قلبه لا تكفيه.

وعندما ماتت مديرته التي وجدته وأكرمت مثواه واتخذته ولدًا، اكتشف في جنازتها رهابه من القبور الذي لم يكن يعلم عنه شيئًا، فلم يذهب إلى القبور بعدها أبدًا سوى مرتين لأنه كان مجبرًا، المرة الأولى عندما ماتت زوجته "زمن" ثم "نسيم" وكان أول الراحلين عن الجنازتين وأكثرهم حزنًا، ذهب يُكمل بكاءه بجوار الأمواج كما هي عادته، يرثي جميع أحزانه ومخاوفه في مكانٍ واحد ثم يؤمل نفسه بلقاء جديد يجمعه بأحبائه في الجنة، فتأتي النسمات الهادئة وتروح وتجئ على وجهه حتى تُجفف دمعه، فيستشعر لُطف الله يربت على قلبه ويعود أدراجه.

أمسك بيد "نقاء" وجبينه يفيض عرقًا، وقد شعر بالدوار:

- لا أريد الدخول إلى هناك.

ضم "نقاء" كف خليله يبشره:

- "بحر" هناك عند قبر "نسيم"، لقد أردت أن نجتمع نحن الخمسة مرة أخرى ولو لمرة واحدة، سأتركك مع "بحر" وأذهب لإحضار "ليل"، أرجوك تغلب على مخاوفك هذه المرة لأجلنا.

أومأ برأسه إيماءة مترددة وهو يقاوم ألم معدته، ورجفة أوصاله، نزلت دمعة شوق من عينه حالما رآه من بعيد وقد تقوس ظهره، كان جالسًا وبجواره أوراق مُبعثرة عليها أحجار صغيرة لتثبتها في مكانها كي لا تُطيرها الريح كما طير الزمان عمره، لم يستطع أن يحافظ على سنواته بجوار رفاقه فليحافظ على أوراقه إذًا!

شعر بوخزة قوية في منتصف قلبه أجبرته على الركوع من شدة الألم، تعلق بذراع "نقاء" بقوة لكي لا يسقط، نظر إلى تجاعيد يده وعلى وجهه ابتسامة ساخرة.. هو لا يخشى الموتى لكنه لا يدرى من أين ينقض عليه ذلك الخوف اللعين، سار بخطوات متوترة و"نقاء" يُسنده ويتمتم:

- اقتربنا، اقتربنا..

عاد الضيق يزاحم الشوق في صدرة، ولبرهة لم يشعر بساقيه ثم سقط مغشيًا عليه...



بدأت بحفر الحفرة التي وضعت بها الكتاب، لم تبحث كثيرًا كما ظنت أنها ستفعل، فالأشياء التي نهتم بوضع علامات لتذكرنا بمكانها نعود لها بسهولة دون الاستعانة بتلك العلامات، بينما هناك أشياء أخرى نتعهدها بذهننا واثقين أننا لن ننساها، وبالفعل نجدها لكن في طي النسيان.

أخرجت الكتاب وبدأت تقرأ بحماس حيث توقفت آخر مرة:

- " كانت فتاة متحررة، وجريئة بشكل يوترني وأنا الذي نشأ في بيتٍ محافظ. تحمل مزيجًا متناقضًا من كل شيء، الهدوء والعنفوان، البكاء الصامت والضحك بصوت مرتفع، العمق والعفوية، السكون والفوضى.. وكأنها خُلقت ليجتمع فيها الضدان من كل معنى.

بعد انتهاء الجنازة مباشرة أمسكتْ بيدي فشعرت بقلبي يرتجف، انسحبنا من بين الحشود وسقط الوشاح عن رأسها فالتقطتُه ولففته حول عنقي وهي تجرني وراءها وتسرع في خطواتها، اتسعت خطواتها أكثر فأكثر حتى تحول مشينا ركضًا، كنت أجري وراءها لا أعلم إلى أين لكني أنقاد خلفها دون أي تفكير، وكأني مجبر على ذلك، استمهلتها عدة مرات لنتوقف لكنها لم تجبني في أيٍ منها، حتى ضاقت ذرعًا من إلحاحي، والتفتت وقالت بدموعها وأنفاسها المتقطعة:

- ارحل إذا تعبت، أنت لست مضطرًا للحاق بي.

أمسكت ذراعها بشدة وسحبتها نحوي، وقلت بحزم:

- لن أترككِ بعد الآن، لقد كنتُ متعبًا حتى وضعكِ القدر في طريقي.

- لكنه وقت خاطئ.

- لكنكِ الشخص الصحيح.

- كيف حكمت بذلك؟ أنا الآن في أسوأ حالاتي.

- الحكم في هذا الوقت هو الأصدق، أشعر أني أريد مشاركتكِ هذا الحزن وحمله معكِ، ليس حمله معكِ، بل أريد أن أحمله كله عنكِ.

- العلاقات خُلقت لنريح بعضنا، لا ليكون أحدنا عبئًا على الآخر.

- إن المحب الصادق سيرى راحته في سعادة شريكه، لن يفرق بين همومهما، سيكون هدفه الوحيد أن يرى حبيبه طيب الخاطر هانئ البال.

- لكن لكل منا طاقته، وقد يثقل عليك الحمل.

- إظهار الامتنان والحب يجعلان من الجبال الثقال رمالاً صغيرة تتطاير بنفخة.

استعانت بالسكوت تتخفى بخجلها خلفه، لأول مرة كنت أنظر لعينيها لمدة مطولة هكذا، شعرت بالدفء وظننت أن هذا الوقت هو الأنسب لقول ما يشغلني، فقلت بعد تفكير قصير وبلا أي مقدمات:

- أرغب في الزواج منكِ، لأن ما يبدأ بشكل لا يُرضي الله، سينتهي نهاية لن تُرضينا، وأنا أريد صونكِ.

احمرت وجنتاها من أثر الحياء أكثر من سبب البكاء، قالت بعد لحظة تفكير عقلاني:

- لكنكَ لا تعرفني ولا أعرفك، وقد لا نكون مناسبيّن لبعضنا**!**

- سأتزوجكِ وسأعرفكِ وتعرفيني بشكل أعمق، أما الآن يكفيني أن روحي سكنتكِ.

- ربما نندم على تسرعنا في هذا القرار فيما بعد.

- صدقيني يا "روح" الباب عندما يُغلق علينا سيتغير كل ما نعرفه عن بعضنا بعد وقت قصير، ستشعرين بالتشتت والقلق وأنا كذلك.. فلما لا نعرف بعضنا منذ البداية على حقيقتنا في بيت واحد؟

-...

- بإمكانكِ أن تعدي لي حالات الحب المليئة بالشغف والعنفوان، وتخبريني كيف انتهى بهم الحال للطلاق؟

- لكن هذا ليس مبررًا لكي أتزوج شخصًا لا أعرفه!

- أنا لا أعطيكِ تبريرًا، أحاول إخباركِ فقط أن سنين المعرفة قبل الزواج لا تفعل شيئًا غير أنها تقلل فرص استمتاعنا ونحن نكتشف بعضنا بحنان وحب وتلامس، بلا خوف، بلا توتر..

- إن فكر الجميع مثلك سينخدعون كثيرًا لأن البدايات براقة ولامعة.

- لا أقول ارمي نفسكِ في أحضان المجهول، بل يجب أن تسألي عني في مكان عملي وبيتي، كل شيء يظهر في فترة الخطبة لكننا نتعامى لكي نجعل "المركب يسير"

رفعت رأسها للسماء متفكرة:

- وما الذي يضمن لي بقاءك؟

- وما الذي يضمن لكِ بقاءكِ أنتِ في الدنيا للساعة القادمة، بل للثانية التالية؟! أنا لستُ هنا لأبقى، أنا عابر يريد أن يُحسن المرور ويترك أثرًا جميلاً في حياتكِ، والمدة التي سنكون فيها معًا الله وحده يعلم عدتها.

نظرت إليّ بإعجاب وتفكر، وكأنها تطبع ملامحي على ذاكرتها:

- ماذا إن خذلتكَ ولم أكن مثلما تأملت؟

- تكونين درسًا قاده الله لي لكي يُربيني، لكن أتعلمين؟ ليت كل الدروس بهذا الجمال.

خرجت منها ضحكة عفوية لمعت لها عيناي، قالت وقد تبدلت ابتسامتها لتساؤل:

- ماذا إن تخاصمنا؟

- أنتِ وصية رسول الله، وأنا أحفظ العهد وأصون الوصايا. "

❋❋❋❋❋❋❋

جلسوا جميعًا حول "رحيم" وهو مُمدد على فراشه في نصف دائرة، مسحت "دفء" على كتفه برفق، وقالت والدمع يتدفق من عينيها:

- بعد موت زوجته "زمن" لم يدخل مقبرة أبدًا، لكن القدر لوى ذراعه وأجبره أن يدخلها عند موت "نسيم"، ولما حان دور "جاسر" كنتُ قد وجدته أولاً كما أخبرتكم لم أدرِ كيف سأخبره وكيف سأواسيه وأنا عاجزة عن مواساة نفسي، ويشاء الله أنه كان ورائي ورأى ما رأيتُ فانهار وكأنه كان يُخزن كل الحزن خلف ثباته لسنوات حتى انفجر، عندما توفى "جاسر" كانت القاسمة بالنسبة إليه، فأفرج عن ألمه وصرخاته المدفونة، كان لايزال هناك جزء منه يأبى إلا أن يظل متماسكًا، أراد أن يكون أول من يموت من أحبائه فوجد نفسه يزور قبورهم جميعًا الواحد تلو الآخر ويقف عند رؤوسهم يزرف الدمع، أصر حينها أن يدفنه في المكان الذي وجدناه فيه.

قالت جملتها الأخيرة وهي تُشير إلى حيث شجرة الأقحوان:

- كلما جاء موعد الصلاة قصد قبره وسقاه بماء وضوؤه ودمعه، عكف على هذه العادة حتى أَلِفها وألفته، ثم بنى هذا المكان الصغير أسفل بيت الشجرة؛ لكي لا يتكاسل عن آداء الصلاة وسُقيا ولده.

تنهد "بحر" قائلاً بصوت حان غارق في الحزن:

- الموت حق يا ابنتي فلا تيأسي من رَوح الله، سيصبح "رحيم" بخير لا تقلقي.

كتم الصمت أفواههم وسطا على المكان، لكن "بحر" سرعان ما تحرر منه، وقال مُمازحًا:

- لقد أعطاني "رحيم" لقاء لم يسبق للبشرية أن عرفته، فعندما استدرت ورأيته ضحكتُ من فرحتي، فسقط مغشيًا عليه! لو أنني ملك الموت أتيت لأقبض روحه ما فعل فعلته تلك، لا أظن هذا اللقاء سيتكرر على أحد من العالمين.

نبتت ابتسامة "دفء" مع سيل دموعها وهي تنظر إلى الطريق بطرف عين، كررت نظراتها السريعة المرتبكة فلاحظ "نقاء" ذلك وسألها وعلى وجهه شوائب ابتسامة:

- هل تنتظرين أحدًا؟

أجابته بعينان حائرتان:

- "لارين"

أتت من بعيد وفي يدها زهرة بيضاء صغيرة تختبئ حياء بين أصابعها، كانت "لارين" تسير بهدوء ولا تكاد تترك أثرًا على الأرض وكأن الهموم التي تحملها من نوع آخر يُحكم قبضته على عنقها ويرفعها لأعلى، يراها الرائي هائمة مستكينة ولا يدري كم كلفها هذا الهدوء، صافحت جذوع الأشجار وكأنها تواسيها على فقد أوراقها الذي سيحل عليها قريبًا، كانت مصافحة حزينة تحمل بين طياتها عزاءً لاذعًا: أنتم السابقون ونحن اللاحقون.. لكن إلى متى؟!

تعلق سؤالها في الهواء بلا جواب عندما لاحظت ثلاثة أزواج من العيون مُثبتة عليها، فتشت من بينهم على هاتان العينان الحانيتان اللتان طمأناها عند وصولها الأول لهذا البيت، كانا نورًا لها في ظلماتها فأين اختفيا؟ تساءلت بعد انقباض فؤادها:

- أين العم رحيم؟

وقفت أمامهم وأومأت برأسها تحييهم، استرعى انتباهها الرجل الذي يُمسك بحقيبة جلدية قديمة على ظهره وهو يغلق باب الحجرة الصغيرة خلفه وكأنه أراد أن يخفي شيئًا عن ناظريها، قالت "دفء" قاطعة حديث الأعين الذي استمر لحظات وهي تشير إلى المُسنان:

- هذان صديقا طفولة أبي "رحيم"، هذا "العم نقاء" وهو اسم على مُسمى.

أومأ "نقاء" برأسه يشكرها بتواضع على مدحها، استطردت:

- إنه يسكن قريبًا منا، وهو الصديق الأقرب لأبي، ستحبينه هو وزوجته "ليل" لديهما قصة حُب ستتلذذين وأنتِ تستمعين إليها.

ضحك "نقاء" بخجل:

- لا أحد يتقن سرد الحكايا كـ "ليل"، فما بالكِ إن سمعتي منها حكايتها.

التقطت "لارين" كلماته بين ذراعي ضحكة هادئة، سمعت صوت "هادي" ينادي باسمها، هزت راسها يمينًا ويسارًا:

- ما هذا هل أتخيل؟!

صمتت لوهلة وتمعنت لتسمع صوته ينادي ثانية ولكنه أبعد قليلاً، اتسعت حدقتا عيناها، وصاحت بفرح:

- هادي؟

تفاجأت "دفء":

- زوجكِ؟

أمسكت كتفيها بلهفة، وقالت:

- أسمعت هذا؟

أغمضت "دفء" عيناها، وقالت مشدوهة والجميع يهزون رؤوسهم مؤيدين:

- أجل لقد سمعت.

ركضت "لارين" تتبع الصوت، لحقتها "دفء" وهي تستمهلها:

- انتظريني سآتي معك.

❈❈❈❈❈❈❈

ليس حُلمًا.

- "أشعر أنني سأموت يا "بحر" ألن أراكَ قبل تبرح الروح جسدي؟ لقد غادرت من دون أن تودعني فهل ستتركني أرحل عن الدنيا دون أن أودعك؟ قلبي منقبض منذ الأمس، هناك شعور عميق بداخلي يخبرني أن أجلي قد حان.

أخاف على "ليل" يكفيها ما تجرعته من الكرب على فقدان ابنتها، أعلم أن فؤادها سينفطر إن وصلها نبأ وفاتي، أتمنى أن أكون على خطأ، لكنه شعور قوي يجتاحني..

أنت تعلم أنه عندما كانت الدنيا تضيق بي كنت أركض إليك فقد كان لديك حلول لكل المشاكل، ترى الأمور بأبسط مما هي عليه فتطمئني، أجد راحتي في الحديث معك والاستماع إليك.

أما الآن وقد ابتعدت فليس أمامي سوى أن أكتب إليك.

لقد غبت طويلاً يا "بحر" غبت طويلاً.

أتعلم.. ظننتُ أنك لم تكن تحبني، فقد ودعت الجميع وأهديتهم شيئًا من ذكراك عداي.

كنتُ أكتب لك الرسائل أُعاتبك في بعضها وأوبخك في بعضها الآخر، ثم أشتاق وأعود فأقنط على فعلك وأمزق الرسالة، أو أحرقها وأتابع النيران وهي تلتهمها ودموعي تنساب في صمت.

دائمًا ما كنت أؤمن بقوة الشعور وأنه نادرًا ما يخطئ، وأنا كنت أشعر أنك تحبني لكني لم أكن متأكدة، وعندما رحلت بغتة أجاب رحيلك عن كل تساؤلاتي، أدركت حينها أنك لم تكن تحبني بل كنت تشفق عليّ وتهتم لأمري من باب الإحسان جعلني هذا أنسى أو أتناسى وجودك فتزوجت هربًا من ذكراك، حتى أتى ذلك اليوم.. اليوم الذي توفت فيه "عِطر" الصغيرة، كان حادثًا أليمًا لا أريد تذكره، كانت حالة "ليل" يُرثي لها، أما "نقاء" فممزق بين زوجته التي أصبحت طريحة

الفراش في المشفى وابنته التي لا يجد لها جسدًا يدفنه في التراب، لا شيء سوى ذراعها.

لم أستطع أن أتحمل ما أراه أو أسمعه فركضت إلى مقرنا، وأزحت اللوحة الكبيرة التي أحضرها "نقاء" وتأملت الرسمة التي رسمناها معًا أنا وأنت ثم جلست أسفلها وبكيت حتى ظننت أن قلبي يرتجف في مكانه، تكورت على نفسي وأنا أحاول أن أوقف الرجفة التي احتلت جسدي، وشفتاي ترتعشان بنسق سريع، رأيت القماشة الخضراء التي تدلى طرفها من أسفل الأريكة، لم أستطع الوقوف فقد كنت أشعر بالدوار، زحفت إليها وفتحتها فوجدت بداخلها لعبة الفيل الصغير التي أصلحتها لك "ليل" بجيب بنطالها، أدركت حينها أن هذه الأشياء تخصك، وبدأت أتفحصها فنزحت الهموم إلى فؤادي، وشعرت باعتصاره وكأن الذكريات تلوت حوله، أعلم أنه لم يكن العبث فيها لائقًا بي لكن فضولي كان أقوى ففتحتها، قُذفت كل الذكريات على رأسي وأنا أقرأ كلماتك، وكم كنتَ تحبني! علقت في ذهني رسالة لن أنساها ما حييت أظنها كانت رسالتك الأخيرة، كنتَ قد كتبت:

- " اليوم سأسافر يا "نسيم" كنت أتمنى أن أودعكِ ولكني لن أحتمل أن أراك تبكين وأغرب، لقد كنت أنا مواساتكِ دومًا فكيف لي الآن أن أكون سبب تعاستك؟ أحبك ولن أخبرك، لن أعلقك بي على وعـ....."

جفف "بحر" دموعه التي بللت لحيته، وقال وهو يمسح على قبر "جاسر":

- أخشى الوعود يا رفيقتي، لم أكن أريد أن أعدك بعودتي وأنا لا أضمن هل سألقاكِ أم لا، لم أكن لأعلقك ثم تجدين نفسك محاطة بالخيبة

أرأيت لم نلتقِ فكيف كان مآلنا لو وعدتك!

ازدادت دموعه وهو القوي المتين المتماسك في كل موقف أليم، اقترب "نقاء" منه وربت على كتفه وهو يجلس على ركبتيه:

- هذه الرسالة وجدناها على سريرها بعدما توفت.

دفن "بحر" رأسه في حضن صديقه لبضع ثوان، ثم استقام وأخبره بصوت خافت مبحوح:

- ليتني لم أعد إلى هنا، ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا.. بل ليتني لم أرحل من الأساس! الفَقد يقهر الرجال.

اشتما رائحة شيء يحترق، قفزت عيناهما لمصدر الدخان الخفيف الذي تسلل لأنفيهما، صاح "بحر" وهو يهرع إليه:

- "رحيم"

أسرعا إلى الغرفة الصغيرة، وفتحا الباب بقوة وهما يتدافعان بتوتر، وجداه واقفًا وعيناه ذاهلتان من دخولهما المفاجئ، توقف عن التقليب في الصحن مشدوهًا، سأله:

- ماذا يحدث، شممنا رائحة شيء يحترق؟

تأرجحت عيناه بينهما ومد يده بالوعاء ولازال الذهول على وجهه، قال:

- كنت أحرق قطعة خبز صغيرة وأضع عليها العسل، لأغسل أسناني.

ارتخت أعصابه، وهمَّ يحتضنه، أغمض "رحيم" عيناه وتسللت دموعه فسقط الصحن من يده وانكسر لكن أحدًا لم يهتم، تساءل وهو يقبض على ظهره بكفين مرتعشين:

- أليس حُلمًا؟!

تبادل مع "نقاء" الضحكات، وقال يمازحه:

- لك الحق ألا تتذكر، لقد رأيتني ثم سقطت مغشيًا عليك.

قبض الأخير ذراعيه على جذعه:

- لقد قلقت عليك.

- لا.. لا قلق بعد اليوم، لقد أتيتَ، لا قلق.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

أمسك سيخ الشواء وانهال على ظهرها ضربًا، حاولت أن تقاومه وتدفعه عنها فازداد جبروته وركلها في ساقها، اختل توازنها وانكبت على وجهها، ظلَّ يضربها بحذائه وهي تبكي أسفله وتصرخ، لم تستطع مقاومته فاستسلمت، انحنى ورفعها

من ذراعيها ثم رماها على الأريكة، وانقض عليها يرجها رجًا وهو ينفجر بها صارخًا ورذاذ لعابه يتطاير على وجهها:

- أعطِني النقود هيا.

حركت رأسها بتثاقل رافضة، فقام وأمسك السيخ مجددًا وبدأ يضربها في كل جسدها، تكورت على نفسها وأحاطت رأسها بذراعيها، تارة تصرخ وتارة تئن، بينما كان ضعفها وقلة حيلتها يزيدانه شراسة.

فُتح باب المنزل نظر فإذا بها ابنته "ماريانا" لم تستطع الفتاة استيعاب ما ترى، كان وجه والدتها لا يكاد يظهر من الدماء التي عليه، وعلامات الضرب مُنشرة بكل الأجزاء العارية من جسدها، ركضت إليها تهزها والهلع يتملكها:

- أمي.. أجيبي أرجوك هل أنت بخير؟

أمي!

احتقنت عيناها بالدموع ووقفت تصرخ به، وتدفعه عنها:

- يكفي هذا، يكفي، كيف تغيرت هكذا؟ أكرهك، أكرهك من كل قلبي.

قالت جملتها الأخيرة فلطم خدها بقسوة أسالت الدماء من فمها، ثم أزاحها ليكمل ضرب والدتها، تعلقت بذراعه وحاولت منعه لكنه لكمها بقبضته في صدرها فسقطت على حافة الطاولة وانسكبت الدماء من وجهها سكبًا، صرخت والدتها وبكت بحرقة بينما صُعق لما استوعب فعلته، اتصل بالإسعاف وفرَّ هاربًا...

❋❋❋❋❋❋❋

توقف بعد ركض طويل وحاول استرداد أنفاسه وهو يجول بنظراته القلقة بين الأشجار في حيرة.. وما أدراك ما الحيرة حين تسكن القلب إنه أسوأ شعور يخبرك أنك عاجز، وغير قادر حتى على الحفاظ على أقرب المقربين إليك.

تنهد ووضع يده في جيبه، وأغمض عينيه آملاً أن تكون هي نفسها التي أخبره الدليل عن مكانها، سمع بكاءً ليس ببعيد عنه فتعقب الصوت، وكلما اقترب كان يتأكد أنه صوتها، همس بخفوت لمرافقه:

- إنه صوتها.

وقف خلف شجرة فرأي شابتان من ظهرهما إحداهما تحتضن الأخرى، وتطمئنها قائلة:

- ربما كان يُهيأ لنا، لو كان هنا فسيعود أو نجده!

وقعت تلك الكلمات على مسامعه وقع الرعد، فصاح بأعلى صوته:

- "لارين!"

تسمرت في صدمة، ونظرت لـ "دفء" بترقب:

- سمعتِ هذا؟

التفتت "دفء" فرأته يقترب، وكزتها فاستدارت، وحالما وقعت عيناها عليه تبادلت معها ومعه نظرات صامتة، سألتها وهي تشير إليه بيد مرتعشة:

- أترين ما أرى؟

كادت تقوم من مجلسها لكنه خرَّ أمامها على ركبتيه واحتضنها وما استطاع أن يمسك دموعه، وهو يقبض على جسدها الضئيل بقوة وكأنه يخشى أن يكون حلمًا أو وهمًا فأراد أن يتمسك به ولا يتركه، لم تدرك "لارين" ما يحدث، وهل ما يحدث حديث اختلقه عقلها أم أنه "هادي" بالفعل؟ لم تُصدر أي انفعال آخر، ظلت صامتة مُستأنسة بين ذراعيه فهي تجد راحتها لديه حتى ولو كان خيالاً مما أقلقه فأطال النظر لعينيها وأمسك كتفيها قائلاً بحنان يلفه الشوق:

- وجدتكِ يا "لارين" وجدتكِ.

نظرت إليه تتخبط في مخاوفها:

- وجدتني؟ أليس هذا حلمًا وسيرحل طيفكَ حالما أستيقظ، ألستَ وهمًا نسجه خيالي لمواساتي؟ ألن تتبخر كالعادة حالما أغمض عيناي وأنا أعانقكَ؟ هذه المرة لن أغلقهما لذا لن ترحل.. أليس كذلك؟ أنا لن أغمض عيناي وأنتَ لن تذهب، ستظل هنا بجانبي دائمًا، ابقَ قريبًا أرجوكَ ولا ترحل، فلتكن هنا بجواري، لا يكفي وجودك في قلبي.. لا يكفي!

احتضنها وعيناه تغرقان بالدمع، وهمس في أذنها:

- لا ليس حلمًا.. ليس حلمًا.. لقد عثرت عليكِ وسنعود لمنزلنا.

مدَّت ذراعها لـ"دفء" وقالت بنبرة آمرة:

- اقرصيني هيا.

علا صوته ضاحكًا، وقال ممازحًا:

- سأقرصك أنا.

قالت تطمئنها بصوت عالق بين الحزن والفرح:

- أنتِ لا تحلمين.

انتصبت واقفة ودفنت نفسها بين ذراعيه، وهي تمتم بصوت تحتضنه العَبرات:

- ظننتُ أني لن أراكَ مجددًا، لا تبتعد عني مرة أخرى، ابقَ قريبًا دائمًا ولا تترك للبعد ثغرة.

- أنتِ من رحلتِ أيتها الشقية.. كيف حدث هذا؟

قال جملته الأخيرة وهمَّ يمسح دموعها بطرف كمه مُستكملاً بنفس النبرة الساخرة:

- لا أخفيكِ سرًا لقد ارتحتُ قليلاً من شجاراتنا ورائحة مشروب النعناع في كل صباح.

ضربته في صدره مُعاتبة فضحك منها وضمها إلى قلبه إلى حيث تنتمي، قد يغيب المرء عن موطنه ولكنه يعود إليه مهما طال البعد، همس بخفوت:

- لا أراني الله الفقد فيكِ، ولا أبعد خُطاكِ عن أثر قدماي، ولا فرق بين نبضي وقلبكِ.

وقفت "دفء" تراقبهما لا تدري ماذا تفعل أو ماذا تقول، قالت بعد تردد:

- هيا نعود للمنزل وتكملان كلامكما هناك فقد أوشك الظلام أن يخيم على المكان.

ثم نظرت لـ "قريب" تشكره، وقالت أن أباها سيمر عليه في آخر النهار، فاستأذن منهم وعاد أدراجه، تساءل "هادي" مندهشًا بعد أن أعطاه النقود التي في جيبه، فغمرت السعادة الرجل ودعى لهما كثيرًا:

- أي منزل؟

أجابته "لارين" بحماس:

- منزل "العم رحيم" الذي ساعدني، آه صحيح نسيت أن أعرفكَ هذه "دفء" زوجة ابنه لقد أحسنا معاملتي، يجب أن أُعرفك على هذا الرجل الطيب.

حرك "هادي" رأسه يحييها، وقال بامتنان:

- لقد اسديتما لي معروفًا لن أستطيع إيفاءه مهما فعلت، شكرًا لأنكما اعتنيتما بأغلى ما أملك، أشكرك جزيلاً أيتها النبيلة.

حيته بسرور محاولة إخفاء الحسرة التي تملكتها واعتصرت فؤادها قائلة:

- هيا إذًا اتبعاني، سأسير أمامكما.

أضافت "لارين" بنفس حماسها:

- في الحقيقة أنت تعرفه، لقد قالت لي "دفء" أنه قابلكَ هنا.

ضيق بين حاجبيه:

- لقد أخبرني "قريب" بذلك، لكني يومها صادفت رجلين فلا أدري أيًا منهما يكون، لكني ممتن له.

كانت تمشي بجواره كفتاة صغيرة، تقفز تارة عندما تقابلها حجارة في طريقها، وتؤرجح يديها وهي تنظر إليه وهو يتحدث، بينما "دفء" تسير أمامهما وعيناها تنزفان دمعًا، مسحتهما وانقباضة في القلب لا تبرحه حين أدركت أن صديقتها التي ظنت أنها ستشاطرها الهم سترحل، فقد أتى من هو أحق بها وبصحبتها لأخذها، وكأنه كُتب عليها الفقد لكل من تحب، ابتسمت بضيق لاذع عندما نظرت للخلف فرأت طيف "جاسر" في "هادي" عاودت النظر أمامها مرة أخرى فوجدت نفسها في المكان الذي عثرت فيه على "جاسر" عندما كان مدرجًا بدمائه بقرب شجرة الأقحوان.

أغمضت عيناها فانهالت دموعها بغزارة، وقالت محدثة نفسها:

- لماذا كلما أردنا أن ننسى وجدنا كل شيء في الكون يُقاتل لجعلنا نتذكر.. لماذا؟

تفاجأ "هادي" عندما رأى العجوزان معًا، وقال بسرور وهو يوجه استفهامه لـ "بحر":

- هذا أنت؟

قال وهو يشير لـ" لارين":

- أرى أنك وجدت ضالتك؟

أجابه "هادي" باسمًا:

- إذًا حان دورك لتحقق حلمك وتشتري فيلاً.

أرخى ذراعيه على كتفي صديقيه:

- الحلم الحقيقي تحقق، لقد اجتمعت بعائلتي.

أشار إليهم "رحيم" كي يتبعوه للداخل، وقال موجهًا كلامه لـ "هادي":

- الطيبون للطيبات بالفعل، عندما طلبت مني "لارين" العون تذكرتك فورًا، حمدًا لله الذي جمع بينكما.

تقدمه "هادي" بخطوة ثم وقف أمامه وقبَّل رأسه مردفًا:

- لا أدري كيف أشكرك!

تفاجأ "رحيم" من صنيعه لكنه سرعان ما تبسم:

- أنا من عليّ شكرك لأنك أعدتني للحظات تمنيت لو أمضيت عمري كاملاً وأنا أكررها.

دلفوا إلى الغرفة الدافئة، تصنعت "دفء" ابتسامة:

- سأعد لكم الشاي.

لمحت "لارين" ترقرق الدموع في عينيها فتبادلت النظرات مع "هادي" الذي أشار لها برأسه أن تذهب خلفها لمواساتها؛ فلحقت بها وهي تحرك يديها بتوتر، لم تدرِ ماذا تقول لكنها سترتجل كالعادة فالكلام الصادق هو ما يخرج من القلب بغير ترتيب أو تفكير مسبق.

استأذن "نقاء" و"بحر" من على الباب بينما وقف "رحيم" وقد تذكر شيئًا ما فخرج وراءهما وقال أنه يريد أن يُهدي "هادي" شيئًا ثمينًا بالنسبة له، ظلَّ الأخير جالسًا بمفرده مع قليل من الحرج وتتردد في أذنه كلمات "رحيم" التي قالها قبل أن يغلق الباب خلفه:

- "إنها فتاة نقية، اعتني بها"

بدأ يدور بعينيه في المكان بعناية فوقعتا على ورقة مثنية عدة ثنيات بجانب قدمه، تفحص جيوبه بعد أن التقطها فقد شك أنها سقطت منه، فتحها بحرص، بدأ يقرأ بلا مبالاة ولكن اهتمامه ازداد تدريجيًا:

- "كان هناك شاعر يسمى "عبد الله بن العجلان" وقد عَشِق امرأه في زمانه تسمي "هند" وبادلته هي أيضًا الحب، فخطبها أبوه له، وكان سيد قبيلة فتم الزواج بسهولة، مكثت "هند" عنده سبع سنوات وكانت لا تلد، فقال له أبوه:

- إنه لا ولد لي غيرك، وأنتَ لا ولد لك من هذه المرأة العقيم التي لا تلد، فطلِّقها وتزوج غيرها تُنجب لكَ البنين والبنات، فرفض "عبد الله" رفضًا قاطعًا مما جعل أباه يغضب ويعزم ألا يكلمه، فقد اختار الولد خصام أبيه على طلاقها!

ثم إن "عبد الله" شرب الخمر يومًا فسكِر فلما علم أبوه بالأمر أرسل في طلبه فجاءه وسادة القوم عنده فما زال يؤنبه ويوبخه، والرجال يعينون الوالد على ولده حتى طلق "هندًا" وانتشر الخبر كانتشار النار في القش، فلما سمعت به "هند" وتأكدت من صدقه لحقت بأهلها، ولما استفاق "عبد الله" من سكرته وعلم ما صنع حاول أن يرجع زوجته ولكن والدها رفض ذلك، وما لبث أن زوجها رجلاً غيره.

وذات يوم مرَّ "عبد الله بن عجلان" بزوج "هند"، فاشتم فيه رائحتها فعلم أنه قد عانقها للتو، فخرَّ ميتًا من غيرته عليها.. "

انقبض فؤاد "هادي" وتساءل في نفسه: لما يفعل والده هذا؟ أكل ذلك لكي لا يضيع ماله من بعده ها قد خسر ماله وولده، يكفي المرء أن يظفر بمن يحب، إن كل الصعاب تهون إن كان بجوارك من يُحبك بصدق، شخص تثق أنه لن يتركك تذبل ما حييت، ولن يترك قبرك يجف ما حيا.

رفع "هادي" رأسه فوجد "رحيم" واقفًا أمامه بابتسامته التي لا تنضب، ارتبك، وتمتم معتذرًا:

- أنا آسف، لقد وجدتها ملقاة على الارض وظننت أنها لي، لكن ما إن بدأت في قراءتها حتى غلبني فضولي لإكمالها.

اقترب منه ومسح على كتفه ثم جلس قبالته، وسأل:

- هل فرغت من قراءتها؟

أطرق رأسه في الأرض على استحياءً، فزاد سؤالاً على سؤاله:

- ماذا لاحظت فيها؟

انكمشت المساحة بين حاجبيه دلالة على الضيق، أجاب في استياء ولا يزال موجهًا نظره للأسفل:

- أنانية مفرطة، لا معنى يمكن أن يصف ما قرأت إلا هذه الكلمة.

قام "رحيم" وتوجه إلى النافذة وأزاح القماشة المنسدلة عليها، ضيق عينيه قائلاً بصوت جاد:

- هذا ما يُسمونه بـ "التأطير الفكري" لقد تم تأطير فكرك ومشاعرك لتصبها في نطاق معين: الشفقة على حال "عبد الله" وزوجته، والحقد على والده. هذا ما فكرتَ به، وسيأتي ببال كل من يسمع أو يقرأ القصة ذاتها، لكن لنتوقف قليلاً وننظر للجانب الخفي في القصة، "عبد الله بن العجلان" مات لأنه اشتم رائحة زوجته في رجلٍ غيره، صحيح؟!

حرك رأسه مؤيدًا، فاستطرد "رحيم":

- حسناً إذًا.. إذا كان قد مات في نفس اللحظة التي اشتم فيها رائحة زوجته في رجل غيره، فمن نقل لنا حكايته وجزم أن هذا هو سبب موته؟

ألم تتساءل عن هذا؟

نظر اليه بدهشة:

- صحيح!

ابتسم "رحيم" متابعًا:

- بعض الأشخاص والحكايا تهدف إلى جعلك تفكر في الجزء الذي يريدون إيصاله لك وهذا عبر اللعب على أوتار مشاعرك فتتأثر دون أن تفكر في الموقف بسبب أن العاطفة قد غلبتك، ومن هذا فأنت تفكر في هذا الشعور ولا شيء دونه.

لأعطيك مثالاً آخر: الأم عندما تخير ولدها بين أن ينام في الساعة السابعة أو التاسعة، برأيك ماذا سيختار؟

قال ببداهة:

- بالطبع سيختار التاسعة.

- نعم لأنه يظن أنه حقق نصرًا هائلاً، ساعتان كاملتان إضافيتان! بالرغم من أن الأم في الواقع تريده أن ينام في التاسعة، ولكن لا يأتي ببال الصغير أن يقول: لا سأنام العاشرة مثلاً، لأنه يرى أنه فاز بوقت كبير، وهذا ما يسمونه التأطير الفكري، أي اختزال أفكارك ومشاعرك في إطار معين بين خيارات محدودة.

طفت ابتسامة على وجه "رحيم"، وقال واصلاً أطراف حديثه:

- يُقال أنها قصة حقيقية، وهذا شاعر من العصر الجاهلي، ولكن للأسف أغلب الناس يتماشون مع القصة ويتأثرون بها، إلى أن يأتي أحد ويلفت نظرهم كما حدث معك تمامًا. يا بني لا تصدق كل ما تقرأ فإن صدقت كنت كالذي يؤمن أن الساحر يستطيع بالفعل أن يُخرج أرنبًا من قبعته، أنت لا تصدق كل ما تراه وأنت من تراه، فكيف إذًا ستصدق كل ما تقرأ وغيرك رآه ووصفه لك؟ بل وربما كان من نسج خياله، كن أذكى من أن يتلاعب بك كاتب أو حكاء.

هزّ رأسه انقيادًا لكلماته، صمت لوهلة ثم أعطاه دفترًا عتيقًا غلافه باهت:

- "لارين" رقيقة القلب والطبع كما أنها تحبك، خذ هذا الدفتر إنه ملئ بالحكايا والقصص احكِ لزوجتك منه قبل أن تنام، عاملها كطفلة صغيرة فالقصص تأسر قلوب النساء.

ثم قال موضحًا:

- به ذكرياتي كلها، منذ فترة قريبة قررتُ أن أنقل ما في دفتري القديم لهذا الذي بين يديكَ، وما إن انتهيت من كتابته لم أستطع أن أتخلص من القديم

لأنه لا يحمل حبرًا فقط وإنما مشاعري الحقيقية مختبئة هناك بين سطوره، فتركت هذا وأنا لا أدري لماذا، وعندما قابلتُ "لارين" عرفتُ السبب لابد أن لله حكمة في هذا، خذه يا ولدي وابقَ على العهد.

ابتسم "هادي" ممتنًا رغم غرابة الموقف، خرجت "لارين" ووجهها ضاحك ويدها في يد "دفء" أشار إلى زوجته، ففهمت ما يرمي إليه وأمسكت كفيّ "دفء" بقوة، وقالت تعدها:

- سآتي دومًا، لقد أصبحنا صديقتين كما أني أشعر بالانتماء لهذا المنزل الدافئ.

حبست "دفء" دموعها وأمالت رأسها موافقة في حيرة، لقد أحست الآن بـ "لُطف" فقد كانت الصغيرة تخشي ألم الذكريات السعيدة والتعلق براحل، هل ستذهب "لارين" وتنشغل عنها فتنساها، أم ستفي بوعدها وتأتي، طمأنتها "لارين" وكأنها شعرت بما يجول في فؤادها:

- صدقيني لن أتركك.

ودعتها بحرارة وخرجتا فانحت "لارين" وقبلت رأسه بحنان:

- سآتي إليك كثيرًا أيها الطيب، لن أنسى المعروف الذي أسديته لي.

لم تستطع حبس دموعها، مسح على رأسها، وقال ممازحًا:

- بالطبع لقد أصبحتما جزء من عائلتي الصغيرة الآن وليس أمامكما خيار آخر، ولا يوجد معروف بين أفراد العائلة، ماذا كانوا يسمونه؟ آه واجب.

قال "هادي" وهو يمسك بذراعها وقد تذكر شيئًا:

- أبلغ سلامي لصاحب الفيل.

❈❈❈❈❈❈❈

وقف يراقبها من النافذة في ردهة المشفى، كانت مُستلقية على السرير فاقدة الوعي ويدها ترتعش من وقت لآخر، ألقى نظرة سريعة على والدتها التي تبكي في صمت سحيق، لازال مشدوهًا مما حدث، كان قد أوصل "ماريانا" إلى المنزل وعندما سار بضع خطوات بعد أن تركها سمع صراخًا ثم خرج راكضًا من المنزل رجل طويل القامة قوي البنية، ملابسه ملطخة بالدماء، كاد يوقعه عندما اصطدم به.. حينها عاد

بسرعة إلى بيتها ليجدها مدرجة بالدماء، انقبض قلبه، وحملها وأوقف سيارة أجرة متجهًا للمشفى، جلس طوال الطريق يراقب والدتها التي كانت تتأوه وتكتم آهاتها وهي تمسح على رأس ابنتها والندم يعتصرها، لم ينبس بأي كلمة، ظلَّ يقلب النظرات بينهما في حيرة كما يفعل الآن، بالكاد تأكد أنه والدها من الشبه الذي بينهما.

كانت رائحة الممر تعبق بالمعقمات والأدوية، مثل هذه الروائح تصيبه بالدوار والغثيان لكنه تحامل، جلس بجوار والدتها ومسح على ظهرها فتألمت، اعتذر منها بعد تردد، صمت هنية ثم سألها:

- هل لي أن أعرف ما الذي حدث!

نظرت لعيناه بحيرة وتيه مطولاً والدموع تنساب منها بغزارة، فأشفق على حالها، عندما استشعرت شفقته أشاحت بوجهها بعيدًا، ومسحت دموعها بعنف ثم قالت بثقة:

- إنه حادث، لا تقلق يا بُني، وشكرًا لك على المساعدة.

كانت تلك المرة الأولى التي تتحدث فيها منذ أن رآها، صوتها ضعيف مبحوح وكسير لكنه حاني، نظر إلى الجروح الطازجة على يديها وخدها ممتدة إلى رقبتها، لاحظت نظراته مما جعلها تتوتر، بادرته بحزم:

- أشكرك على مساندتك لنا، لا تتعب نفسك سأتصرف في الباقي، بإمكانك أن تذهب.

كان يتوقع كلماتها، فبادرها بنفس الحزم الذي حدثته به:

- "ماريانا" تهمني بقدر ما تهمك.

لاحظ استفهامها، فقال موضحًا:

- أنا "غيث" زميلها في العمل.

أومأت برأسها بتسليم، وقامت تتمشى في الردهة ذهابًا وإيابًا وهي تفرك يدها وتثبت نظراتها على ابنتها، كانت نظراته توترها حاولت إخفاء الجروح قدر استطاعتها لكن بلا جدوى، حتى باغتها بما لم ترغب به مُطلقًا:

- ما سبب هذه العلامات على جسدكِ؟

أجابته بصرامة دون النظر إليه:

- إنه أمر لا يخصك، ولا يحق لك السؤال عنه.

تمتم مُعتذرًا بصوت خافت:

- أردتُ فقط أن أساعدكِ إن...

قاطعته بحزم:

- يكفي ما قدمته شكرًا لك، بإمكانك الرحيل الآن فبقاؤك لن يفيد، أعطني رقم هاتفك وسأتصل بك حالما تستيقظ، وأطمئنك عن حالها.

انقاد لها وأخرج مفكرة وقلمًا من الجيب الداخلي لسترته، ودوَّن الرقم وأعطاها الورقة، ثم انصرف من دون أي كلمة، رأت ظله يبتعد حتى دار مع الممر فقبضت على الورقة بقوة ورمتها في الحاوية التي بجوارها، وانهارت على الكرسي تراقب ابنتها، وتركت العنان لدموعها تشق أخاديدًا على وجنتيها.

❈❈❈❈❈❈❈

كانت الغرفة هادئة بها ضوء خافت يتسلل من الشموع، هبَّت نسمة هواء عليها فأطفأتها، دخل "هادي" إلى الغرفة وأشعل الضوء الصغير بجوار السرير فوجدها مُتكورة في غطائها، اقترب منها، وهمس:

- هل نمتِ؟

فتحت عيناها برفق تجيبه:

- لا.

ابتسم وجلس بجوارها ووضع الدفتر بجواره، قال مُتحمسًا وهو يمد ذراعه لتتوسده:

- لقد أهداني "السيد رحيم" هذا الدفتر وأوصاني أن أقرأ لكِ كل يوم قصة منه، وقد قررتُ أن نختارها سوية.. ما رأيكِ؟!

طار النوم من عينيها، وسألته بلهفة وهي تجلس بجواره:

- حقًا؟

بدأ يُقلب الصفحات، كان خطه جميلاً وواسعًا يأخذ براحًا على الأسطر، شدَّ انتباههما ظروف مُلصقة بين الأوراق بدت وكأنها ممتلئة بالملاحظات أو شيء من هذا القبيل، انتابهما الفضول لفتحها لكن "لارين" خلعت جذوره قائلة:

- دعنا لا نستبق الأحداث، ولنفتحها في أوانها.

وافقها الرأي وبدأ يقرأ بخفوت:

- " إنها الذكرى الثامنة والعشرين لزواجنا يا غاليتي، والذكرى الخامسة على وفاتك.

أشعر بدفء يغمرني رغم رذاذ الغيث الذي يُغطي النافذة، وكأن طيفك هنا حولي يحتضن قلبي المُنهك من كثرة الركض في دروب الحياة حتى جف حلقه، فجئتِ تروين ظمأه وترحلين، كما الأمطار في الخارج تروي كل العطشى وترحل بسَكينة حالما يهدأ الأنين لكن أنين روحي لكِ لا يخفت، لذا سأكتب لك وأشاركك ذكريات كانت بيننا مضى بها الزمن لكنها لازالت بداخلي تتنفس، كل شيء ينتهي إلا ما ينتمي إليك، لأنه يستوطنني أو أستوطنه.

تذكرين برج الحمام؟

افتحي الظرف في الصفحة المُقابلة وستجدين صورًا لك مُرتبة.. تذكرين الصورة؟

كنا حينها نتنزه برج الحمام ومعنا صديقي "نجم" اصطحبته معي وقتذاك ليُعلمني التصوير كي ألتقط لكِ الكثير من الصور، الصورة الأولى هي أول صورة التقطها في حياتي لم أكن محترفًا كما زعمت لكني من فرط جمالها اغتررت بنفسي ونسبت جمالها لحرفيتي وفاتني حينها أنه لولا وجودك فيها لما كانت فاتنة بهذا الشكل.

أتعلمين يا "زمن" لم أفتقد ابتسامتكِ، فأنا أضع صورتكِ بجوار سريري وفي جيب سترتي وقبل ذلك وذاك في قلبي.. تضحكين!

أتعلمين أن ما أفتقده بالفعل هو خوفك الذي يجعلك تركضين إليَّ وتختبئين بين ذراعيَّ وكأنه لا أمان لك إلا فيهما، أفتقد ضربات قلبك السريعة وأنت تهرعين إليَّ ثم الخافتة وأنت تخرجين من حضني.

الصورة الثانية هي أقربهم لقلبي، كنت تقفين وأنت ترتدين معطفي الصوفي وكنتُ قد وضعت لك في جيبه العلوي زهرة بيضاء انحنت واختبأت خلف يديك اللتان ضممتِهما إلى قلبك خجلاً من جمالك، كانت خصلات شعرك القصير تتطاير فرحًا

لأن نسمات الهواء تتغزل بها، حينها أشرتُ لـ "جاسر" أن يضع بعض فتات الخبز على رأسك، وعندما لمحت حمامة تقترب منك، قلتُ بحماس:

- قفي مكانكِ...

والتقطت الصورة والحمامة تقف على أقدس مكان خُلق على ظهر الأرض.

تشتكين طول مغازلتي لك بين الأسطر؟

وكيف لا أفعل إن كانت السطور نفسها تتألق في أبهى صورها حالما تُكتب حروف اسمك عليها، والقلم حتى القلم ينساب في يدي متبخترًا لأنه سيكتب عنك، والهواء يُدفئ يدي كي لا تكف عن الكتابة لك.

أتعفين عنهم وترفعين الصفح عني وأنا أكثرهم شوقًا لرؤياك، واستئناسًا بحديثك؟!

أتذكر حينما أرخت الحمامة جناحها على وجهك، حينها قفزت في فزع وركضت نحوي تُخبئين رأسك قبالة قلبي، وأتذكر أيضًا تلك الابتسامة التي رست على وجهك الحاني حينما أدخلت الحمامة رأسها في كف يدي لتقتات على الفتات، وحينها أردتِ أن تجربي وأنت تمسحين على ظهرها بحنان وعيناك تلمعان.

الصورة القادمة كانت بعد مرور خمس سنوات على زواجنا، تحديدًا في يوم الأربعاء.

كان ولازال يوم الأربعاء هو يومنا المُفضل، كنا نجلس في المساء على ضوء القمر وكل منا يكتب رسالة إلى الآخر، لازلت أحتفظ بكل هذه الرسائل وأقرأها كلما ضاق صدري فأجده يتسع في رحاب ذكراك.

أنظري في الصورة كيف كنتِ تركضين وتُلوحين في الهواء بذراعيك وتبتسمين ملئ ثغرك والحمام يتطاير حولك ويسكن على رؤوس البيوت ثم يعود حالما تهدأين وتسكنين فيستقر على كتفيك ويتعلق بمعطفك كوطن ثار وضجَّ فاغترب عنه أبناؤه لكنهم لم يجدو في غيره الراحة فعادوا ليسكنوا إليه، طالما أزعجت الحمام أيتها الشقية لكن مع ذلك كان يجد أمانه في حماك ودفئك.

تتذكرين عمود الإنارة الذي خلفكِ في الصورة؟ كنا نأتي إليه كل أربعاء ونرمي حوله الفتات فيطير الحمام نحونا في سربه ويلتف وتلامس أجنحته وجهينا ويخفينا عن عيون المارة وأنا أسرق قبلة من جبينك، حمدًا لله أني حفظتك يا غاليتي وتزوجتك، ما كنت لأرضى أن أسرق من مقدساتك وأنتهك حرمتك كما يفعل شباب

اليوم مع الفتيات تحت مسمي الحب، من يحب بحق يصون ويحفظ، وقد حفظك الله لي لأننا اعتصمنا عن الحرام فعشت بجوارك أسعد أيام حياتي.

آآآه بالطبع تذكرين ذلك المقعد في الصورة بجوار عمود الإنارة، كان مأوانا، كم مرة بكيت في أرض الله الواسعة وكنت تستعيدين ضحكتك هناك؟ وكم مرة أخذتني من يدي سحبًا إلى هناك في الليالي الباردة وأجلستني بجوارك ثم استسلمت عيناك للسماء وبكيت وتضرعت إلى الله ثم اختبأتِ على يمين فؤادي وكأني ركنك الهادئ الأمين؟

مرت بعدها سنوات طوال ونحن نذهب إلى برج الحمام دون التقاط الصور، والله لو أعلم أن رحيلك سيكون قبل رحيلي بكل هذه السنوات لبقيت ألتقط لك الصور في حركاتك وسكناتك حتى تؤنسني في وحشتي التي لا يُذهبها عني إلا شيء من ريحك.

هاتِ الصورة التي بعدها هيا..

أراك تبتسمين؟!

أتراك ابتسمتِ لأنك تذكرت أم لأنك رغم مرور السنون لم تنسي؟ والثانية أقرب لقلبي.

كان "جاسر" قد التقطها لك، بالرغم من أنه كان يلهو حينها إلا أنه التقطها باحترافية، موهوب كوالده!

كنا في الليالي الشتوية الباردة وكنت ترتدين معطفًا رماديًا فضفاضًا وتجلسين على المقعد وفي الخلفية برج الحمام، وتضعين قبعة سوداء من الفرو على رأسك وكانت تقف عليها حمامة سوداء ذات طوق كستنائي حول رقبتها، كنتِ ساكنة كهدوء الليل وهو يحمل بداخله أنين المشتاقين يتهامسون ويودعون النجوم أسرارهم وحكاياتهم، ترتدين قفازين أبيضين خلعت واحدًا وأبقيت على الآخر، وقفت على يمناك حمامة بيضاء ظهرها مرقط بالأسود وعلى يسراك واحدة بُنية.

كان الحزن جليًا على وجهك إثر وفاة والدتكِ، لقد كنت ترتدين معطفها وتلتمسين فيه دفئها وحنانها، حينها كنتُ أقف وراءك عاجزًا عيناي تائهتان وفارغتان، أنا أتحمل كل كسور العالم لأن ضمة منك تجبرني، فكيف إن كُسرت روحك؟

لا تبكِ يا "زمن" فيكفي الكون غرقه في الدموع من يوم رحيلك، بالتأكيد التقيت بوالدتك والأحباب، لكني أوقن أنك تشتاقين لقلبي العجوز، لم يُنسِك جمال الجنة وصحبة الملائكة ذكرياتنا.. أليس كذلك؟

مُتيقن بإجابتك يا غاليتي، وأن الله لن يترك موج الشوق يغرقني فهو الرحيم، اقترب اللقاء.

هيييه يا غاليتي، أما عن هذه فهي الصورة الأخيرة في العام نفسه الذي طبعت فيه قبلة الرحيل على جبيني، كان الشيب قد استباح رأسك واستحله مسكنًا يؤويه معلنًا النذير على اقتراب الرحيل، انكمشت ملامحك وتباطأت أنفاسك ووهن عظمك، إنها الدلائل التي لا نلتفت لها متغافلين أو متناسين حتى تأتينا صفعة الموت، وما أشد وقوعها على قلبي.

كنت حينها تمسكين بسكوتة تشبهك في رقتها، وتفتتيها في راحة يدك وتمديها للحمامة التي على كتفك وتضعين بقية البسكوتة في فمك

التقطت هذه الصورة على حين غفلة منك فالتقطك الموت في نفس السنة على حين غفلة مني!



- "نور"

سمعت نداءه فأطلت بابتسامتها من باب المطبخ مُرحبة:

- أتيت؟ سأضع لك العشاء حالاً.

- لا ليس الآن أريد أن أتحدث معك قليلاً.

توترت من امتعاضة وجهه، جففت يداها وجلست بجواره تربت على كتفه:

- ما الأمر يا "نادر" عساه خيرًا؟

التفت إليها، وقال بعد صمت قصير وهو ينظر لعينيها:

- أعلم أن كلامي سيكون قاسيًا عليكِ لكن أرجوك سامحيني وتفهمي.

تلفت يمينًا ويسارًا، ثم سألها:

- هل "ماريانا" هنا؟

حركت رأسها نافية وعيناها زائغتان تترقب كلماته بقلق، هناك شعور سيء اجتاحها، كلما باغتها ذلك الشعور كانت النتائج وخيمة، نظرت إليه برجاء تحثه على القول، فاستجاب:

- أعلم أن ما سأقوله ضرب من الجنون لكنه حقيقة، أنا أريد أن أتزوج لقد مرضتِ كثيرًا وأكل البهاق جسدكِ وأنا أريد أن أعيش حياتي، وهذا حقي.. أليس كذلك؟

ازدردت ألمها وأومأت برأسها، فاستكمل جلدها بكلماته:

- أريد كل النقود التي ندخرها.

صُعقت، وصاحت رافضة:

- وابنتنا، من أين سأكفيها معيشتها؟ إنه حقها لقد اتفقنا أن ندخر هذه النقود لها، لكي لا تشقى بعد موتنا.

أمسك بيدها مُقاطعًا:

- أعلم، أعلم ذلك جيدًا ولكني بحاجة إليها الآن أريد أن أتزوج والفتاة التي سأتزوجها شابة وثرية، سأغير حياتنا صدقيني، لقد تعبت حتى أستطيع الوصول إليها.

زجرته بعيدًا عنها، وصرخت بوجهه:

- يا لوقاحتك، كيف تجرؤ وتخبرني بهذا، مرضي لا يُبيح لكَ التحدث معي هكذا.

قامت من جواره بغيظ، ثم استكملت:

- لكن ثانية!! هل تعبت حتى وصلت إليها؟ تعني أنك كنت ترغب بالزواج منذ وقت طويل وتتحملني لأنك لا تجد لي بديلة، وحينما وجدتها قررتَ أن تتركني!!

- كلانا نعلم...

قاطعته بحدة:

- نعلم ماذا.. ها، نعلم ماذا؟! اذهب وتزوج لكني لن أُضيع حق ابنتي أبدًا، لن أسمح لك بظلمها.

- لكني سآخذها.

قال جملته بنبرة تهديد واضحة، فردت عليه بشراسة:

- لن أسمح لك.

نظر إليها مُستهزئًا، وتوجه صوب الغرفة فوقفت أمامه ودفعته، فلطمها، أمسكت بياقته إثر الصفعة وصرخت به:

- إنها ابنتك، تلك التي حاربتَ لكي تأتي إلى الدنيا، أتتركها بيد عارية تواجه الحياة؟ أين كلماتك الناعمة أمامها؟ إنها ابنتك.. ابنتك!

- لقد كبرت وتستطيع الاعتماد على نفسها.

- لا.. لا تستطيع، يجب أن نترك لها ما تستند عليه.

زفر بضيق وضربها في صدرها بقوة ليبعدها عن طريقه:

- قلتُ سآخذ النقود.

- لن تفعل، لا لن تفعل، لن أسمح بذلك.

تجاهلها ودخل إلى الغرفة، وبحث عن مفتاح الخزنة فلم يجده، خرج إليها وقال بحنق:

- أعطِني المفتاح.

- لا.

استشاط غضبًا، ونظر حوله فوجد أسياخ الشواء أخذ واحدًا ولوح به مهددًا، فصرخت بوجهه:

- لن تُخيفني أيها النذل الأناني.

أغضبته كلماتها فانهال على جسدها ضربًا."

تتذكر جيدًا ما حدث وكيف كانت القسوة تنبض من عينيه، سارت بأناملها برفق على العلامات الممتدة على يديها، وكلما داهمها خاطر يلتمس له عذرًا ضغطت على جراحها بقوة لتتذكر نفسها بالألم الذي جعلها تعانيه كي لا تترك لنفسها فرصة لمسامحته أبدًا، انسكبت الدموع من عينيها فيضًا حتى ارتعشت أصابعها وتفلتت منها تنهدات متتالية.

فتحت "ماريانا" عيناها برفق فرأت الدموع وقد بللت وجهها، مدت كفها ووضعت رأس والدتها على صدرها ومسحت عليه، وهي تتمتم بخفوت:

- لا تقلقي يا أمي أنا بخير، كل هذا سيزول ويمضي.

استسلمت في حضنها لدقائق تلتمس فيه دفئًا وأمنًا كانت قد فقدتهما منذ أمد بعيد، دلف إلى الغرفة بخطوات ثابتة وبين يديه باقة زهور، اعتدلت والدتها ورحبت به وخرجت على مضض، جلس على الكرسي ومرَّت لحظات من الصمت، قرر أن يبترها قائلاً:

- خفتُ عليكِ كثيرًا.

ركزت في عينيه فرأت بريقًا كانت تراه في عيني والدها وهو ينظر لوالدتها، أما الآن تبدل ذلك البريق لقسوة مقيتة، لقد أدركت أن الحب كما الإنسان يحيا كلما توافرت الظروف المناسبة لحياته، ويموت عندما تنقطع سُبل العيش بين الطرفين، لكن كيف يتحول الشغف واللهفة إلى قسوة وأنانية؟ هل ينسى القلب دقات اللهفة الأولى؟ هل ينسى كيف كان يتوق شوقًا لرؤية محبوبه!

ينسى.. ينسى عندما لا يوجد ما يُذكره، فكما أن العلم طيرٌ والكتابة قيده، فالحب طيرٌ والرفق حاميه، والذكرى أسواره، واللمسة الحانية رصيده.

قال وهو يُشير إلى قلبه:

- أعلم أننا تعارفنا بالأمس فقط، ولكن هناك شيئًا غريبًا يحصل هنا، كلما نظرت إليك.

رفعت عيناها الحزينتان، وقالت بخفوت:

- هذه طبيعة البدايات.

- ماذا تعنين؟

- لا شيء يظل على حاله، كل شيء يتغير حتى دقات قلبك ستتغير.

- لكن أنت مختلفة.

- ومن ينجذب لشيء يشبهه؟ كلنا نبحث عن الأشياء والأشخاص الذين يكملوننا، المختلفين تمامًا عنا، لكن كثرة الالتصاق بهم تجعلنا نتأثر ونؤثر فيهم فنشبههم ويشبهوننا، ثم نفر منهم ونبتعد عنهم، ويقل انبهارنا بهم، ويخفت صوت قلبنا ناحيتهم.

كل شيء ينتهي ويختفي، حتى نحن سيأتي اليوم الذي نموت فيه وننتهي.

نظر إليها ضاحكًا:

- ما هذا التفاؤل الكبير!

بادلته ضحكة خافتة:

- ماذا تنتظر من امرأة طريحة الفراش بسبب ضرب والدها لها؟

- أنتظر فرصة.

❄❄❄❄❄❄❄

كانت تجلس على الكرسي تحت شجرة اللارينج، استيقظت على ألم شديد في بطنها وشعور بالغثيان يراودها كثيرًا في الآونة الأخيرة، رفعت كأس النعناع المغلي المُحلى بالعسل وتنفست منه فتخدرت أوصالها، كان النسيم عليلاً باردًا، تذكرت آخر ما قرأته في الكتاب الغريب قبل أن ترحل، تكرر ذلك المشهد في تفكيرها فغاصت فيه بخيالها:

- " رفضت أمي فكرة زواجي من فتاة لا تعرفها، وازداد رفضها عندما علمت كيف تقابلنا، وأن هذه الفتاة لم تدرس إلا سنوات قليلة بالمدرسة بينما أنا كيميائي، لم تدرك أمي أني أحببت هذه البنت، لقد عارضتني كما عارضها أبوها عندها أخبرته أنها ستتزوج من رجل نشأ في دار للأيتام وتربى وهو لا يعلم معنى الأسرة، عارض والدها هذا النكاح بشدة وهي دافعت عنه بكل ما أوتيت من قوة حتى تزوجت أبي وعاشا في هناء.

عندما قلت لها ذلك وأنه لا أحد يستطيع الحكم على الموقف مثلي لأني من أحببتها، ولا يمكن لأمي أن ترفضها وهي لم ترَ منها خيرًا ولا شرًا استشاطت غضبًا، لم تتحدث معي لأيام وأنا أحاول فيهن تليين فؤادها لكنها كانت تزداد عنادًا.

لم أخبر "روح" بأي شيء مما يحدث، فهي طلبت مني أن أنتظر حتى تنقضي أربعين أمها، في هذه الأثناء كنت أرى منها لطفًا تعجبت من أنه يصدر عن إنسان في هذا العمق من الحزن، فكيف إذًا بوّدها عندما تكون سعيدة!

كان موقف أبي حياديًا كما هو على الدوام، فهو لا يريد أن يغضب أمي ولا أن يقف في طريق سعادتي، وأنا ما كنت لأفعل شيئًا من غير رضى والدتي وأيضًا لن أتخلى عن حبي، لذلك كان عليّ أن أخوض حربًا ضروسًا، لكن قبل أن أتجهز لها اختفت "روح".

ذهبتُ لزيارتها فوجدتُ الدار تبكِ على رحيلها، تشتكي الهجر، وقد أظلم داخلها"

- دعيني أُقبل السطوح!

قال جملته السابقة ضاحكًا، ثم طبع قبلة دافئة على جبينها، توردت وجنتاها، ثم ما لبثت أن زاحمها الشوق، فقالت:

- اشتقتُ لأبي كثيرًا.

دخل شاب أسمر طويل لم تره من قبل من باب الحديقة، وتقدم ناحيتهما والابتسامة تفترش وجهه، ألقى عليه التحية ثم وجه كلامه لها:

- لم يكن له حديث غيرك عندما كنت غائبة، حمدًا لله على سلامتك.

نظرت إليه مستفهمة وعلى وجهها ابتسامة بلهاء، فقال "هادي" وهو يعرفها به:

- إنه "غيث" زميلي في العمل ورفيقي.

ألقت عليه تحية عابرة، فجذبه "هادي" من ذراعه، وقال وهو يعيد تقبيل جبينها:

- اعتنِ بنفسك جيدًا يا حبيبتي، لن أتأخر.

وقفت تنظر إليهما وهما يبتعدان، تأبط "غيث" ذراعه:

- أخبرني كيف عثرت عليها؟

ضحك وهو يرميه بنظرة فاحصة:

- بل أنت من ستخبرني أين ذهبت مع "ماريانا"؟

تنهد بأسى:

- أنا حائر.

لم يسأله، انتظر أن يتابع كلامه، وقد كان:

- أشعر ناحيتها بانجذاب غريب، لا أدري إن كان عشقًا أم مجرد فضول، إنها توترني.

- الفتاة التي انتظرتها سنوات لازالت تراود خاطرك؟

هزَّ رأسه نافيًا:

- لقد تأقلمت مع فكرة اختفائها، لن أضحي بشيء في سبيل أحد لا يهتم بأمري، هي حتى لم تكن تعرف أني أحبها، والعمر قصير يا صاح.

ازدرد ريقة، وقال بنبرة تمازج فيها المزاح مع الأسى:

- دعنا نغير مجرى الحديث، ماذا عنك؟

توقف مكانه بجوار السياج، وقال بحماس:

- أنا أحتاج مساعدتَك.

صدمته حماسته، بدا وكأنه لم يركز في كلامه، تجاهل ذلك الشعور المقيت، وقال مشجعًا:

- بالطبع، أنا معك.

- كانت "لارين" تتمنى أن تركب منطادًا، وخيلًا، وقاربًا، وأن تُخيم في الصحراء، وأن تعيش في منزل فوق الجبال، وترى الفراشات الزرقاء؛ أريد أن أرتب لرحلة طويلة تجمع هذه الأشياء، ولكني لا أريدها أن تعلم بذلك. فهل يمكنني أن آتي للمبيت عندك لأسبوع فقط حتى أستطيع التنقل على راحتي؟

هزَّ رأسه موافقًا وهو يضرب على كتفه بحماس:

- بالتأكيد، لكن ماذا ستقول لها؟

- سأخبرها أني مسافر لأشتري أدوات للغوص.

انتظر قبل أن يجيبه وكأنه يقلب الفكرة في رأسه:

- برأيك هل سينطلي هذا عليها؟

❄❄❄❄❄❄❄

خرجت بسرعة فسار وراءها وقال يستمهلها:

- دعيني أوصلك؟

- لا شكرًا، أنا على عجلة من أمري.

لاحظ أن يدها مثبتة على مكان الجرح، فأوقفها بحركة مباغتة حالما رأى الدماء:

- جرحك ينزف!

ثم جذبها وراءه ودخلا إلى الغرفة، تعجب "هادي" من عودتهما، فقال "غيث":

- ناولني صندوق الإسعافات الأولية رجاء.

انقاد لطلبه وهو يسألها:

- هل أنت بخير؟

أشاحت بوجهها متذمرة:

- أنا بخير، إنه مجرد جرح.

نظر إليها معاتبًا:

- لقد أخبرتك ألا تأتي اليوم ومع ذلك جئت، ولم تكتفِ بذلك بل ونزلت إلى الماء!

تأوهت وهو يضغط على الجرح ويلفه، ثم قالت بنبرة مختنقة:

- إنه عملي.

تجاهلها مما أثار ضيقها، وقفت حالما انتهى وشكرته بكلمات باردة، قال بنبرة آمرة:

- لقد حل الظلام سأوصلك، أو سيري وحدك هيا لكني سأكون خلفك.

ضحك "هادي" على رد فعلها الغاضبة، فقد حملت حقيبتها ومشت بخطوات تكاد أن تحرق الرمال أسفلها قائلة:

- لن أحظى ببعض الانفراد أبدًا!

مشى وراءها وقد لاحظ محاولاتها أن تلتفت لترى إن كان مازال يتبعها، لكنها كانت تتراجع عن تفقده في الوهلة الأخيرة، ظل الحال هكذا حتى دخلت إلى المنزل وكادت توصد الباب، لكنها رأته فابتسمت، ثم صفعت الباب في وجهه.



انسحبت إلى الحديقة الخلفية للمنزل بعد أن صنعت كوبًا آخر من النعناع، أمسكته بين راحتيها دون أن تؤذيها سخونته فقد اعتادت على ذلك، تأملت السماء وفي داخلها ألف خاطر وخاطر، تمايلت أمامها ريشة بيضاء في خفة وكأنها تلاعب الرياح حتى استوت على الأرض، تركت الكوب على الطاولة الخشبية، وانحنت وأخذتها وحركتها بين أصابعها، انسحبت بخيالها إلى حيث معاناتها في الغابة، والكتاب ولغزه الذي حيرها ولا زال، إنها في المنزل الآن، عادت إلى حياتها الطبيعية مجددًا، وعلى الرغم من محاولاتها أن تقضي وقتًا أطول مع "هادي" إلا أنها لم تستطع.

فحتى وهو جالس بجوارها تفكر في الكتاب و"دفء" يبدو أن الأمر لم يكن كما خُيل لها، فجلوسها في الغابة لفترة حتى وإن كانت قصيرة قد عزز حبها للوحدة، رغم ما مرت به من ألم وخوف، فنحن دائمًا نميل لما يؤلمنا، حتى أننا عندما نخوض طريقًا لسعادتنا فإننا نختار أكثر الطرق وعورة وصعوبة، لقد بنينا داخلنا مفهومًا مفاده أنَّا لن نحصل على السعادة إلا إذا تألمنا وكلما زاد الألم ازدادت السعادة المنتظرة!
تخيلت أنها ستقترب منه بشكل أعمق بعد أن تذوقت مرارة افتقاده، ولكنها طبيعتنا البشرية التي جُبلنا عليها، فحين يذهب شيء من أيدينا ونشعر أننا فقدناه يعتصرنا الندم ونقسم أنه إن عاد سنحافظ عليه، ولكن الحقيقة أنه حينما يعود يرجع كل شيء كما كان عليه ولا يوجد ما يتغير.

انتبهت أن "هادي" يُناديها فذهبت إليه بسرعة، ووضعت الريشة في جيبها، دخلت مبتسمة فإذا به يحضر حقيبة سفر، بدت علامات الدهشة عليها، يبدو أنه هو أيضًا تراجع عن كل وعد قطعه على نفسه بمجرد أن أعادها إلى المنزل، تنهدت في حسرة وهي تسأله:

- إلى أين؟

رسم علامات الحزن على وجهه:

- لقد ناديتك لأجل هذا.

جلس على طرف السرير وأمسك بيديها بحنو وأجلسها بجواره، قال موضحًا:

- أحتاج بعض الأدوات للسباحة، سأذهب في رحلة قصيرة لن تزيد عن الاسبوع وسأعود بسرعة.

أرخت رأسها على كتفه، وقالت بصوت متذمر:

- لا تتأخر.

مسح على رأسها بحنان، وقال وهو يشير للباب:

- لن أتركك بمفردك هذه المرة.

لم يكد يكمل كلماته حتى دخل من خلفها، خرج صوته ضاحكًا وهو يناديها:

- "الارين"

التفتت ببهجة حالما سمعت صوته، وركضت تحتضنه:

- أبي.

بكت بين ذراعيه كثيرًا حتى أضناها البكاء، لا تدري أهي تبكِ لأنها اشتاقت إليه.. أم للخبر الذي أعطاها "هادي" إياه توًا، مسح على رأسها بحنانه المُعتاد، وقال وهو يطبع قبلة على جبينها:

- فلأقبل السطوح أولاً.

حمل "هادي" حقيبته، وقبّل رأسها، وهو يردف باسمًا:

- أريد أن أقبله أنا أيضًا.

نظرت إليه والدمع ينساب من عينيها وهزت راسها موافقة:

- سأنتظر.

دخل الشاب الغريب الذي رأته اليوم السابق، قال "هادي" بهدوئه المألوف:

- "غيث" سيمر عليك بعد يومين أو ثلاثة، إن كان لديك أي شيء تريدينه اكتبيه في رسالة وهو سيرسلها لي.

عقدت حاجبيها، وكادت تستفهم عن شيء، لكنه بادرها قبل أن تنطق:

- هو سيوصلها لأني سأقضي هذا الأسبوع عند أحد معارفه.

قال جملته الأخيرة وحمل حقيبته ورحل بعد أن ودعهما، ركضت وراءه واحتضنته من ظهره، استدار وطبع قبلة أخرى على جبينها، ثم تابع سيره، ظلت تراقبه حتى اختفى ظله، عادت إلى المنزل فأمسك والدها بكفها وقادها للداخل وهو يضع ذراعه على كتفها، قال بحماس:

- تعالي لأسرد على مسامعكِ بعض الحكايا، لقد قرأت كتبًا جديدة وعندي الكثير لأشاركه معك.

ابتسمت بنفس الحماس وهي تسير إلى المطبخ بعد أن أغلقت الباب:

- لأعد كوبان من الشاي المُنعنع ثم آتي ونتحدث.

- ضعي لي بضع حبات من القرنفل وورقة ريحان.

جاءه صوتها من المطبخ:

- لازلت كعادتك لم تتغير!

قهقه، وقال مُتعجبًا:

- وهل سأتغير في اسبوعين لم أركِ فيهما وقد اعتدت على شربه ستين عامًا.

نظرت للكوب وهي تدور بإصبعها على حافته:

- معك حق.

يبدو أن جلوسها بالغابة جعلها تشعر أن ذلك الوقت جزء منفرد من عمرها يعادل حياتها كلها، لكنها الوحدة تجعلنا نمضي الوقت دائمًا ببطء، حتى نشعر أنه لن يتحرك مجددًا.

نادته بنبرة مرحة:

- أوووه، لم أجد القرنفل.. لا بأس سأضع الريحان فقط، ما رأيك؟

لم يصلها رده فأعادت عليه السؤال:

- أبي ما رأيك؟

لوت شفتها متذمرة:

- حسناً سأبحث مجددًا.

انحنت لتفتش في الخزانة ولكن فؤادها انقبض فجأة فضغطت عليه وخرجت راكضة حيث كان والدها جالسًا فوجدته مستلقيًا على الأريكة، ظلت تربت على كتفه وهي تهمس:

- أبي.. هل نمت؟ لقد انتهيت من صنع الشاي.

انحنت على ركبتيها وتذمرت بشكل طفولي وهي تدغدغه من رقبته:

- ليس وقت النوم الآن، لقد قلت أنكَ ستحكي لي الحكايا.

سقط رأسه على كفته وانفرج فمه، ففزعت في قلق، وقالت بخفوت:

- أبي!

شعرت بنخزة في فؤادها فهزته بقوة:

- أبي، استيقظ!

صدرت عنها صرخة مكتومة، وهي ترجه رجًا وهو مستسلم، بدأت دموعها تسيل في عدم تصديق، صرخت بكل ما أوتيت من قوة عندما لامست يداه الباردتان:

- أبي!

وضعت أذنها على صدره ولسانها يلهج بالدعاء، لكنها لم تسمع شيئًا، وضعت يدها المرتجفة على صدرها وفكرت من سيساعدها فقررت أن تأتي بالإسعاف أولاً، جاءوا على عجل فأصابوها في مقتل بكلماتهم:

- لا داعي لأخذه للمشفى فقد فارق الحياة.

صعقت من كلماته ونهرته بشدة:

- لا أنت كاذب.. كاذب.. كاذب.

ترددت أمام عينيها ابتسامته الأخيرة، وعيناه اللامعتان، كيف حدث كل ذلك في لحظة!

كيف للموت أن يأخذ أعمارنا في ثانية!

مرَّ شريط حياتها أمام عينيها، كيف سحبها من بين الصراخ واللطم والكلمات القاسية عندما مات أخوها، وكيف كان يحنوا عليها في مقابل جفاء وقسوة أمها، تذكرت عندما كان يحملها على كتفيه ويجمع لها الزهور، وكانت تفركها بيدها ثم تتركها على رأسه فيضحك ويُمثل أن إحدى البتلات دخلت في عينه وأنه سيسقطها، ثم يُنيمها على العُشب ويدغدغها من رقبتها، ويعود فيحملها ويدور بها ويتسابقا، كيف استقبل نبأ فصلها من وظيفتها وجعل اليوم يمر خفيفًا برقة روحه، عيناه الحزينتان يوم وفاة أمها خرّ على ركبتيه، ويوم زفافها كان أطول الحاضرين عنقًا يشب على أطراف أصابعه ليراها في كل حركاتها وسكناتها والدموع لا تفارق عينيه، كان لا يأكل إلا وهي بجواره، ولا ينام إلا عندما يطمئن أنها غطت في نوم عميق...

أمسكت برأسها في غير استيعاب عندما رأتهم يحملونه على النقالة، فركضت ناحيته والدمع ينهال من عينيها:

- هل يعني هذا أني لن أراكَ مرة أخرى ولن أحتمي بحضنك يا أبي؟ هل تتركني أواجه الحياة بغير حصني، وهل يقوى المرء أن يجابه الأمواج بحائط من الرمال؟ لا تتركني يا أبي لم أفكر يومًا أنك سترحل، هل يعني هذا الصمت أني لن أسمعكَ بعد الآن، هل يعني أني سأبحث عنك في عطرك، هل سأحتضن ملابسك وأتشممها لأجد ريحًا منك؟

قبضت على يدها بقوة ثم عضتها بألم، وفؤادها يتقافز في تنهدات متتالية:

- من سيُقبل السطوح؟

لا ترحل، أرجوك..



هناك شيء خاطئ.

- سيبيت "بحر" عندي هذه الليلة لنتسامر حتى مطلع الفجر كالأيام الخوالي.

تأرجحت الضحكة على ثغره ثم ما لبثت أن اختبأت وراء رجائه:

- فلتبقَ أنت أيضًا يا "نقاء" أحضر "ليل" وتعاليا.

- أردت أن أبقى ولكني لا أستطيع أن أترك "ليل" بمفردها، وإحضارها إلى هنا في هذا الظلام سيكون عسيرًا.

قال وهو يغلق الباب خارجًا:

- سآتي في الصباح الباكر.

أحضر "رحيم" كوبين من الرف الذي فوق رأس "بحر" قائلاً وهو يُحرك الكوب على يمينه:

- هذا الكوب كان لـ "جاسر" لم يشرب فيه أحد أبدًا، لكنك ستفعل الآن.

استطرد وهو يمازحه طاردًا الجو الجاد الحزين الذي غيم فوق المكان:

- سأعد بعض الشاي المُنعنع أولاً لنتحدث على راحتنا.

- ضع لي...

قال "رحيم" في ذات الثانية:

- سأضع لك نصف ليمونة بقشرتها على الشاي.

تبادلا الضحكات حتى سعل "بحر" وقال وهو يتابعه أثناء وضعه الماء ليغلي:

- لازلت تذكر؟

فُتح الباب برفق فاتجهت نظراتهما نحوه، زالت آثار الابتسامة عن وجه "بحر" وشق الفزع طريقه إلى قلبه وعيناه شاخصتان، تقدمتْ نحوه بخطوات متوترة وعينان زائغتان، تربط قماشة حمراء على مقدمة رأسها، قالت بصوت مبحوح:

- كيف حالك؟

اتسعت حدقتاه أكثر وهي تقترب منه وتجلس بجواره ناكسة الرأس، نظر إلى "رحيم" الذي عقد كفيه أمامه وصوب عيناه إلى الأرض، أعاد النظر إليها سائلاً:

- "نسيم" أهذا أنت حقًا أم يهيأ لي؟

نظرت إليه وقد أغرق الدمع جفناها وفاض على وجنتيها ثم غطت وجهها وأجهشت بالبكاء:

- سامحني يا "بحر" سامحني..

مدَّ يده إليها ولمس كتفها ليتأكد أنها ليست طيفًا:

- لكن كـ.. كيـ.. كيف؟!

قالت ومازالت عيناها مُحتقنتان بالدمع:

- سأخبرك بكل شيء، ولكن أرجوكَ سامحني، سامحني على هذا اللقاء المفاجئ.. سامحني.

ما إن أيقن "بحر" حقيقة وجودها أمامه حتى صاح بهما والغضب باد في كلماته:

- ما الذي يحدث هنا؟ أخبراني ما الذي يحدث.. ما هذا الهراء! كيف استطعتما فعل هذا بي؟ هل هان حزني عليكما لهذه الدرجة! كيف تمزحان بالموت.. كيف؟!

- اهدأ أرجوك، اهد..

قاطعها وهو يقوم من مكانه ويديه ترتعشان والدموع لا تتوقف عن السيلان:

- أهدأ؟!

- عندما وجدك "نقاء" وأحضرك معه إلى منزله كنتُ أجلس هناك مع "ليل" وعندما علمتُ بمجيئك احترقت بين ناريّ الشوق والانتقام، ليس انتقامًا عن كره ولكنه عن حب صدقني.

نظر إليها يدفعها لتكمل وهو يجز على أسنانه وجسده ينتفض، أكملت دون أن تقاوم دموعها:

- اختبأتُ حينها خلف الخزانة، كنت أُخبئ الصندوق الخاص بي مع "نقاء" حتى لا يراه "نجم" وعندما دخل "نقاء" سألته إن كنتما قد تحدثتما عني فأجابني بالنفي، حينها طلبت منه أن يعطيك الصندوق ويخبرك أني توفيت لكنه امتنع ولم يوافق، توسلت إليه ليفعل، وقبل أن يعطيني الجواب سمعت وقع خطواتك فعدت للاختباء.

وعندما رأيتك...

قاطعها بنبرة تنازع الشوق:

- أكملي، كذبتما عليّ!

ثم رنا إلى "رحيم":

- بل كذبتم.

ازدردت ريقها بصعوبة، وأكملت:

- لقد مات "نجم" قبل عامين وكنتُ حزينة على فراقه، وسعيدة لأنه عندما تعود سيكون لدينا فرصة أخرى.

كان يستمع إليها بذهن شارد، ووخزات متتالية في صدره مع كل كلمة تنطقها، بادرها مستفهمًا:

- ماذا عن الجسر الذي تصدع عند وفاتك، ذاك الذي أحكمتم كذبتكم به؟

تجاهلت الضيق الذي أغرق قلبها لتجيبه:

- بالفعل لقد تصدع الجسر ولكن ذلك كان عقب رحيلك أنت، أنا هنا لم أمُت أنا بجوارك، دائمًا.

أغمض عيناه فجرت الدموع على خديه، فتحهما فإذا بـ "رحيم" يجلس قبالته يُناديه:

- هل غفوت مني؟ أعددت الشاي.

مسح عيناه فوجد آثارًا للدموع فيهما، جلس وهو يتحسس رأسه:

- لا.. أقصد أجل، أين هي لقد كانت هنا.

- من؟

- "نسيم" كانت تجلس هنا مكانك.

ناوله كوب الشاي وجلس جواره:

- احكِ لي، ماذا رأيت.

بدأ يقول لـه ما رآه في حلمه، بينما استمع إليه في ذهول، وحالما انتهي ترك "رحيم" كوب الشاي على الطاولة وأمسك بيد "بحر":

- تعالَ معي.

سار "بحر" خلفه بينما الآخر يمشي بخطوات سريعة بدأ الظلام يشتد أكثر فأكثر، فاقترب "بحر" من خليله وألصق جسده به، هنا بدأ الضوء يتسلل حتى أصبحت الرؤية واضحة، كان يشعر أن المكان مألوف بالنسبة إليه، هناك الكثير من باقات الأزهار والتربة ندية، اقتربا أكثر حتى تبين له أنه قبر، نظر إلى "رحيم" الذي كان يُمسك بعصاه يستمد من ثباتها القوة، سأله:

- لما أتينا إلى هنا أنت لا تحب القبور.

- يجب علينا دائمًا أن نواجه مخاوفنا حتى نتغلب عليها.

رفع حاجبيه بدهشة:

- هل هذا قبر "زمن"؟

- لا.. بل "نسيم".

جالت عيناه في المكان، وقال بحيرة:

- لا أذكر أنه كان هكذا..

قاطعه "رحيم" موضحًا:

- الحلم الذي رأيته به شيء من الحقيقة، لذلك يجب أن تعرفها كاملة، لن أخفي عليك أكثر، نحن كبار والكذب والانهيار لا يليقان بنا.

لم يفهم كلماته فواصل الأخير دون انقطاع:

- في ذلك اليوم الذي أتيت فيه مع "نقاء" كما أخبرني ونحن قادمان إليك، كانت "نسيم" بالفعل عنده بالمنزل.

أمسك "بحر" رأسه الذي دار واختل توازنه وترنح فساعده صديقه على الجلوس، وجلس جواره مكملاً بصوت خافت لكنه رن في أُذنيه رنًا نجم عنه ارتجاف في بدنه:

- بالفعل علمت هي بذلك وقررت الاختباء، ليتها استغلت هذه السويعات والتقت بك حتى ينتهي ذلك الفراق وتشرب من كوثر القرب، بدلاً من تفكيرها في كيفية رد الألم لك.

قال بنفاذ صبر:

- أين هي الآن؟

برزت علامات الحزن على وجهه وهو يجيبه:

- لقد أخفينا ذلك عنك، أنا و "نقاء" لكي لا يصير حزنك مضاعفًا، أنا لم يكن لديّ علم بما يخططانه ولم أكن لأوافق على هذا التصرف الصبياني، لكن عندما..

- عندما ماذا؟

- عندما ماتت في اليوم التالي رأيت أنه من الأفضل إخفاء ذلك عنك لكني شعرت أن في ذلك الحلم الذي رأيته إشارة ما، كان لابد أن تعرف عاجلاً أو آجلاً كنت

ستعرف، بالفعل "نجم" قد مات قبل عامين وانكسر الجسر في اليوم الذي رحلت فيه.

دارت رأس "بحر" أكثر، وشعر أن الكون أجمع يدور حوله واختنقت جميع الأصوات عدا صوت "رحيم" الذي أصبح له صدى مزعج، غطى أذنيه وصرخ بكل ما تبقَ له من قوة.

شعر بـ "رحيم" يهزه هزًا، فتح عيناه فوجد وجهه ممتقعًا بالقلق، دفعه عنه فسقط "رحيم" أرضًا وتأوه بشدة خلعت قلب "بحر" الذي فزع يساعده ويُجلسه على الأريكة وعيناه تدوران متسائلًا:

- كيف وصلنا إلى هنا ألم نكن في..

لاحظ الشاي الذي انسكب على الأرض وعلى قدم صديقه، فقام يحضر الماء باكيًا ويداه مرتجفتان، بلل قماشة وهو يغمس ساق صديقه في الماء وينظف الأرض:

- سامحني، سامحني.

ثم ترك القماشة من يده وواری وجهه وجلس ضامًا ساقيه إلى صدره كما اعتداد أن يفعل منذ أن كان طفلاً عندما يشتد حزنه، علا صوت نحيبه، فنزل "رحيم" عن أريكته وزحف إليه يحتضنه والقلق بادٍ عليه:

- ما الأمر يا "بحر"، لماذا كنت تصرخ؟

رفع وجهه قائلاً بأسى وقد بدا الانكسار في عينيه:

- لقد رأيتها في الحلم، ثم حلمتُ أنني كنتُ أحلم بها، نسيم!

صوب عينيه في مقلتيه وقد تشوش تفكيره:

- أنا لا أفهم شيئًا، هيا.. هيا قم معي.. هياا.

جلسا سوية على الأريكة، نظر "بحر" إلى الباب وقد تأكد أنه مُحكم الإغلاق، ثم ارتمي في حضن صديقه الذي وضع خده على رأسه وأحاطه بذراعه:

- خذ نفسًا عميقًا وأخبرني ماذا رأيت؟

بدا القلق على وجه "رحيم" وهو يسمع منه رغم محاولته إخفاءه، لقد كان مذهولاً أن ذلك هو "بحر" صاحب البأس القوي العنيد، هل جعلته الغربة هشًا لهذه الدرجة؟ ظلَّ هذا السؤال هائمًا بدون جواب، عندما قال يطمئنه:

- يا صديقي إنه مجرد كابوس ليس إلا، عقلك لازال لا يستطيع أن يُصدق أن ما عدت لأجله ما عاد لأجلك، لقد رحلت "نسيم" منذ عامين بينما مازال "نجم" على قيد الحياة، فليبارك الله في عمره، والجسر تصدع بالفعل في اليوم الذي ماتت فيه "نسيم" نحن لم نكذب عليك.

أغمض عيناه وهزَّ رأسه بعنف نافيًا:

- وما أدراني أنني ليست في حلم آخر؟ ما أدراني.. ما أدرا...

تكرر بكاؤه المرير، وهو يُكمل بحسرة:

- ليت كل هذا يكون كابوسًا، ليتني أستيقظ فأجد نفسي ما زلت طفلًا صغيرًا بينكم، ليت الأيام تعود لأبني حياتي معكم..

طالعه بعينان شاردتان:

- حتى أنت يا "بحر" أتى عليك اليوم الذي أنهكتك فيه الدنيا وقلبت عليك أمواجك وأخرجت ما دفنتَه في ظلمات قاعك منذ نعومة أظفارك.

عليك أن ترتاح يا صديقي، أنا هنا بجوارك، نم.

- ألا يكفيني نومًا؟ نمتُ ما فيه الكفاية وأنا أحلم، ثم استيقظتُ على صفعة الفقد.



بعد ثلاثة أيام:

دخلت إليها وبين يديها وعاء فخاري به حساء ساخن، وبجواره كوب من النعناع تصاعد بخاره ليداعب أنفها، كانت تحيط ساقيها بذراعيها وتُحرك نفسها من الأمام إلى الخلف وهي تضغط على أصابعها وعينيها لم تكف عن سكب الدموع، نظرت إليها وقد اعتصر الحزن خافقها رثاء لحالها، جلست بجوارها بعد أن وضعت الطعام على الطاولة، احتضنتها بقوة ودموعها تنساب:

- أرجوكِ يا "الارين" أنتِ لم تتناولي أي شيء منذ أن أتيت إلى هنا ولم تنطقي بكلمة واحدة، تحدثي وطمئنيني، حسنًا انظري إليَّ فقط ولا تتكلمي.

زادت كلمات "دفء" دموع "الارين" فأغمضت "دفء" عيناها مستسلمة:

- ربما لن أستطيع الشعور بك لأني لم أشعر بأن لديَّ والد أساسًا فحتى بعد أن تم زجه في السجن رفض زيارتي مئات المرات.

تسللت دمعة من طرف عينها، وابتسمت وهي تمسح على رأسها مُستكملة:

- أنت قوية وستتغلبين على هذا أيضًا صدقيني، أعلم أنك كنت تحبين أباكِ حبًا جمًا لكنها الحياة، دار كبد وتعب وعناء وفقد.. وفقد.. وفقد.

ركزت في عينيها بقوة، وقالت تبث فيها الثقة:

- لكنها حكمة الله يا "الارين" الله الرحيم الذي خفف ألمكِ فجمع دربينا لنكون رفاقًا ونتجاوز هذه المحنة سويًا، إن الله يعطي الابتلاء ومعه القدرة على تحمله.

ندت عنها شهقة طويلة وكأنها تسحب كل الهواء حولها لتخمد حريق روحها وتنقذ ما تبقى من حطام الفؤاد، قالت لأول مرة بعد انقطاع طويل عن الكلام بنبرة منكسرة متهدجة يقتطعها وابل من التنهدات:

- أريد أن أهرب من كل شيء، نفسي، ذكرياتي، الناس، الوطن... لكن إلى أين سأذهب؟ ماذا سيكون اسمي؟ وهل سأنجح إن كنت شخصًا آخر أم سأظل حزينة بكل صوري؟

قالت تغير مجرى الحديث، والحسرة تُحفر في صوتها:

- عندما كنت صغيرة كنت أحمل أخي الصغير بين يديَّ على الشاطئ فانزلق مني وسقط في المياه، حاولت إنقاذه ولكني لم استطع، بحثوا عنه ولم يجدوا له أي أثر، من حينها أقسمت ألا ألمس طفلاً كانت تلك أولى خساراتي الفادحة، كنت في السادسة من عمري وبقي أبي ملاذي الآمن الذي كنت ألتجئ إليه من قسوة أمي، فبسبب موت أخي لم تعد تقبل وجودي، وتلومني دائمًا على ما حدث حتى أصبحت أرى في وجودها لومًا، وإذا مرت من أمامي صدفة أستشعر عتابها حتى ولو لم تتحدث، كانت تذكرني بخسارتي

وألمي لم أكن لأتعافى أبدًا طالما هي على قيد الحياة، لكن أبي عوضني عن ذلك.
تخيلي بعد ضياعي في الغابة لو لم أعد إلى المنزل لما كنت ظفرت بآخر ضمة منه، لقد احتضنني وكأنه لن يراني مجددًا، لكني لم أشعر بذلك لأني كنت أرتب الكلام في رأسي لأحكي له عن مغامرتي التي خضتها، لم أدرك أنه كان يودعني للأبد!

تدافعت دموعها مجددًا لكنها لم تتوقف عن الكلام:

- للأب حنان لا تصفه الكلمات، دائمًا ما كنت أزوره بين كل حينٍ وآخر ولم يخطر ببالي أبداً أنه قد يموت بمفرده ولن يشعر به أحد، فقد توفت والدتي منذ ثماني سنوات، لَطف الله بنا إذ مات معي، فوالله لو مات وحيدًا في منزله ما كنت سامحت نفسي أبدًا.

لم تدرِ ما تقول من صدمتها، فهمَّت باحتضانها:

- يكفي أرجوك لا تفكري هكذا، حمدًا لله لم يحدث ما تفكرين به فلا تلومي نفسك على شيء لم يحدث.

نظرت إليها بعيناها المحمرتان، وقالت والألم يتلوى داخلها ويخنق صوتها:

- ما حدث الآن جعلني أخاف، أشعر أن كل شيء أفعله خاطئ، أخشى أن أندم على كل تصرفاتي الواحدة تلو الأخرى، المشكلة أننا لا نعرف أن الخطأ خطأ إلا ونحن ندفع ثمن ارتكابه، أو في الحقيقة كلنا نعلم الخطأ ولكننا نتعامى عنه حتى تأتينا الصفعة نتاج غفلتنا أو تغافلنا.

أجهشت بالبكاء فقبضت "دفء" بذراعيها عليها أكثر فأكثر لتشعرها بالاطمئنان:

- اهدئي، اهدئي.

استكانت حتى هدأ نحيبها، وبقت عيناها زائغتان، ما أشدَّ أن تجد نفسك تفقد أقرب الأقربين إليك أمام عينيك ولا تملك من الأمر غير البكاء، هنا تتجلى الذكريات.. ذكريات لم نكن نتذكرها من الأساس لكنها تظهر هنا، في هذه اللحظة تمامًا، وكأنها تتشمت في عجزك وقلة حيلتك، تمتمت بأسى:

- أيا ليت الماضي يعود يومًا، لما ابتعدت عن حضن أبي ساعة.

مسحت عيناها واستقامت وهي تسألها:

- أراكِ ذاهبة؟

سبحت في تلك العينان اللتان ذكرتاها بنفسها عندما ماتت "لُطف" قالت متجاهلة خاطرها الأخير:

- ذاهبة للملجأ.

- أيمكنني أن آتي معكِ؟

باغتتها بردها ولكن سرعان ما ابتسمت معلنة الموافقة، فأخيرًا ستخرج من حلقتها الجحيمية التي رسمتها حولها ولو قليلاً:

- بالطبع، تعالي سأسكب لكِ ماء لتغسلي وجهك هيا.

بعد أن انتهيا خرجتا وكل منهما غارقه في هم الأخرى، في الحقيقة لقد قررت "لارين" أن تذهب معها لأنها كانت تعلم أنها ستبكي طوال الطريق وهي تتذكر "لُطف" و "جاسر" فقد استشفت ضيقها، أرادت أن تذهب معها ليخف حملهما، باغتتها كل الأحداث الماضية مع وخزة في خافقها، قالت دون مُقدمات:

- هناك مخاوف تفرض وجودها عليكِ، تعيش معك وتحتل صدركِ، وعندما تكبرين وتحاولين الخلاص منها تُشل قدرتك، فأنت تحاولين انتزاع قطعة من روحك، يُجبرك الألم على تركها وشأنها لكنها لا تتركك تظل تؤذيك بكل قسوة، هكذا أصبحت حياتي بعدما غرق أخي ولم أستطع انقاذه، اكتشفت رهابي من مسؤولية الأطفال يومًا بعد يوم لم أكن أحب أن ألاعبهم، أخشى أن أحمل رضيعًا بل حتى أخاف لمسه، حتى البحر صارت في داخلي رهبة منه، شعور يسحق أماني سحقًا عندما يُلامس ماءه قدماي، انعقدت العقد في صدري حتى أصبحت كتلة متشابكة لا أرى لها فكاكًا.

توقفت لتحل طرف فستانها الذي عَلِق بغصن شجرة حديث السقوط، وما إن حررته حتى وقفت واستكملا طريقهما، قالت بعد زفرة مرهقة:

- وعندما قابلتُ "هادي" أخبرته بكل شيء، لم أخدعه، أحببته لكنني اشترطت أني لا أريد أن أكون أمًا وقد وافق، لكن ما إن ضمن وجودي حتى بات هذا الأمر شغله الشاغل، أراد أن يُمارس دور المنقذ وهو لا يعلم أني كلما حاولت

المواجهة هزمت، لا يدري كيف هو قاس أن يعيش المرء مع مخاوفه، وكيف أمضى عمره وهو يُحاول تقبلها بعد أن خارت قواه.

توقفت مكانها وأسندت ظهرها على جذع الشجرة وهي توقف "دفء" ونظرت لعينيها باحثة فيهما عن جواب:

- لماذا لم يقبلني كما أنا؟ لم ترك الفجوة بيننا تتسع ليضغط على عروقي ويجعلني أوافق رغمًا عني لكي أرضيه؟ وعندما قبلت لم يتحمل ترددي وقلقي، وكأنه يعتقد أن الخوف لباس نخلعه عنا متى أردنا، لقد كان غليظًا في كلامه في فترة أنا فيها أشد حساسية من أي وقت آخر، في يوم من الأيام ألقى كلماته في وجهي فاخترقت قلبي وشعرت وكأنها غُرست فيه وبات ليلته نازفًا حتى هذه اللحظة، قال لي هكذا بالنص الصريح: "أنت تحمليني ما لا أُطيق، ومن حقي أنا أيضًا أن أجد من يسندني، لقد تعبت منكِ ومن كوني الداعم والمواسي دائمًا وأنك لا تبالين إلا براحتك، إن قصرت معك أو طلبت شيئًا أنت لا تريدينه تقلبين الدنيا ولا تقعدينها، حتى وإن تنازلت وفعلته فبترددك وقلقك الدائم تعكرين عليّ فرحتي، وتجعلني أندم لأني طلبت شيئًا"

- أحفظتِ ما قاله!

- حفظته لأنه لم يفارق مسامعي حتى الآن، ليس لأني ألومه بل لأنه كان محقًا، حينها وقفت أمام نفسي وأخبرتها أنه يأتي عليّ وقت ولا أتحملها، فكيف بغريب أن يفعل؟ أجل غريب، لقد أصبح غريبًا عني منذ هذه اللحظة، حاول كثيرًا ارضائي لكن وما نفع محاولة علاج جرح لا يبرأ؟

تأبطت ذراعها وأكملا طريقهما، فباغتتها بصراحتها:

- أكره كوني بكاء، صدقيني لقد حاولت كثيرًا أن أتخلص من هذه الصفة، فبعد ما قاله لي "هادي" قررتُ أن أتغير وأواجه فإما أن يتركني من خوفي وإما أن أنتزعه انتزاعًا، ولكن صغيرتي ماتت قبل أن أضعها على صدري وأشعر بجلدها الناعم الدافئ، عندما لامستها كانت باردة خالية من الحياة، وكأن الخوف بداخلي قد خنقها والتف حول عنقها حتى أرداها قتيلة، من وقتها وعلاقتي "بهادي" ازدادت سوءًا، وانطويتُ على نفسي أكثر حتى ضعتُ في الغابة وافتقدته، شعرت بنبضات الحب الأولى، ذلك الإحساس الذي غاب عني خمس سنوات، وعندما وجدني ورأيت لهفته أعاد إليّ عمرًا، وشعرت وكأن بركانًا من الأزهار والفراشات انفجر في داخلي، لكن بعدما

مات أبي لم أعد أشعر بشيء سوى غضب غامر، احترقت الزهور وأصبح عمري خرابًا، أنا ساخطة على "هادي" وأشعر برغبة شديدة في الصراخ في وجهه وصفعه عن كل مرة آذاني بها وقررت أن أصمت، أشعر وكأن هناك حبلاً غليظًا ملفوفًا حول عنقي طرفاه في يد "هادي".

أجهشت في البكاء حتى علا نحيبها:

- لو لم يعدني بأنه سيتقبلني كما أنا لما اضررت لتحمل فترة الحمل التي كانت عصيبة ومؤذية، ولما فقدتُ مولودتي، لا أستطيع نسيان كيف كنت أتلوى وأصرخ وأنا ألدها، ثم ماذا؟ ماتت!

هذا كله بكفة، ونظراته التي تلومني وتحملني نتيجة ما جرى في كفة أخرى، ثم الآن، لقد مات أبي، وأين هو؟ ليس موجودًا، فليبقَ بعيدًا إذًا.

احتضنتها طويلًا، ثم أكملا سيرهما والصمت يحتويهما بين ذراعيه، حتى وصلا إلى الملجأ الذي كان راسخًا في الأرض، جدرانه العالية تبرز بأحجارها العتيقة المصفرة، دلفتا من البوابة الحديدية العملاقة ذات النقوش المجوفة على هيئة أوراق أشجار معلقة في الهواء، كانت الأشجار تُرخي أوراقها على الحائط وتنسدل بذل وهوان وكأنها أشفقت على من يختبئون خلفه.

نظرت "لارين" في الباحة الواسعة على يسارها فلمحت طفلة صغيرة تسقط عن أرجوحتها، وما شعرت بنفسها إلا وهي تركض ناحيتها، لم تستطع اللحاق بها فتعالت صرخات الصغيرة، انحنت لتُساندها على القيام محاوله إيقاف بكائها ونحيبها اللذان أذابا فؤادها الذي ظنت أنه ما عاد يشعر بشيء، ولكن على ما يبدو فإنه مهما تألمنا وظننا أنه لن يؤلمنا شيء آخر نجد أنه عندما يحدث أمر ما يستوجب منا حزنًا فإنَّا نتألم أضعاف أضعاف الأشخاص الآخرين، وكأن الألم الأول يزيدنا هشاشة وحساسية وليس قسوة وقوة.

احتضنتها بشدة وهي تربت على ظهرها مواسية:

- لا تقلقي، لا يوجد أي جرح، أنتِ قوية وستصبحين بخير أليس كذلك؟

نظرت لـ "دفء" بعد أن وجدت نفسها تردد نفس كلامها الذي جعلها تستاء منذ قليل، بالرغم من أنها تضايقت من هذا الحديث فالكلام لا يصلح ما تلف إلا أنها الآن تردده ذاته.

أغمضت عيناها بقوة واحتضنتها، بادرتها الصغيرة وهي تمسح عيناها:

- أنا بخير، لا تبك.

وضعت أناملها الصغيرة على وجنة "لارين" لتمسح دموعها، سرت القشعريرة بجسدها فلم يسبق أن لمست طفلاً منذ عشرين سنة، قالت بحنان:

- لن أبك إذا لم تبك أنت.

هزّت الأخرى رأسها موافقة وهي تبتسم وكأنها تواسيها:

- أنا اسمي "لُطف" وأنت ما اسمك؟

دهشت "دفء" ووضعت يدها على صدرها، سألتها "لُطف":

- لماذا تبكين أنت أيضاً؟ أرجوكِ لا تبك تعالي واجلسي على الأرجوحة وسأدفعك.

ضحكت:

- هي ستدفعك لأني لن أستطيع.

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

- "سأخفيه جيدًا وأعلم أنك ستجده..

بُني، أكتب إليك هذه الكلمة وكلي يقين أني سأُحرم منها بعد يومي هذا، لم يسعني حتى أن أُسميك، لكن ليس لديّ وقت وأخشى عليك من بطشهم، أريدك فقط أن تعلم أني لم أتخلَ عنك بإرادتي، بل أُجبروني على ذلك، ليس بمقدوري أن أشرح كلماتي فيتوجب عليّ العودة قبل أن يلاحظوا غيابي، لقد تركتك مع سيدة عجوز أثق بها كثيرًا، كانت مربيتي، عهدت إليها مالاً وفيرًا وكل مجوهراتي، ستدخرها وتعطيها إياك عندما تكبر لتبدأ حياتك، أعلم أن المال لن يغنيك عن حضني، ولكن صدقني فعلت ذلك لكي لا تُقتل.

سامحني يا بني.. سامحني"

وقف ذاهلاً أمام الورقة التي أعطاها "نقاء" له، تشوش ذهنه وتساءل بريبة:

- أين وجدت هذه الرسالة؟

نكس رأسه، وأجابه وهو مُتفهم حيرته:

- لم أكن أعلم عنها شيئًا مثلك تمامًا، لكني عندما نقلت البرواز إلى بيتي لأحافظ عليه، سقط مني وأنا أعلقه وانكسرت إحدى أضلعه، فأردت حينها أن أنظف بطانته كي لا يهترئ من تراكم التراب، وعندما كنت أفعل ذلك بحرص وجدتُ هذه الرسالة عالقة فيه، صُعقت وأنا أقرأها، لكني لم أعلم في أي أرض أنت لكي آتيك وأعطيها لك، ولم أدرِ إن كان علمك بها سيغير من الأمر شيئًا، فهي لم تكتب اسمًا أو عنوانًا أو حتى مكانًا نبدأ بحثنا منه.

وقف صامتًا يتأمل الرسالة، لم تؤثر الكلمات فيه كثيرًا فقد كان مدركًا لعُمره، فالعجوز لابد وأنها قد ماتت منذ زمن.. وربما والدته أيضًا، شاركه أفكاره:

- هذا يعني أن العجوز طمعت بالأموال ورمتني في البحر مع البرواز في قارب؟

قال وهو يمد يده بورقة أخرى موضحًا:

- لا تتسرع في الحُكم يا صديقي، هكذا ظننتُ بادئ الأمر، لكن الأمور ليست كما نراها دائمًا.

أخذ الرسالة وفضها بيد تقاوم رجفة:

- " بالأمس جاءتني إحدى خادمات القصر وحذرتني أنهم يبحثون عنك في كل مكان، وأن والدتك قد توفت فجأة، وأن أيديهم ستطالني بالأذى إن كان لي يد في اختفائك.

بالطبع أنا لا أصدق هذا فهؤلاء الظالمون قتلوها، لقد علمت أنها كانت تحت المراقبة، لا بد أنهم علموا بمجيئها إليّ وسيأتون ويقلبون الدار رأسًا على عقب حتى يجدوك ويُلحقوك بوالدتك، لكني لن أسمح لهم بذلك، وليس أمامي سوى أن ألقيك في اليم والله يحفظك ويرعاك، إن كان لك عُمر، سيتولاك.

سامحني يا صغير لن أستطيع وضع النقود والمجوهرات معك فبعضها سأقول أن والدتك جاءت لتعطيني إياه لأُعيل نفسي، والبعض الآخر سأملأ به أيدي الباطشين كي لا يتبعوك ويشون بك.

سأضع رسالتي بجوار رسالة والدتك حتى لا تظن يومًا أني ظلمتك وأكلت مالك بغير وجه حق، كما أني أخشى إن وجدك أحدهم وبجوارك النقود لأخذها ورماك

في الماء. إن كانت زوجة أبيك قتلت والدتك وتبحث عنك لتفتك بك فكيف سآمن الغريب عليك!؟

ليحميك الرب.

من "رياح" مربية والدتك إليكَ يا صاحب العينان الزرقاوان.. "

استدركه وهو يطوي الورقة مُتفكرًا، فسأله:

- ما الذي قررتَه، أعني ماذا سنفعل؟

نظر إليه بتمعن وقد اهتدى لإجابة أراحته:

- لن نفعل أي شيء.

- أبعد ما قرأت؟

بدت أمارات الغضب على وجهه، وقال في سخط:

- ماذا تريدني أن أفعل يا "نقاء"؟ أمسك سكينًا من المطبخ وأذهب لأبحث عن قتلة والدتي وأقتص لها! نحن لسنا في رواية يبحث فيها البطل الذي تيتم واغترب وقاسي صنوف العذاب النفسي عن قتلة أمه حتى يجدهم ويقطع أنفاسهم، ويأخذ حقها منهم فيظفر وترفرف راية نصره ويعلو الهتاف والتصفيق!

ثم لماذا سأغضب؟ على أحد لم أره أبدًا؟ تسمى أمي لكن بلا حنان، دفء، متكأ، حِصن، ليس هناك معنى واحد للأمومة فيها.

- لكن لولاها لما نجوت منهم ولقتلوك.

تجمهرت الدموع في عينيه ونزحت بغضب على وجنتيه لتضيف الحسرة لكلماته:

- ليتها تركتني يا "نقاء" ليتها فعلت، لمَا كنت تربيت في دار للأيتام، ولا تركتكم لأجل حلم لم يتحقق، ولا غامرت بحبي الصادق البريء ورحلت لأني أضمن مكانتي عندها وأنه مهما مر، مهما مرَّ من عمري فسأعود وستعود، وها قد عدت يا "نقاء" لقد عدت لكنها ماتت، ماتت قبل عودتي بعامين،

احتضنه يهدئه حتى استكان بين ذراعيه، أخرج مذكرة صغيرة من جيبه ووضعها في يده:

- يستحيل أن أطلب منك أن تقتل أحدًا، بل ربما هي ماتت وحسابها على خالقها، ما يهمني الآن أن تعرف أصلك، هذه المفكرة كانت لوالدتك وجدتها مع هاتين الرسالتين وحفظتهما لك دهرًا وآن أوان أن يعودا لصاحبهما، تريث واقرأها بقلبك.



احتضنتها نسمة هواء باردة فسرت القشعريرة في جسدها، أخرجت "دفء" ظرفًا من جيبها ووضعته على ساق "لارين" التي كانت تتابع الصغيرة وهي تمرح على أرجوحتها، انتبهت "لارين" وأخذته بابتسامة باهتة، كادت تفتحه لولا أن "دفء" أوقفتها:

- لن تفتحيه الآن، فقط حينما تضيق الدنيا بك.

أومأت برأسها طواعية عندما لاحظت إصرارها، ووضعت الظرف بحرص في جيبها فلمست الريشة، أخرجتها وسبحت في السماء بخيالها، كانتا جالستان تُراقبان "لُطف" وهي تتأرجح وابتسامتها تعلو شفتاها، قالت "لارين" بنبرة حزينة:

- كأنها قد نست ألمها بمجرد أن عاودت اللعب، لم تخف وتتجنبه! يا ليتنا نعود أطفالاً نتألم من شيء فننسى ونعود لنستمتع به، حالنا اليوم عندما كبرنا أصبح غريبًا، إننا نتجنب أي شيء قد يؤلمنا حتى وإن كان هذا الألم صغيرًا جدًا بالنسبة للبهجة التي سنحصل عليها، ولكننا نريد دائمًا كل شيء خالٍ من المشقة والتعب حتى كرهنا الحياة وأنفسنا.. عِشنا بمبدأ «لو مرَّ كل المُر فإن مرارته ستظل عالقة في جوفنا» تخلينا يا "دفء" تخلينا عن كل جميل مُقابل خوفنا من الألم، كم حلمت بأن أصبح أمًا أتحسس أنامل ابني الصغير، وأُداعب قدمه، أتأمل ضحكته التي يرسمها بغتة وعيناه اللتان تسرحان في الفراغ، أضع رأسي على صدره وأسمع دقاته الخافتة، أشتم رقبته وأُقبلها، أن يُمسك إصبعي ويمضغه بفمه الخالي، ثم ينظر لي ويضحك وهو يُحرك قدماه، وبدل أن أبكي على وسادتي أبكي فوق صدره فيمسح دموعي برفق ويذوب حُزني. أعلم أن موت أخي كان بقدر الله ولا أعترض، ولكني أخاف يا "دفء"، أحيانًا أشعر بالتيه ولا أدري أصحيح مساري أم أن هناك نقطة سيتغير فيها كل شيء؟ أتأرجح حينها بين أفكاري ويتسلل الخوف لأعماقي

مجددًا، سيظل الخوف أقسى شعور يمر بي، فأهرب منه بكوب نعناع دافئ الواحد تلو الآخر وأمضغ أوراقه اللينة وأنا أنظر إلى السماء حتى يتخدر لساني ووجعي.

صمتت هنية ثم استطردت بعد تنهيدة طويلة:

- لم أُحب الليل أبدًا لأني أشعر فيه بالوحشة والوحدة، تجديني دومًا أول النائمين وأبكرهم استيقاظًا، وكأني أريد أن أنتهز ساعات النهار وأستأنس بغالبها، لا أدري ما السبب ولكن السعادة تغمرني عندما أفكر في شيء وأجد السحابات قد اتخذت شكله، دائمًا كانت تُشكل لي الأطفال.. وكأنها تشعر بي، هناك علاقة قوية بيني وبين السماء رغم بُعد المسافة.

ازدردت ريقها:

- تعلمين.. عندما تُحيط بي هزائمي أتخذ الليل سكنًا، يتلاشى خوفي منه عندما يستعمرني الحُزن، وكيف يخاف الشبيه من أصله؟ فالليل مُستقر الأحزان.

أمسكت بيدها فسرت رجفة في جسدها، صارت الارتجافة ملازمتها، استكملت بعد أن اطمأنت:

- أحيانًا أتأمل السماء وأتخيل سُلمًا يصل بي للقمر، حتى أتوسده وأكون قريبة من كل نجم أخبرته بما أحلم في يوم ما، نسيته أنا بينما طُبع على سطح النجم، أنا كثيرة الترحال يا "دفء" أجهل مواقع النجوم التي أودعتها سري وتركتُ معها أحلامي، ضاعا كلاهما مني.

قبضت على يدها بقوة، وقالت تمنحها الأمل:

- لازالت أمامك فرصة.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على طرف ثغرها، وتدفقت الدموع إلى عينيها فلا سقطت ولا عادت عن طريقها:

- وماذا يفعل من كان حلمه كقطرة في غيمة في أعالي السماء، فلا يطالها بيده ولا يعلم في أي مكان من أرض الله الواسعة ستسقط!

استقامت واقفة فجأة لعل الهم يختل توازنه فيسقط عن رأسها، عرضت على "دفء" وهي تشدها من ذراعها:

- لنُنهي ما جئنا من أجله، ثم لنذهب إلى برج الحمام، هل توافقين؟

رفعت "دفء" حاجبيها بدهشة:

- هل أخبرك أبي "رحيم" عنه؟



- "عرفت أني حامل بك منذ اسبوعين يا صغيري، لذلك قررت أن أكتب إليك حتى يتبقى لك شيء مني إن وافتني المنية كما حدث معي يوم ماتت أمي. لقد كانت حنونة وحضنها يؤويني وأنا أريد أن أكون مثلها معك، لكن حمدًا لله لم يبتليك بأب قاسٍ كوالدي الذي كان ينفر من البنات، عندما ولدت وعلم أن ما يكره كان، تبرأ مني قبل حتى أن يراني.. لم يتحسس أناملي لعل ملمسها يلين قلبه، كبرت ومضت الأيام وشدته تزداد، كانت أمي تواسيني وتختلق الأعذار حتى نفدت جعبتها وأصبح الصمت على أفعاله حليفها، ماتت وأنا ابنة تسع أعوام كمدًا على حالي.

لقد كان يرميني في غرفة خارج الدار دون سرير أو غطاء في الشتاء القارس، لم يكن يؤنسني سوى حضن أمي تسترق بضع دقائق تمدني فيهن بالدفء وتترك معي قبسًا من دموعها في ملابسي كمواساة، لكن عندما ماتت دُفن معها السبب الذي يجعلني أصمد أمام هذه المعاناة.

لا يسعني أن أقول لك لقد هربت، فمن يهرب يكون هناك شيء خلفه يلاحقه، أما أنا فقد رحلت وأنا أعلم أني حتى لن أسمع صوته يناديني.. يستمهلني.. يعطيني أملاً في غدٍ أفضل.. يُشفق عليَّ!

ذهبتُ إلى جدي والد أمي صُعق عندما رآني وسمع حكايتي وبكا بكاء مريرًا على خاتمة أمي، فقد كان ينهاها عن الزواج من هذا الرجل الذي استغل مشاعرها، ثم سألني كيف عثرتُ على مكانه فأخبرته أنها جارتنا أتتني بعد جنازة أمي وقالت لي أنها أودعتها مكتوبًا بعنوان منزله في أيام مرضها الأخيرة، وأمنتها إن حدث لها شيء أن تذهب بي إليه، وقد تركتني هذه الجارة أمام الباب وقفلت راجعة.

احتواني جدي واحتضنني يرمم ما بقي لديّ من أنوثة، عندما عايشت حنانه فهمت لماذا رفض زواج أمي من أبي، لكن أمي هربت مع أبي فتجرعت المرار، تساءلت حينها كيف كان لأبي كلمات ساحرة جعلت أمي تترك كل شيء وراءها وتهرب.. ثم

ماذا؟ بكاء كل ليلة وقهر وضرب وسب وظلم، عانت كل صنوف الألم ومع ذلك لم تستطع العودة لأنها خسرت كل شيء وكسرت كلام والدها وظهره، فكيف بعد أن شاب شعره في تربيتها تتركه خلفها لأجل غريب مريب!

أحضر لي مربية تدعى "رياح" وقد كانت بمثابة أم لي، حتى بعد أن توفى جدي وتلقفني أخوالي، أشفقت على حالي وأكملت رعايتي مقابل ثمن زهيد كانت في غنى عنه، إلى أن أتى والدك وخطبني منها بعد إذن أخوالي الذين لم يعبأوا كثيرًا بمآلي.

تعتقد يا ولدي أن هذه الحكاية غير حقيقية بل حتى غير قابلة للتصديق، أنا نفسي لا أصدق، لكن هذا ما كان.

لم أكن أريد أن تكون أول رسالة أكتبها لك بهذا الحزن، لم أرد لقلبك الصغير أن ينفطر لكنك مؤنسي من اليوم، وأريدك أن تعلم أنني سأضعكَ في عينيّ، لن أدع مكروهًا يصيبك ما حييت. "

كان يتصبب حزنًا ويسكب دموعه سكبًا وكأنها لقيطة لم تجد محبًا يقدر قيمتها ويوقف سيلها ويحفظها عن أعين الخلق، لم تكن تلك القصة ذاتها التي نسجها في خياله عن والدته، لقد كان يراها.. بل يراهما قساة أجهضاه من رحمتهما فالتقمته أذرع اليم الذي أخفض له جناح الذل من الرحمة رفقًا بحاله، وناوله لغريب على قارعته، حتى انتهى به الحال على سرير مهترئ بجوار جدار يحمل في ذاكرته صرخات كل رضيع سبقه، وقد أتى دوره ليخلد ذِكراه، قلب الصفحة:

- "أعلم أني لم أكتب إليك منذ وقت طويل، بل لم أكتب إلا مرة واحدة، ربما لأني لم أعتد على كتابة الرسائل لأحد، أو لأني على يقين أنه لا أحد سيهتم بقراءة ما أكتب، لكنك ستأتي وستغير الموازين.. أليس كذلك؟

في الحقيقة أنا لم أكتب إليك لأني كنت أمر بأيام ثقال، في كل مرة أردت فيها أن أكتب لك تذكرت رسالتي السابقة فأستحي منك؛ لا أريدك أن تمل مني.

لا أدري إن كان يجب أن أقول لك، لكني أراكَ مأمني في كل مرة أتحسس فيها رَحِمي أشعر بيدك تصافحني، فأطمئن.

لقد قال لي والدك أنه متزوج!

لا ليس عليّ بل أنا الزوجة الثانية!

لم أكن أعرف صدقني يا بني، ما كنت يومًا لأكسر قلب أم وأنازعها زوجها وقُوتها، وإن قبلت نساء الأرض أجمع لم أكن لأقبل، فلا يشعر بالمرأة إلا امرأة مثلها.

لا أرفض شرع الله بالطبع فأنا أقبل أن أكون الأولى لأني لا أمانع الفكرة، لكني أرفض بشدة أن أكون الثانية.. الآن في موقف صعب للغاية، لا أريد لك أن تنشأ بدون أب.

لا أدري كيف أقول ذلك لكن المريح في الأمر أنها لا تعرف أيضًا، لا أدري كيف استطاع أبوك خداعي هكذا، لقد خدعني!

ليتك معي لتخبرني ما الذي عليّ أن أفعل، هو يريد أن يذهب بي إلى بيتها، يأمل أن يكون بيتًا دافئًا، لكن كيف؟ كيف سيكون وهو الوحيد الذي يرضى عن هذا الأمر؟ علمتُ أيضًا أن له بناتًا.. ثلاثة.

عليّ الذهاب الآن..

ملحوظة:

تسلمتُ رسالة من مكتب البريد تخص والدك، لاحظتُ أنهم يكتبون تاريخًا لها، إنه أمر رائع حقًا، من الآن فصاعدًا سأبدأ بتأريخ رسائلي.. أو مذكراتي.

أُحبك.

آه صحيح لقد نسيت التاريخ..

٤ /٧"

- "٩ / ٧

والدكَ مُصر أن يجمعني وزوجته الأولى في منزل واحد، لقد تشاجرنا كثيرًا و..."

- "١٧ / ٧

لقد دخلنا للبيت منذ قليل وقد قابلتني زوجة أبيكَ بحفاوة، بصراحة لقد فاجأتني وهي ترحب وقد أعدت لنا من صنوف الطعام الـ..."

- "١٩ / ٧

قلبي غير مطمئن أبدًا لمعاملة زوجة أبيك لي بكل هذا الوِّد، رغم سلوك بناتها العدواني خاصة بعد معرفتهم جميعًا بحملي بكَ، أتعلم إنها كبيرة للغاية تكاد تقارب أمي في العمر لكني لا أجرؤ على سؤالها عن سنها، أشعر أحيانًا أنها والدة أبيك!

...

هناك شيء جاء ببالي شيء وأنا أغسل الصحون: أنا أتحدث إليك بصيغة المذكر، لكن صدقيني إن أتيتِ فتاة فهذا مُحبب لقلبي وأعدكِ يا صغيرتي لن أجعلكِ تعانين ما عشته أبدًا، إن كنتِ فتاة فدفء يغمرني وإن كنتَ رجلاً فحصن يؤويني"

- "٢٥ / ١٠

أعلم أني لم أكتب إليك منذ وقت طويل ولكن منذ أن أتيت إلى هنا وهناك عيون كثيرة حولي تترقب كل إيماءة أقوم بها، وأنا لا أريد لأحد أن يعلم شيئًا عن هذه المذكرات، لو علموا حقيقة الأمر سيهزأون بي لأني أكتب لجنين!

حتى أنت قد تتعجب عندما تقرأ هذا، لكنك الشخص الوحيد الذي آمَن عندما أشعر بحركتك داخلي، أنتَ مني وأنا منك.

بصراحة ليست سخريتهم هي السبب الوحيد بل إن هناك شعور غريب يدفعني للكاتبة إليك، كأني لن أعيش معك طويلاً.. لا أريد أن أكون متشائمة ولكن من يعيش أزمة في حياته يظل طوال عمره خائفًا أن تتكرر مع أحبائه، لقد رحلت أمي ولم تترك لي عبقًا من ريحها، وأنا أحسب حساب هذا اليوم حتى وإن لم يحدث، أتمنى ألا يحدث وأن نقرأ هذه الكلمات معًا ونضحك عليها وأنت هنا.. هنا تمامًا في حضني"

❈❈❈❈❈❈❈

- إذًا فجميع اللوحات المُعلقة في بيت الشجرة من صنعك؟

هزت رأسها نافية وهي تشير لبرج الحمام:

- التي في غرفتي فقط، أنا أحتفظ بلوحاتي كلها عدا واحدة، البقية لـ "زمن".

- هل كانت ترسم؟

أخذت حفنة من الفتات المُلقى على الأرض فرفرفت حمامة بيضاء ووقفت على ذراعها تقتات بحذر، استكملت "دفء" وهي تجتر الذكرى:

- نعم، أنا لم التقِها من قبل، هل تودين معرفة ما حدث؟

أومأت برأسها إيجابًا، فقالت بعد تنهيدة قصيرة:

- كنت في العشرين من عمري عندما ذهبت مع صديقاتي في رحلة لأحد الأماكن الأثرية، كان هناك شعور غريب يغمرني متمازج بين حزن عميق وسعادة طفيفة، ابتعدت عن صديقاتي وجلست وحدي أتابع ضحكاتهن وما شعرت بنفسي إلا وأنا أرسم.

جلس بجواري ولم أشعر بوجوده أبدًا فقد كنت منهمكة في لوحتي، بدأ يُتمتم بكلمات غير مفهومة، نظرت إليه محاولة رسم ابتسامة ودودة لم أستطع أن أُخفي خلفها علامات التعجب التي بدأت تحوم داخل راسي، فبادلني بابتسامة أبرزت تجاعيد وجهه لكنها ما استطاعت أن تخفي تقاسيمه الجميلة ولا الحزن بين جفنيه، قال بشيء من السعادة التي تحمل بين طياتها حسرة لاذعة وكأنه فضح اندهاشي وأراد أن يبدده وفي الوقت نفسه يكون قد وجد أحدًا يُشاطره حزنه:

- في مثل هذا اليوم وهذا المكان بجلستكِ تلك وابتسامة تشبه ابتسامتكِ كثيرًا، كانت ترسم وبيدها اليُسرى أيضًا.

صمت لوهلة ثم ابتسم وبعينيه بوادر دموع:

- لابد أنها قاعدة الأربعين شبيهًا، أنتِ عندما تريدين أن تقابلي شخصًا تحبينه ولو لمرة واحدة، فإنكِ تصادفين كل أشباهه ولا تقابلينه.

أكمل بعد صمت وجيز:

- رأيتها من بعيد وجلست بجانبها خلسة من دون أن تشعر، فقد كانت منغمسة في لوحتها فلم تنتبه لوجودي، راقبتها في صمت سحيق مستمتعًا بتمايل القلم في يدها، وذاهلاً أمام تلك الخربشات التي كانت تستحسن بعضها فتُبقي عليها وتمحو بعضها الآخر حتى ظهرت أمامي صورة لفتاة صغيرة تبكي، ورغم أني كنت أتابع كل التفاصيل إلا أني لا أعلم كيف أبدعتها، لاحظتْ مراقبتي لها ولكني لم أنتبه لتركيزها معي فقد كنت منهمكًا في تفسير ما شكلته، باغتتني:

- أعجبتك؟

أجبتها وقد بدى الخجل على وجهي:

- أجل إنها رائعة حقًا.

كنتُ أحدق باللوحة في ذهول، فندت عنها ضحكة خجولة مكتومة وهي تمدها لي:

- إذًا فهي لك.

اجتاحتني الدهشة، ولكني هممت بأخذها فأي شيء سيذكرني بها لن أفرط به ونظرت لأشكرها ولكني لم أجدها.

كنتُ صامتة أستمع إليه في ذهول فقد أجبرني صدق مشاعره الذي استنبطه من كلماته أن أصدق في انصاتي له، ثم إنه كانت لدي قناعة قوية أنه لا يوجد رجل يسمح لدموعه أن تنهمر أمام الملأ هكذا ولا يبالي إلا وقد بلغ الحزن في فؤاده مبلغًا عظيمًا، وقد بدا لي أنه شخص حازم يحمل بين لفائف حزمه حنانًا يتدفق، نظرتُ إليه باهتمام بعد أن تركت له وقته ليمسح دموعه التي أبت إلا أن تتسلل بين حين وآخر أثناء حديثه، فأكمل متجاهلا لها:

- لقد كنت آتي إلى هنا يوميًا وأنتظر آملاً أن أراها، وبالفعل رأيتها مرة ثانية وثالثة، ولكني لم أسمح لها برؤيتي أبدًا، لا أدري لماذا، شعور ما كان يخبرني أن هذا هو الافضل.

ولكن أتعلمين... لقد ندمتُ كثيرًا لأني انقدت وراء شعوري هذا، ذلك لأني لم أستطع رؤيتها لمدة شهر بعدها، فقط لو ندرك أن الأيام عندما تعطي فرصة فإنها لن تعطيها ثانية، وإن فعلت فإنها هدية عظيمة من الله، وقد كانت هذه المرة الأولي التي أُهداها، في الحقيقة لقد كانت الثانية؛ فهي في ذاتها كانت هديتي الأولي ومصادفتي لها بعد أمل ذبل ولكنه يومًا لم يمت كان هديتي الثانية.

عندما رأيتها هرولت إليها وكأنه أملي الأخير، وكأني أدركت أخيرًا أن من يفوت الفرصة فسيترتب عليه الكثير من الالم ليصادفها مجددًا، وقفت أمامها ومن دون مقدمات قلتُ لها أن حبها استقر في فؤادي بل وأصبح يمتلكه، وكأن قلبي وُلد بين كفيها ولكني لم أرَهما إلا عندما قابلتها.

صمتَ لوهلة بعد ابتسامة حملته لتلك اللحظة فأصبح سعيدًا، وتمنى أن تأسره بها أبد الدهر.. لكنه سرعان ما عاد لواقعه مستكملاً سرد حكايته فأي شيء سيذكره بها لن يفرط فيه، هكذا قال وهكذا يفعل الآن:

- وتزوجنا، وقد دخلت حياتي ولملمت شتات روحي وصنعت منه عشًا صغيرًا كنت أشعر بداخله بالأمان، تحملتني بعصبيتي وعنادي، بل بالرغم من ذلك كانت دائمًا ما تقول لي أني حنون، مع أني لم أستشعر ذلك قط في شخصيتي، فبت أصطنعه لأجلها حتى امتزج بطبعي، لقد مررنا بكل شيء سوية، كنت أستطيع القيام بكل الامور طالما هي بجواري، وفي أشد لحظات عجزي لم تكن تشعرني إلا بأني ملجأها وأنها تستمد قواها مني ومن ثباتي، فكنت أستعيد الأمل وأحطم أي شيء يريد أن يحطمني لكي لا أخذلها

نظر للسماء، وتنهد بعمق:

- لقد دخلت عالمي الصغير فأنارته وخلفت في داخلي أملاً يدفعني لأعيش.. لأتقدم.. لأسعى لإرضاء إلـهي ثم إرضائها، جعلتني أفعل مالم أظن يومًا أني فاعله، كنا ننزل أول أيام العيد ونوزع الحلوى والبالونات التي أمضينا الليل بطوله في نفخها، والقصاصات الملونة على الاطفال ونشاطرهم ضحكاتهم وبهجتهم.

كانت تحمل ابتسامة رائعة تجذب ببراءتها كل ناظر، وكيف لا وقد أسرتني منذ أول لقاء لنا.

تبدلت نبرته وخفتت:

- حتى منذ عشر سنوات من الآن رحلت وتركتني.

حاول إمساك دموعه بجسارة زائفة ولكن محاولاته باءت بالفشل، فاستكمل وكأنه يُذعن أن هناك أشياء أقوى من أن نتحكم بها:

- في وجودها لم أكن أشعر بقيمة المكان الذي تجلسين فيه الآن، لم أكن أبتسم لأني أراه بل كنت ابتسم لأني أراها، أما الآن فإني أبتسم لأني أراه وقلبي يحترق لأني لا أراها.

تنهد بعمق حتى خمدت نيران الشوق تاركة رماد الذكريات، قال يرثي حاله:

- لقد تحققت جميع أمانينا عدا الموت معًا، جعلتني أعاني مرارة الفقد مرتين، لكن في المرة الاولى كان لديَّ أمل برؤيتها أما هذه المرة فلا يوجد بداخلي غير شوق يُعجزني، منذ عشر سنوات وأنا أعاني من العجز الذي استفرد بي

بعد أن رحلتْ لأنه يعلم أنها الوحيدة التي كانت تدفعه عني، وماذا يفعل طفل صغير ماتت والدته فظلّ يتخبط بين البشر ملتمسًا الأمان في أحدهم فلا يجد.

وأنى له أن يجد!

استدعاه الصمت إلى صومعته فخرَّ صعِقًا، ثم أفاق وهو يُتمتم مُستشعرًا كلماته:

- صدقيني يا ابنتي إن أقصى أنواع الألم أن تعيشي مع شخص لم يعد حولكِ، ترينه كل يوم في منامكِ وتتشبثين بيديه لكي لا يتركَكِ.. فتنسل يده من يديكِ حتى يتبخر تاركًا لكِ بقايا عطره في راحتيكِ.. فتحاولين إبقاءه ولكن لا تستطيعين، وتتمنين لو كان شيئًا ملموسًا لتضميه إلى صدركِ وتحملينه طوال عمركِ وتجيبين كل من يسألكِ عنه أنه بقايا عزيزٍ غاب ولم يتبق منه سوى ريحه لتطمئنكِ!

جلس يكفكف دموعه بأكمام قميصه، وقد اقشعرَّ فؤادي حزنًا عليه ورأفة بحاله، ووجدتني ابتسم وأنا أمد يدي إليه باللوحة، لا أدري لماذا فعلت هذا ولكن شعورًا ما أخبرني أن هذا هو الأفضل:

- تفضل إنها هديتي لك.

جلست "دفء" على المقعد، وأضافت بشيء من التأمل:

- سبحان الله، مضت بعدها شهور دون أن أراه، وبعدها وجدتني في منزله وقد أنقذني من موت محتم، اعتنى بي كثيرًا وتعب معي حتى تعافيتُ تمامًا، كان طوال هذه المدة يُحدثني عنها، لم أرَ مثل هذا الحب في حياتي!

ثم مع الأيام آواني في منزله، وتزوجت ابنه، فسبحان من جمع دربينا يا "لارين" والله لا يُضاهيه أحد في حنانه عليّ، أنا مدينة له بكل ما تبقَ من عمري.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

- ١٣" / ١١

أنا سعيدة للغاية، فوجئت بمربيتي التي أتت لزيارتي اليوم، كنت قد أعطيتها العنوان قبل رحيلي لكني لم أتوقع أبدًا أنها ستأتي، خاصة بعد هذه الشهور الطوال التي مرت وقطعت أملي في مجيئها، ليس هذا فقط هو السبب الوحيد لانشراحي بل لأنها قالت أنها ستسكن على مقربة مني حتى يتيسر لكلانا رؤية بعضنا، أكاد أن أطير من

فرط الابتهاج، فقد عوضني الله بها بعد موت أمي. أحضرت لي معها بروازًا يحتوي على أبيات للإمام عليّ بن أبي طالب، فقد كانت مولعة به، وأحضرت أيضًا.."

- "١٩ / ١١

لقد ضقت ذرعًا بزوجة أبيك تلك، لا أدري ما الذي حدث لها منذ مجيء أمي "رياح" لزيارتنا، يبدو أن أمي على حق فمنذ أن رأتها وهي تحذرني منها ومن مكرها، لم أكن أصدق لأنها منذ يومي الأول وهي تعاملني بلطف غير مبرر، أما الآن بعد أن طردت أمي.. أجل طردتها ليس هناك وصف آخر لما فعلته، سأتوخى الحذر. "

- "٢٧ / ١١

اعذرني على غيابي، رأتني إحدى بنات زوجة أبيك وأنا أُخفي مذكراتي، لقد لاحظت طيفها لكنني تصنعت أني لم أرها، وقبل المغيب ذهبت إلى أمي وأخفيته عندها، سيكون لديها بعد اليوم وسأكتب لك كلما أتيت إلى هنا"

- " ١ / ١

لقد اقترب قدومك يا صغيري، أنت لا تدري كم أعد الأيام بشوق.. "

أغلق "بحر" الدفتر وقد ضاق صدره وفاضت عيناه، وقف يتأمل الشمعة التي أوشكت على النفاد ومع ذلك تتصلب في سعيٍ دؤوب للمحافظة على ما تبقى منها غير مدركة أنه إن لم تتوقف النار التي تأكلها فإن تماسكها لن يجدي أي نفع.. حالها كان يشبه حاله، الفرق أنه كان مدركًا، لكن ما نفع الإدراك إن لم يعرف كيف سيطفئ ناره؟ ليس له أي فائدة وإنما يزيد اللهيب اشتعالاً.

أطفأ الشمعة بإصبعه لعل استعار أفكاره يتوقف، لكن رغبة إكمال ما قرأه تملكته، ألم يكن يبحث دومًا عن أصله؟ ألم يكن يرفض مجرد فكرة أنه قد يكون أتى من الحرام؟ لقد وضع الله بين يديه ما يبرئ والديه من الإثم الذي كان يُلحقه بهما بظنه.

ألقى نظرة على "نقاء" الذي يقف عند النافذة يقبض أصابعه بقوة وكأنه يُثبت نفسه ويحاول ترك مساحة لصديقه، كان يعلم طبع "بحر" جيدًا، فهو لا يحب البكاء أمام أحد، أي أحد.. عدا "نسيم"!

أوقد شمعة أخرى وأغمض عينيه فتتابع السيل المنقطع:

- "٩ / ١

ليلة البارحة كنت متعبة جدًا ونهضتُ إلى الحمام بهدوء لأنهم جميعًا نيام، لقد سمعتُ زوجة أبيك وهي تتوسل إليه أن يخبرها بشيء ما، بصراحة لقد استرقت السمع وقد كانت تطلب منه أن يخبرها مكان النقود فكان جوابه أنها لي ولكَ يا صغيري، شعرتُ بالأمان والريبة معًا، عدت أدراجي إلى غرفتي وقد ذهب الألم الذي جعلني أنهض.

وعندما استيقظت أتيت إلى هنا، لقد قالت لي أمي أنه بانتظارنا أيام ثِقال. "

- "١٢ / ١

لقد مات والدك بالأمس يا صغيري، مات قبل أن يراك وتضم أنفاسه أنفاسك.. لقد قتلته، قتلته، قتلته.. هي الفاعلة"

- "١٥ / ١

عليّ أن أعترف لك بشيء، في صبيحة الليلة التي قُتل فيها والدك، وأنا مصرة أن أقول قُتل وسأخبرك لماذا، لقد سمعته يخبر زوجته بمكان المال الذي ادخره لنا ففزعت من فوري أتحامل حتى وصلتُ إليه، لقد كان مالاً كثيرًا.. أكثر مما تظن، في الحقيقة لم آمن مكرها وقد كان معي كيس صغير ومنديلان قماشيان ملأتهما عن آخرهما ودقات قلبي تتسارع، وجئتُ إلى أمي وأخبرتها بالمكان فذهبت ليلاً وأحضرت البقية، وعندما استيقظنا فوجئنا به ميتًا،

كانت هناك ثلاث فتيات يتبادلن الأدوار في تنظيف المنزل اثنان منهما متزوجتان وواحدة في مقتبل العمر وقد كانت الذراع والعين لزوجة أبيك، إن بعض الظن إثم لكنني أشك بها. "

طوى الصفحة فوجدها فارغة من أي كلمة، فتش جيدًا في باقي المُذكرة لكن ليس هناك أي شيء، إذًا فقد كانت هذه رسالتها الأخيرة.

من دسَّ هذه الأشياء في بطانة البرواز إذًا؟ لا بد أنها المربية "رياح" من غيرها سيفعل وقد كانت الأقرب لـ..لـ.. أمي!

همس بهدوء وكلماته تنازع ألمه:

- أحيانًا المعرفة وحدها تكفي.

❋❋❋❋❋❋❋

صور قديمة للذكرى.

- إلى أين في هذا الوقت يا "لارين" يبدو أن السماء ستمطر.

استدارت وهي تستند على الباب لتجيبها:

- أشعر بضيق وأريد أن أتمشى قليلاً.

- هل آتي معكِ؟ لا أريد تركككِ بمفردكِ.

تقدمت ناحيتها وقبلت رأسها، قالت بخفوت:

- لا تقلقي سأكون بخير.

استسلمت الأخيرة وودعتها، نزلت "لارين" عن السُلم الخاص ببيت الشجرة فنادتها "دفء" تستوقفها، ثم رمت إليها شالاً طويلاً، وقالت:

- احذري أن تمرضي، لفيه حولكِ ولا تبتعدي.

اكتفت "لارين" بإيماءة برأسها، سارت بخطوات حائرة ودموع محبوسة في عيناها، أرادت البكاء فاستدعت الدموع لكنها أبت تلبية دعواها، فركضت... ظلت تركض وتركض في خط مستقيم حتى أُنهكت قواها لكنها قاومت ولم تتوقف حتى انقطعت أنفاسها، تمهلت في سرعتها تدريجيًا، انحنت راكعة تحاول جمع أنفاسها، رفعت عيناها إلى السماء وصدرها يعلو ويهبط بقوة، وضعت يدها على قلبها وهي تتنفس من فمها حتى هدأت، ثم عاودت المسير بهدوء ورأسها يضج بالكثير من الأفكار، لأول مرة تشعر بالتيه والضعف بهذه الطريقة، كانت خواطرها تتصارع حتى سقطت قطرة مطر على خدها فتدفقت الدموع بعدها، سمعت صوت بكاء مكتوم فاقتربت أكثر لتجد فتاة يافعة تقاربها في العمر تجلس أمام صخرة وتبكي وهي تغمس ورقة شجر في لون أخضر سائل ثم طبعتها على ورقة في دفتر كان معها، وأعادت الكَرة وطبعتها على الصخرة، اقتربت "لارين" منها كانت تشعر أنها تعرفها لقد رأتها من قبل لكنها لا تتذكر أين، اقتربت منها أكثر وجلست قبالتها، انتبهت الفتاة، فسألتها "لارين" بفضول:

- أشعر أني أعرفكِ!

مسحت الفتاة دموعها وركزت في عينا "لارين" تتفحص ملامحها، ثم هزَّت رأسها نافية، وقالت بصوتها الرقيق الذي جرحته العَبرات:

- لا، لم أركِ من قبل.

جلست بجانبها ووضعت يدها على كتفها محاولة تقديم بعض المواساة لما لاحظت دموعها:

- لماذا تبكين؟

لملمت الفتاة ألوانها ووضعت ورقة الشجر بين أوراق دفاترها، فاستوقفتها "لارين" قائلة وقد بدا عليها الحرج:

- لم.. لم أقصد إزعاجكِ، سأرحل حالاً.

قامت "لارين" من مكانها متأهبة للرحيل، فأوقفتها قائلة:

- لا أبدًا لم تزعجيني، أحيانًا نحتاج إلى البوح حتى ولو لغريب.

عادت لمكانها، وابتسمت:

- أسمعكِ.

أشارت الفتاة إلى الصخرة، وقالت بعد تنهيدة قصيرة:

- إنه قبر أمي، ماتت قبل سنتين من الآن، آتي هنا في كل عام وألتقط ورقة شجر من على قبرها وأغمسها باللون الأخضر وأطبعها على قبرها وفي دفتري ثم أكتب تاريخ اليوم وأحتفظ بأوراق الشجر.. أواسي نفسي بشيء كانت تحبه.

لم تُعلق "لارين" فوقفت الفتاة وسارت بضع خطوات مبتعدة عنها، ثم أشارت لها لتتبعها فلحقت بها وصلتا عند مقعد خشبي قديم يقع بين جزعي شجرتان ساقطتان بدا أنهما في مكانهما منذ عهد بعيد، جلست الفتاة عليه، وقالت وهي تمسح عنه الغبار:

- كانت أمي تأتي إلى هنا كثيرًا وتكتب الرسائل، ثم تحتفظ بورقة شجر تخليدًا لذكرى الرسالة، لكن هذه الرسائل باتت من حق شخص آخر، فاحتفظت أنا بأوراق الشجر.. يكفيني أي شيء من عِطر أمي.

ربتت "لارين" على ساقها، وتمتمت بالدعاء، ثم سألتها:

- لم تخبريني ما اسمك؟

قالت وهي تضع الحقيبة على ظهرها:

- "كسوف" عليّ الذهاب الآن، شكرًا لأنك أصغيت لي.

لم تنتظر سماع ردها وركضت، فتابعتها "لارين" لتجد شابًا يافعًا يشير إليها من بعيد، فابتسمت وعادت أدراجها، قادتها قدماها إلى منزل العم "رحيم" لم تدرك كيف وصلت بهذه السرعة، لقد غرقت في أفكارها كالعادة، صعدت على السلم الخشبي وجلست عليه لتلاعب نسمات الهواء الدافئة وجهها وكأنها تواسيها، إنه شعور غريب لكنه جميل أن تكون قطعة من الأشياء العُليا، فلا أنت ورقة شجر ولا سحابة ولكنك تستطيع أن ترى نفسك بينهم وتتذوق اللذة، وقعت عيناها على شجرة الأقحوان، تلك التي حدثتها "دفء" عنها وكيف وجدت "جاسرًا" مدرجًا بدمائه هناك، لا تدري كيف تتحمل رؤية هذه الشجرة كل يوم! فلو كانت مكانها لاستأصلتها من جذورها أو لهربت من هذا المكان وما عادت إليه أبدًا، لكنها قررت البقاء ومواجهة خوفها فقط لأنها تعلم مدي تعلق العم "رحيم" ببيت الشجرة، لقد لاحظت تعلقه رغم أنه لم يذكر سيرته أمامها، لكن الحب يظهر دومًا بغير حاجة لأن يُنطق به، تتساءل عن سر حبه للمكان، تُرى هل بناه مع "زمن"؟

ظل سؤالها معلقًا في ذهنها عندما رأت الشجرة التي دفنت تحتها الكتاب الغريب الذي وجدته في الغابة، ضيقت عيناها وداعب روحها نفس الشعور عندما وجدته بادئ الأمر فنزلت عن الدرج وتوجهت صوب الشجرة وكأنها تحفظ الطريق، لم تحتَج إلى العلامات التي وضعتها لنفسها، حفرت بحماس فهي تغيب عن الواقع تمامًا كلما قرأت في ذلك الكتاب الغريب، وكان ذلك ما تحتاجه تمامًا، قرأت من حيث توقفت آخر مرة:

- " ظننت أني ضيعت "روح" للأبد، لكنها ظهرت في اليوم التالي، ذهبت إلى هناك علني أجد أي شيء يقودني إليها، فوجدت الدار طُليت، وهناك أرجوحة عُلقت على جذع شجرة، نظرت من النافذة كان الأثاث كله قد تغير وأصبح كل شيء ملون باللون الأخضر والأبيض، لقد تجدد كل شيء في الدار، احتضنتني من ظهري فأبعدتها، قلت برفق:

- لقد اتفقنا أن ما يبدأ بطريقة لا ترضي الله سينتهي نهاية لن ترضينا.

شعرت بالحرج مني ونظرت للأرض، قالت:

- أردت التعبير عن اشتياقي فقط.

قلت لتغيير مجرى الحديث:

- متى صنعتِ كل هذا؟

- لم أنم أبدًا حتى انتهيت، أعجبك؟

نظرت إليه أتأمله وأنا متعجب من هذه الرقة التي في أركانه:

- إنه مناسب تمامًا لكي يحتضن بداخله سحابة، لاق عليك هذا الفستان الأبيض كثيرًا.

أصبح الحياء ثوبها بعد كلماتي، قالت:

- أي نوع من الأزهار تحب؟

- الأقحوان.

- كنت أعلم، أغمض عيناك وتعالَ معي، لا تفتحهما، هيا سأشدك من طرف ثوبك ولن ألمسك لأن الله يرانا وسأرضيه كما علمتني.

أتذكر أني ابتسمت حينها بسعادة لم أشعر بها من قبل، تبعتها حتى قالت:

- افتح عيناك.

كانت تقف وفي عينيها لمعة شغف وتضم يداها إلى قلبها، لقد غرست شتلة أقحوان أمام المنزل، ضحكت من فجأتي:

- كيف عرفت؟ لقد أخبرتك توًا.

- كلما مررنا بزهور أقحوان كنتَ تغمض عيناك وتستنشق عبيرها، هل لي أن أحتضنك الآن؟

- أستحي من ربي أن أُغضبه.

نظرت للشجرة العملاقة التي بجوار المنزل، قلتُ وأنا غير جاد في كلامي:

- سيكون رائعًا لو بنينا بيت شجرة على هذا الغصن المتين.

قفزت بحماس:

- هل أنت جاد، أنفعل؟

لم أستطع التراجع عن كلامي بعد أن رأيت فرحتها، أجبت:

- من الغد إن أردتِ.

- بل اليوم. "

أغلقت "لارين" الكتاب في صدمة، نظرت لبيت الشجرة والمنزل الذي أسفله، وشجرة الأقحوان التي دُفن "جاسر" بجوارها..

رأت أحدًا يقترب من بيت الشجرة فأعادت دفن الأشياء وركضت إليه ودقات قلبها تتضارب، سألته عن العم "رحيم" لكنه أخبرها أنه أتى ليبحث عنه، ثم قال وهو ينظر لعيناها المرهقتان:

- لقد أخبرتني "دفء" أن والدك حديث الوفاة، ليُرضي الله قلبه بمكان عالٍ في الجنان.

غيم الحزن على عينيها ففاضتا دمعًا من دون أن تدري:

- رضيت بالصبر نصيبًا مفروضًا بعد الآن.

- تعالي لنجلس هناك ونتسامر حتى يأتوا.

لم تتردد في الموافقة، أحكم ذراعه على حقيبته وسار بضع خطوات فانقادت خلفه دون أي كلمة حتى وصلا إلى شجرة الأقحوان، أسند ظهره إلى جذع بجوارها وجلس متأوهًا، قال بنبرة ضاحكة:

- لقد هرِمنا يا ابنتي. لكَ الحمد يا ذا الجود والمجد والعُلا..

تباركت تعطي من تشاء وتمنع.

أشار إليها فجلست أمامه، قال موضحًا:

- إن قلبي مُتيم بحب الإمام عليّ وهذه الأبيات تُنسب إليه، وكل ما يُنسب للحبيب حبيبُ.

أمسك ببعض الأعشاب أسفله وبدأ يُمزقها بوهَن وهو يغير مسار حديثه:

- ذلك القبر الذي قابلت عنده "كسوف" يضم جسدًا تحررت روحه وسكنت في قلبي، ومع أنها تسكن داخلي إلا أن روحي من فرط الحنين تشتت.

صُعقت:

- هل تعرفها.. بل هل رأيتني؟

- كنت في طريقي لزيارتها، وعندما وصلت إلى القبر وجدت "كسوف" فتواريت منها حتى تأخذ راحتها، ثم أتيت أنت.

قال يطمئنها:

- صدقيني لم أسمع شيئًا من حديثكما.

ثم داهمها سائلًا لا ينتظر منها جوابًا:

- هل تعلمين كيف يعاني من رحل عن أحبائه ضامنًا أنه حينما يرجع سيجدهم، وعندما يعود لا يجد سوى بقاياهم؟ إننا نتعامل مع الدنيا كدار خلود، نترك كل شيء خلفنا ونولي من أحببناهم ظهورنا، ظانين أن الحب وحده سيبقيهم ويبقينا، ولا نستفيق إلا عندما نستدير فنجد الأيام قد طوت صفحتهم فمنهم من مات ومنهم من نسي، ولا يتبقى لدينا سوى مخزون الذكريات الذي لا يتوقف عن تكرار نفسه.

أنزل حقيبته عن ظهره، وأخرج منها كيسًا قماشيًا صُنع يدويًا لونه وردي وعليه ورود صغيرة بيضاء مُتداخلة في بعضها، ويتدلى منه خيط فضيّ رفيع يُحكم إغلاقه، قال وهو يتحسسه بأطراف أصابعه ويفك عقدته:

- لقد صنعته بيداي وأنا في القطار الذي رحلت به عن أصدقائي، وكان عمري حينها اثنان وعشرون عامًا، كانت هذه القماشة لـ "نسيم" تربط بها مقدمة شعرها المموج لتبعده عن عينيها اللامعتين فيضيء قلبي من مشرقه إلى مغربه.

أضاف بعد ابتسامة حنين صغيرة راودته عن نفسه فانصاع لها:

- أخذت هذه القماشة خلسة من دون أن تعلم، كما رحلت بغير علمها أيضًا.

لاحظ الاستفهام يُطل من وجهها، تجاهله مستكملًا وكأنه يتبع ترتيبًا معينًا للكلمات في ذهنه ولا يريده أن يختل:

- استيقظت من النوم حينها وظلت تبحث عنها، وبحثت معها متصنعًا أني لا أعرف مكانها، ثم فاجأتها في عصر ذلك اليوم الذي نويت أن أرحل فيه وقد اشتريت لها واحدة أُخرى، رأيت هذه القماشة الحمراء اليوم معقودة على شعر "كسوف" وجنتاها ورديتان وكأنها قد اقتبست من حمرتها.. تشبه "نسيم" تمامًا، تعجبت أن "نسيم" لا زالت تحتفظ بها وبدورها حفظتها ابنتها، يسري الإخلاص في عروق هذه العائلة، كما سرى حبها في عروقي.

سكت بينما ثرثرت عيناه بأحاديث كثيرة، سرعان ما كشف عنها قائلاً:

- لقد كانت السعادة تفيض بداخلي عندما أكون أنا الملبي لكل احتياجاتها ورغباتها، حتى أنني كنت أتسبب في ضياع بعض أشيائها عمدًا ونحن أطفال ثم أجدها فتراني بطلها المتيم الهمام الذي لا يتوقف حتى يجيب استغاثتها وينهي لهفتها ويرضيها. لقد لازمتني هذه العادة منذ الصغر، فقد كانت الطريقة التي كانت تقدر بها كل صنيع أفعله لها كافية لأن أضع روحي في كفيها وأنا راض.

- اعذرني، ولكن إن كان كما تقول... فلِما رحلت؟

باغتته بجملتها التي ثقبت فؤاده، إنه السؤال الذي يهرب من إجابته دومًا لجهله بالجواب، سالت كلماته مع أدمعه مُكملاً وكأنه لم يسمعها:

- يومها كنت معلقًا بين التشبث بالبقاء والأمل في الرحيل وتحقيق الحلم، لكن كما هي عادتي دومًا، فضلت المجهول على المضمون ورحلت، تبدل تعلقي الممزوج بالحيرة لتعلق يخالطه الشوق، وظللت هكذا معلقًا من قلبي بحبال غليظة تربطني بهم، ورغم مقاومة دامت سنوات وسنوات انتصر الشد على المقاومة فجرني قلبي إلى هنا مرغمًا بعد أن أدرك أن الأجل قد يحين في أي لحظة، فسابقت الأجل حتى ظننت أنني سبقته عندما قابلت "نقاء" لكن الأجل كان قد رحل ومعه روح حبيبتي وترك لي رسالة قاسية على لسان صديقي يخبرني أن الأجل قد وصل قبل عامين وأخذ "نسيم" بينما أظن أنا أنه لازال في الخلف.

- ما سبب رحيلك، هل سببه مهم لهذه الدرجة؟

كررت السؤال الذي يشغل بالها منذ أن جلست، وباله منذ أن هاجر:

- لأجل أن أشتري فيلاً، أجل كان هذا هو السبب، سأخبرك لماذا الفيل خصيصًا، لكنها كانت حاجة في نفسي لم أقضها فعدت محملاـ بالخيبات كان الجميع يستهزئون بي وبحلمي، لم يزدني ذلك إلا إصرارًا وتثبيتًا، بينما كانت "نسيم" الوحيدة التي آمنت بي، كانت تخبرني دومًا أن حلمي قابل للتحقيق طالما أؤمن به وأريده، ثم راحت قربانًا لإيمانها بي، لقد ثبتت قدماي على بداية الطريق الذي ذهبت منه وتركتها خلفي تئن، طعنتها في الموضع الذي داوتني فيه، أتت خيبتها من السبيل الذي كانت تدفعني لأسير فيه وتوقد الأمل داخلي لأتابع خطواتي إليه.

تنهد تنهيدة طويلة، بدا وكأنه يقلب شيئًا ما في رأسه، ثم استطرد وقد اصطفت كلماته تباعًا في مقابلة العجب الذي تحمله في عينيها:

- بعض الذكريات لا تحتاج صورًا كي نتذكرها فهي محفورة بداخلنا تراودنا متى شاءت فننصاع لها متلذذين بعذابها.

أما عني فأنا أعيش أدق تفاصيل ذكرياتي، وما هذه الصور إلا دليل على أني لا أستطيع التخلي عما يؤلمني ففيه هنائي وشقائي معًا، إنها مجرد شاهد عيان.. شاهد على هزيمتي، كانت هذه الصور أملًا لي فيما مضي لكنها الآن تبرهن للجميع أنني خسرت رهاني، وأملي.

علقت الدموع في عينيه، تجاهلها ورسم ابتسامة رقيقة على طرف فمه فضمت التجاعيد بعضها، أخرج إحدى الصور ووضعها في راحتيها، قال موضحًا ما تركه بلا تفسير:

- ذلك الفيل هو أول فيل رأيته في الواقع، أخبرني حينها السائس أنه إذا نفخت في خرطوم الفيل فإنه لن ينساك أبدًا حتى لو لم يرك مُجددًا، لم أصدقه حينها لكنه أقسم لي أنها الحقيقة، لقد ضغط على نقطة ضعفي، وأنا الذي لا يتذكره أحد من عائلته، تركت هكذا في قارب صغير بجوار برواز للإمام عليّ بن أبي طالب، حتى اسمي اكتسبته من المكان الذي عثروا عليّ فيه لم أسمعه من أبي وهو يهمس به في أذني، أو لعله سماني قبل موته، ولكن ما الحاجة لتسمية شيء ستتخلى عنه أو ستجبرك الحياة على تركه!

أنا حتى لا أتذكر أمي ولا يسعني تخيل ملامحها الحنون، وهل يصح لي أن أصفها بالحنان وأنا لم أره منها؟

صمت هنية، استكمل بعدها وقد أشفق عليه صوته فخرج منكسرًا مبحوحًا:

- أتذكر..

إنها كلمة ثقيلة على قلبي، قررت حينها أن يكون لي فيلي الخاص الذي لن ينساني ولن أنساه، سنظل على العهد ما حيينا، لم يكن أحد يقدر ماذا يعني هذا الحلم الصغير لطفل البحر، كيف اشتاق أن يطبع نفسه في ذاكرة أحدهم.

ضحك يقاوم دمعة تلح على الإفلات من جفنيه قائلاً:

- انظري كيف كنت أمسك خرطوم الفيل وأسحبه تجاهي بينما بقية الأطفال يقفون بعيدًا خائفين، لقد كنت دائمًا أغامر بكل شيء أملكه من أجل أحلامي ولحظات سعادة أريد أن أعيشها، حتى لو كان نفسي، وأحبائي.

لكن أتعلمين، خسارة النفس أهون من خسارة الأحباب، لأننا إن متنا فسلام على الدنيا وما فيها، أما أذا مات الأحباب فإن الندم ينخر قلوبنا ببطء وثبات على تقصيرنا نحوهم، كلاهما موت ولكن الفارق بينهما عذاب يكوي الفؤاد.

طالعته بنظرة مؤيدة، وضع في يدها صورة أخرى، ثم أشار إليها باسمًا وواصل حديثه:

- هنا كان بقية الأطفال قد ذهبوا إلى مدينة الملاهي بينما جلست أنا على ساق الفيل الصغير وكان يُدلي أذنه على رأسي وكأنه يشفق عليّ من حرارة الشمس، أخبرني السائس أنهم يسمون هذا الفيل "مادوه" وهي كلمة هندية معناها الربيع، كنت أقرأ في هذه المجلة التي أهداني إياها عامل نظافة في الملجأ عندما لاحظ انجذابي لألوانها.

عندما كنت أقلب في المجلة ظهرت أمامي صورة لفيل يلهو، لم أكن في عمر يجعلني أؤمن بالإشارات لكنني شعرت أنها إشارة ما واقشعر بدني وخالطت السعادة دمي، استقمت وهمست بأذن "مادوه" قائلاً:

- سأشتريك يومًا ما وستصبح صديقي الأقرب.

أصدر الفيل دمدمة هادئة، كان السائس يراقبني حينها وقال بابتسامته الحنون:

- هذا الصوت الذي أصدره يدل على سعادته.

ظننت حينها أن ذلك السائس كان يود أن يُسعد طفلًا صغيرًا، لكن عندما كبرت وتعلمت أكثر عن الفيلة وجدت أنه كان محقًا ولم يكن يخدعني.

بالطبع تتساءلين من التقط لي هذه الصور؟

أومأت برأسها إيجاباً، فابتسم بحنين مُجيبًا:

- "المُعلمة حياء."

كانت المعلمة المشرفة على جميع رحلات الملجأ والمحببة لقلوب الجميع، فقد كانت دائمًا تحمل لنا الأخبار السعيدة كطلتها، لا أتذكر ملامحها جيدًا لكني أذكر حنانها، كنت أذهب إليها دومًا وأنام على ساقها وأستمتع بحكاياتها، لقد أهدتني هذه الصور وجعلتني أعدها أن أحتفظ بها، وبعد اسبوع سألتني عنها فأجبتها أني أحفظها في عهدتي ولم يمسها أي سوء كما وعدتها، غير أني أحببت ذلك الفيل وأردت شيئًا ماديًا يذكرني به فالاعتماد على الذكرى في بعض الأحيان لا يكفي، فهل بعد أن أتت لي الفرصة على طبق من ذهب أُفرط فيها؟

ابتسمت حينها لي، وقالت:

- كنت أظن أنك ستضيعها.

ثم ضمت كفي بكفيها، وواصلت:

- بما أنك أوفيت بوعدك لي فعندي لك مفاجأتان، الأولي هي: عندما تحب أي شيء وتريد أن تأخذ له بعض الصور لتحتفظ بها أخبرني وشاركني سعادتك سألتقط لك ما تشاء من الصور.

لمحت حينها السعادة في عيناي ولا شك، كدت أطير من مكاني وقتذاك، كانت دافئة فكرة أن يستثنيك أحدهم.

همست بعدها بخفوت يحمل المرح على كتفيه كما كانت تحملني حينها:

- أما المفاجأة الثانية فستعرفها عندما تقابلني اليوم بعد أن تصلي العصر عند سور الملجأ، لا تجعل أحدًا يراك، وسيظل هذا الأمر بيني وبينك..

سر سنحفظه كلانا عن الجميع.

استعار فضولي وحماسي حينها، وتسللت في الموعد الذي اتفقنا عليه وحِس المغامرة يتأرجح في داخلي ويتلاعب بحماسي حتى وصل إلى ذروته عندما وصلت ووجدتها تقف حيث قالت لي متخفية وفي يدها كيس صغير سرعان ما كشفت عن محتواه فأخرجت حذاء صغيرًا ومدت يدها لي به:

- هيا ارتديه بسرعه حتي نبدأ رحلتنا.

اصطحبتني بعدها إلى حديقة الحيوان واقتربت من السائس الذي ابتسم حالما رآني، تبادلا أطراف الحديث لبعض الوقت، أخرجت من جيبها نقودًا وحاولت أن تعطيها له لكنه تمنع، وقال:

- إنها هديتي له.

ثم حملني لا أدري إلى أين، لكنني أثق بها وأثق بأي شخص تعطيه ثقتها.

أدخلني قفصًا فوجدت أمامي فيلاً صغيرًا، قال لي السائس حينها إن الفيل عندما يولد يطلقون عليه اسم الدَّغفل، ويولد أعمي تقريبًا.

سألته وقد كان الصغير مغطى بالطين، عن سبب ذلك، فقال:

- نفعل ذلك لحمايته من الحشرات وأشعة الشمس.

اقتربت منه أكثر ونظفت مقدمة خرطومه ثم نفخت فيه.

كما ترين التقطت لي المعلمة هذه الصورة لتوثق تلك اللحظة، كانت تصطحبي لزيارة هذا الفيل كلما سمحت الفرصة، بعد أن سألتني عن تفضيلي له عن بقية الحيوانات، وقبل رحيلي ذهبت إلى الحديقة وودعته بحرارة، كان كلما رآني مدَّ لي خرطومه، كنت أميزه من هذه الحركة ومن رائحته، ليس هذا غريبًا وإنما الغريب هو عند عودتي بعد مشيبي ذهبت إلى هناك وسألت عن السائس الذي كان قد أصبح رفيقًا لي نتسامر كلما زرته، فوجدت المنية قد وافته، حزنت كثيرًا عندما تلقيت ذلك الخبر، هممت بالسؤال عن الفيل فوجدت خرطومًا يحيط برقبتي برفق، استدرتُ فرأيته كان قد كبر كثيرًا جدًا، احتضنت خرطومه ونفخت فيه أحييه كما كانت عادتنا قديمًا، جلس على ركبتيه الخلفيتين وأحاط جذعي بخرطومه فتأوهت وأنا أضرب على خرطومه برفق:

- لقد شبت الآن يا "مادوه" لو حملتني ستتفكك عظامي، أرخى خرطومه عني وتناول سلة الطعام ووضعها أمامي فبدأت أطعمه وأنا أمسح عليه برفق، لقد اشتقت إليه واشتاق لي.

ضرب "بحر" على ساقه بألم، وقال مردفًا:

- هذه هي بدايتي مع الأفيال، ونهايتي أيضًا.

هبت نسمة هواء باردة هزت الدموع في عيناه وسرعان ما انسابت كانسياب الذكريات بباله، تأملت "لارين" ملامحه الحزينة التي لا تكف عن غرس البهجة في قلوب من حوله، أحست منذ أن رأته لأول مرة بترابط وود غير مألوف بينهما، أحبت البقاء بجواره وسماع حكاياته، كان ذلك يذاكرها بوالدها، وسمرها مع جدتها بين نباتاتها الكثيفة، الحياة هكذا دومًا تأخذ وتعطي، عطاء الله دائم وموصول بلُطفه وحلمه، شعرت بارتياح غريب ينتشر في فؤادها، أنست بكلامه وصمته، شعرت برغبة ملحة في احتضانه وإخباره أن كل شيء بلُطف الخالق سيمر، همس بخفوت مباغتًا لها:

- كل شيء بلطف الخالق يمر.

اتسعت عيناها، ودمعتا قائلة:

- صدقني كنت سأقول هذا لك الآن، نفس الجملة كانت على طرف لساني!

ضحك باطمئنان قائلًا:

- هذا من لطف الله الخفي يا ابنتي، يرسل الكلمات على ألسنة أحبابنا كالغيث يسقي ألمنا فيُنبت رضًا بقضائه سبحانه.

استكمل بالضحكة نفسها، وأضاف إليها المزيد من المرح:

- على ذكر الغيث..

انظري إلى هذه الصورة، هنا كنا نحن الثلاثة أنا و"رحيم" و"نقاء"، يمسك كل منا كأسًا فارغًا والأمطار تنهمر بغزارة وملابسنا مبللة تمامًا بينما لم تمتلئ أرباع الكؤوس حتى، حينها قررنا أن نفتح أفواهنا ونستقبل القطرات لتبرد جوفنا، كنا نضحك ونقفز كما ترين، أتذكر حينها أن الماء تسلل من فمي لأنفي ثم خرج منه وسط ضحكاتي وظللت أسعل وهما يضحكان عليّ.

سألته "لارين" من بين ضحكاتها:

- من هو أكبركم، أشعر أنكم مُتقاربين في الأعمار.

- إنه تقارب الروح أكثر من السِن، "رحيم" أكبرنا، "ليل" هي أصغرنا، على ذِكر "ليل"..

قال جملته الأخيرة وهو يلتقط صورة أخرى ويعطيها لـ "لارين" ثم قال واصفًا:

- "ليل" هنا لم تكن بلغت عامها السادس بعد، كانت تقفز في بركة ماء وبللت ملابسها للمرة الثالثة، التقطت هذه الصورة المعلمة "حياء" وأهدتني إياها مع كثير من الصور الأخرى عندما علمت أني سأرحل عنهم أرادت أن تترك لي شيئًا يذكرني برفاق الروح، قالت لي أنها عندما التقطت لها الصورة، أتت المعلمة "ظِل" ورأتها فاستشاطت غضبًا، فهي المسؤولة عن الصف الذي تنتمي إليه "ليل" اتجهت نحوها ووبختها بشدة، صعب ذلك الأمر على "نقاء" فأقسم أنه هو من دفعها، حينها غضبت المعلمة "ظِل" أكثر لكذبه وقالت أنها كانت ترى كل شيء، وأن الكذب لن يجدي نفعًا والمتعة تكمن في أشياء أخرى كثيرة غير الكذب وتبليل الثياب!

حنى كل منهما رأسه وشعرا بالخجل منها خاصة عندما رحلت دون أن تعاقبهما، اكتفت فقط بنظرة لائمة على فعلتيهما، وخصام دام إسبوعًا كاملاً، لقد تعلما درسهما "لا كذب، ولا تبليل ثياب بعد اليوم" حينها عادت المعلمة "ظِل" تُلقي ظلال حبها وحنانها على قلبيهما، عندما رأت ندمهما في اعتذارهما الصغير.

نظم "بحر" الصور وأعاد وضعها في الكيس القماشي، وهو يقول بحنان يحتضن حروفه:

- قد يرى البعض هذه الصور مجرد ذكريات عادية، لكنها تعني لي الكثير.. الكثير جدًا، في حياتي يا ابنتي تعلمتُ أنه لن يُقدر حجم حزنك أو سعادتك سواك، ببساطة لأنك أنت من تشعر ولا أحد غيرك،

قاطعته بإيماءة صغيرة تؤيده، ثم قالت بحيرة:

- بعض الأشياء يجب أن تبقى لنا وحدنا، لأن الإنسان لو شاركها مع شخص خاطئ قد تفقد بريقها.

مسح على ذقنه، وقال مُبتسمًا:

- لا أريد أن أُكثر لك من النصح فأنا لست حكيمًا على كل حال، ربما أكون ثرثارًا قليلاً لكن قلبي ارتاح إليك، لذلك أتحدث إليك بكثرة دون أن أعبأ.

نظرت إليه بامتنان وتتابعت كلماتها تصف شعورها:

- كنت تتحدث الآن عن جمال اللحظات وأن أحدًا لن يدرك مدى سعادتك لأنك فقط من تشعر بها.. أليس كذلك؟

لم تنتظر منه ردًا على سؤالها، وأكملت بنفس اللهفة:

- أنا لا أريد لذلك الوقت الذي تتحدث فيه معي أن ينتهي، لقد استأنست بك وبحديثك، أحببت حكايتك وصدق شعورك في كل كلمة قلتها.

برقت لمعة في عيناه:

- صدقيني يا ابنتي وأنا أيضًا.

سقط الكيس من يده فاندفعت الصور خارجه وتبعثرت، ضحكا وهمَّا يرتبانها من جديد، جذب انتباهها صورة غريبة فسألته:

- ما هذا؟!

قهقه بشدة، وأسند رأسه على جذع الشجرة وظل يضحك فضحكت على ضحكاته، استقام ومسح عيناه:

- تتذكرين عامل النظافة الذي أهداني المجلة الملونة؟

حركت رأسها أيجابًا ولا زالت تضحك على صوته الضاحك، استطرد:

- اسمه "ربيع" صحيح أنه كان عامل نظافة لكنه كان يهتم كثيرًا بالقراءة والتعلم، كنت تجدين لديه كتبًا عن الطب والتشريح والتاريخ... إلخ.

أتذكر عندما بلغت التاسعة عشر من عمري، جلست معه نتسامر بعد صلاة العشاء نتلحف السماء ونتدفأ بالحرارة التي تتصاعد من وعاء الحساء الساخن كعادتنا، أخبرني في إحدى المرات عن سره الصغير، لقد كان يسعى لاكتشاف سر التحنيط الذي أعيا العلماء.

تحدث.. وتحدث.. وتحدث كثيرًا عن هذا الذي أثار كل فضوله، وجهود العلماء في اكتشافه، أنصت إليه بتركيز وفضول شديدين حتى فرغ تمامًا.

عُدت إلى غرفتي وقد أفصح الصباح عن مولد نهار جديد، وقفت أمام النافذة وراقبت "ربيع" الذي كان منهمكًا في قراءة كتاب ما، لقد أصابتني عدوى سؤاله: ترى ما هو سر التحنيط ذاك؟

سبحت بخيالي بعيدًا حتى أتت ذبابة سخيفة وظلت تحوم حولي وتشتت تركيزي، فترقبتها حتى وقفت على سلك النافذة فأغلقت الزجاج وحبستها ثم غصت في نوم عميق..

بعد مرور يومين وقفت أمام النافذة وفتحتها فوجدت الذبابة التي حبستها قد ماتت، وهنا أتت ببالي خطة جهنمية، سأكتشف سر التحنيط بهذه الذبابة.

تعالت ضحكات "الارين":

- بذبابة!

ضحك بدوره مردفًا:

- المشكلة لا تكمن هنا، بل إنني يومها كنت أغسل الصحون، أحسست أن الصابون السائل هو سِر التحنيط، فالتقطت الذبابة ووضعتها في وعاء صغير وغمستها بالصابون وتركتها أسفل سريري، كنت أتفقدها يوميًا قبل أن أنام، وبعد خمسة عشر يومًا توصلت إلى نتيجة بحثي الهائلة، الذبابة لازالت كما هي، إذًا هذا هو السر.

ركضتُ إلى "ربيع" وزففت إليه البشرى، فسقط على ركبتيه من كثرة الضحك وكان لا يستطيع التقاط أنفاسه، وقفت مذهولاً وتضايقت من استهزائه باكتشافي الصغير، ذهبت إلى "المُعلمة حياء" فالتقطت لي هذه الصورة التي في يديك الآن، وقالت:

- يكفي أنك حاولت، الوصول إلى الخطوة الصحيحة يأتي بعد العَثرة والكثير من الخطوات الخاطئة.

لن أنسي كلماتها، ولا سخرية "ربيع" مني! شتان بين من يقدر ومن يستهزأ بك.

أيدته في كلماته، ثم بادرته سائلة:

- هل توقفت عند ذلك الحد؟

- عندما يبدأ فضولي فإنه لا يتوقف إلا بعدما يجد ما يشفيه.

- وهل وجدت شفاءه؟

- تقريبًا، في إحدى الليالي كنت أقرأ في كتاب الله وتوقفت عند الآية "وَجَعَلْنَاْ مِنَ ٱلْمَاْءِ كُلَ شَيْءٍ حَي" حينها تعاقبت أمام عيناني كلمات "ربيع" وهو يحدثني عن التحنيط، ربما الأمر ليس مُعقدًا لهذه الدرجة، ربما هو بسيط لدرجة أنه قد يكون الماء! يوضع الميت في تابوته ويُغمر بالماء، وهو تحت الأرض بالكثير من الأمتار وهناك أحجار ستعوق وصول الشمس إلى الداخل ويتباطأ تبخر الماء فيحفظ الجسد، وربما يكون الماء مالحًا لقوله تعالي عند غرق الفرعون "اليَومَ نُنَجِيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَة" لا أدري إن كان ما توصلت إليه صحيحًا أم لا، لكنه أرضاني.

رفعت حاجبيها والحيرة تتوارى فيها، باغتتها "دفء" وهي تمد يدها برسالة معلقة:

- ذهبت لسقاية النباتات كما أخبرتِني، ووجدت هذه الرسالة في صندوق البريد.

تبادلت معهما النظرات، ثم استأذنت ودخلت إلى الغرفة الصغيرة أسفل بيت الشجرة، أشار لـ "دفء" أن تلحق بها بعد أن رأى قلقها فانقادت لطلبه، وقفت "لارين" في منتصف الغرفة، وهي تلتهم الأسطر القليلة بعينيها:

- "أُبلغكِ اشتياقي واعتذاري يا عزيزتي، أعلم أنه كان من المفترض أن أرسل إليك أول أمس ولكني أخذت وقتًا لكي أعثر على بريد، المكان هنا رائع كثيرًا ولكنه كان سيصبح أجمل بكثير لو كنت معي، أتمنى أن تكوني أنت وأباك بخير، أبلغيه سلامي."

انفجرت باكية، وقامت بتمزيق الرسالة وهي تجهش بالبكاء، وقفت "دفء" بجوارها سائلة وقد اجتاحتها الدهشة:

- ما الأمر، ماذا كتب ليحزنك هكذا؟

ارتمت بين ذراعيها، وأنفاسها تتقطع من البكاء:

- أكرهه، أكرهه.

ذهلت "دفء" وأحاطتها بذراعيها وهي تنظر لعينيها الذابلتين:

- لا بأس، لن أجلب لك رسائله أبدًا إن أردت.. لا تحزني.

قامت وقد بدا بعيناها الغضب، أحضرت ورقة وقلمًا، وهمست بصوت متحشرج:

بل سترسلين له هذه.

وعندما انتهت من تسطير كلماتها قامت بتطبيق الورقة وأعطتها إياها.. ثم غمست نفسها بين ذراعيها وتلاشت قوتها وهي تمتم:

- لقد تركني في أكثر أيامي قسوة، كلما احتجت إليه لا أجده.. أخبريني ماذا لو لم تكوني موجودة أنتِ والعم "رحيم" ماذا كنت سأفعل؟

زاغت نظراتها في الفراغ، وأكملت بصوت تطعنه العَبرات:

- لقد طلبت منه الطلاق.

- "لارين" لا تتسرعي، أعلم أنك تحبينه!

هزت رأسها نافية، وهي تمسح دموعها:

- لقد اتخذت قراري، حتى ولو كان سيؤلمني، فأن أتألم مرة واحدة خير لي من أُمزق من داخلي ألف مرة.

عمّ الصمت قليلاً ثم تنهدت مستطردة:

- هلا ذهبتِ وأرسلتها الآن، أرجوك.

قالت وقد تذكرت شيئًا:

- ضعيها على الباب وثبتيها جيدًا بحصاة، سيأتي صديقه ويرسلها، هكذا قال لي قبل سفره.

قبضت "دفء" على الورقة وهزّت رأسها موافقة في تردد، ولكنها استسلمت وانقادت لعينيها المنهكتين من البكاء، فإن كان هذا سيريحها فلتفعله إذًا.. وفي الوقت ذاته تحاول تعويضها، فقد وجدت كل منهما نظيرتها التي لن يستطيع غيرها مواساتها، كانت تؤمن أنه لن يستطيع أحد مواساتها إن لم يكن يشعر بها، ولن يشعر بها إلا من مرّ بمثل ما مرت به، تختلف الأحداث والألم واحد.



- "تعلمين أنه كلما ضاقت بي الحياة ركضت إليك، أما بعد رحيلك يا "زمن" فأنا أذهب إلى أول مكان قابلتك فيه عند شاطئ البحر، أجلس هناك وأكتب إليك ثم أرمي الورقة علَّ الرياح ترفعها لك، أو علك تكونين قريبة مني فتلقطينها وتقرأينها.

أما عن تلك الرسائل التي أكتبها في ذكرى زواجنا فأنا أحتفظ بها في نفس الدفتر منذ ست سنوات وهذه هي السابعة، لا أدري لماذا أواظب على الحفاظ عليها هكذا، ربما لأن كل شيء يخصك انتقل بعد مماتك من العادي إلى المقدس، فقد كان ماء حبك يروي عطشي إذا احتجت وإن لم أحتج، وعندما شعرت أنه تجمد وأنا أمسك يداك الباردتان لحظة وفاتك تعاهدت أن أحتفظ بباقي القطرات لكي أستطيع إكمال الحياة حتى ألتقيك مجددًا وأروي ظمأي، لقد عشت بعدك لأجل قضيتنا الأولي والوحيدة، السعي في ترميم الخواطر.

اسمحي لي أن أقطع تدفق الكلمات وأقول أنني افتقدتك، اشتقت لحديثي إليك بدون أوراق وحبر يسيل عندما تنزل عليه دموعي فأعيد كتابة الكلمات ولكنها لا تكون بنفس الشعور فتفقد رونقها، أو لإن إعادتها جعلني أعتاد عليها، أنت وحدك كنت تقدرين كل شيء يخصني مهما كان باهتًا.. متكررًا.

لا أريد أن أبكي وأحزنك لكنني حقًا أفتقد أن تنزل دموعي على يديك الدافئتان بدلاً من يدي الباردة التي فقدت حرارتها منذ أن رحلتِ.

تعلمين..

ما يواسيني أنه كلما اشتقت إليك وأوشكت على البكاء يزورني طيفك وأنت تبتسمين بعينيك الناعستان، فتنسحب دموعي من ثورتها وتسكن، كنت أشعر حينها أنك تواسينني.. تشعرين بي، كما كنت تفعلين دائمًا.

اليوم حدث معي موقف أحب أن أصفه بالجمال رغم أني لا أدري إن كان جميلاً أم لا، سأحكي لك وأنت حددي يا سيدة تألق الجمال بها.

قابلت اليوم شابًا يافعًا وأنا في طريقي أوزع الورود على كل من أراه يجلس وحيدًا في وقت الغروب كما اعتدنا أن نفعل سويًا رأيته وهو يقوم من مجلسه ويمسح دموعه بمنديل قماشي، ثم ألقاه بين الأمواج فالتقطته على الرحب كما تفعل مع كل من يرتادها ويرمي همومه على عتبتها، مشى منكب الرأس ويداه في جيبيه، تقدمت ناحيته ونزلت عن دراجتي حالما وصلت إليه وأسندتها على ساقي اليمني وأنا أمد

يدي إليه بزهرة بيضاء ذات قلب صغير أسود كعينيك، مرت على ثغره ابتسامة صغيرة، كان سيأخذها لكنه سرعان ما تراجع مغتصبًا ابتسامته تلك وأكمل سيره وكأنني لست موجودًا، دفعت دراجتي وسرت خلفه، سألته:

- كنت ستأخذها؟

أجابني بصوت مبحوح وابتسامة مكسورة على جانب فمه:

- سأفرح بها بضع دقائق ثم ستذبل، ككل الأشياء الجميلة التي أحببتها وتعلقت بها.

- جففها إذًا واحتفظ بها في كتاب.

استكمل بنفس طريقته اليائسة:

- وما نفع أن أتذكرها وقد فقدت زهوتها وبهتت؟

- لكنك ستبتسم حينما يعاودك الماضي، الذكرى هي التي ستحييها في عينيك مجددًا.

أغمض عينية ورفع رأسه إلى السماء قائلاً بفتور:

- الذكرى السعيدة تؤلم عندما لا يسعك تكرارها، وهذه الابتسامة التي تحدثني عنها ستكون مجرد حسرة على لحظات جميلة طواها الزمن ولم يعد لها وجود.

قلت له وأنا أضع يدي على قلبه:

- بل لها وجود.. هنا.

تنهد مجددًا وقال بأسي:

- ذلك الذي يشقيني.

سألته ومازالت يدي مثبته على فؤاده أتحسس نبضه الخافت كصوته:

- ما الذي يشقيك يا ولدي؟

وضع يده على يدي مجيبًا:

- يشقيني العبور.. كثرة العبور من هنا يا بائع الورد، كلهم يعبرون ويُحدثون الثقوب ويتركون البقايا، أنا.. أنا البقايا، تركت مع كل منهم قبسًا من روحي حتى خفت ضوئي وأوشك أن ينعدم.

- فلتغير نظرتك إذًا.

ضم حاجبيه مستفهمًا، فأكملت ما تركته ناقصًا:

- لقد ظننت أني بائع ورد بينما أنا في الحقيقة أُهديه بدون مقابل، ولعل هذه الثقوب في قلبك خلقت نوافذًا لتحمل عنك لا لتأخذ منك لكي ترى جيدًا، ولعل خفوت ضوئك هو استعداد لشروق جديد.. كلنا نَمُر يا ولدي.

- لكن مرورك حلو ومرورهم علقم، والشروق الجديد يتبعه غروب آخر، وأنا أريد أن أتخطى.

- بل أنت بحاجة لتتوقف وتلتقط الحكمة مع أنفاسك من كل هذه المواقف.

نظر إليّ بعينين مغرقتين بالدمع، انقبض فؤادي وخشيت أني قد قلت شيئًا أحزنه لكنه سرعان ما قبّل رأسي والتقط الوردة من يدي ورحل دون أي كلمة. "

انتبه إلى وجوده وهو يمد إليه يده برسالة بريدية:

- لقد أحضرت لك هذه الرسالة

صباحًا.

أخذها منه وطافت الابتسامة تلقائيًا على ثغرة عندما قرأ اسمها، التقط "غيث" الكتاب الذي وضعه "هادي" على السرير وسأله بمرح:

- لم أكن أعلم أنك تحب القراءة أيضًا..

ثم انهمك كلاهما فيما يقرآنه وعلامات الدهشة بادية على وجهيهما، سأله "غيث" بيد مرتجفة حالما انتهى:

- من أعطاك هذه الكتابات؟

كان "هادي" منهمكًا يعيد قراءة الأسطر التي خطتها زوجته غير مستوعب دوافع طلبها.. الطلاق.. كيف!

انتشلته نداءات "غيث" المتتالية، سأله عندما انتبه إليه:

- هل هناك خطب ما؟

تعثر في كلماته لم يدرِ ما يقول، فأعاد عليه السؤال مجددًا:

- من صاحب هذه الكتابات؟

نظر "هادي" مستفهمًا، لم يكن في خطب يسمح له أن يجاريه في حديثه، قام من مكانه وبدأ في حزم أمتعته، لاحقه "غيث" بعينيه يبحث عن تفسير لما يحدث:

- هل هناك أمر سيء في محتوي هذه الرسالة؟

احتدّ "هادي" غاضبًا:

- كُف عن طرح الأسئلة، يكفي هذا، يكفي!

شعر "غيث" بالحرج، وشعر "هادي" بالضيق لصنيعه، ارتمى على السرير وظل يحدق في الرسالة:

- زوجتي تطلب مني أن أطلقها!

بدا عليه الذهول كاد يسأله شيئًا لكنه تراجع، فاستكمل "هادي":

- لا أدري ما السبب لكن عليّ أن أعود.

صمتا قليلاً ثم بادره سائلاً:

- هل ستعود معي؟

هزَّ رأسه موافقًا، فحمل حقيبة ظهره دون تفقد محتواها، وتناول الدفتر ووضعه في الحقيبة، قال مُعللاً:

- قصة هذا الكتاب الدفتر، سأحكيها لك أثناء عودتنا.

تحررت حينها كلمات" غيث" فقال مُعلقًا:

- أنا ذلك الشاب الذي كتب عنه هنا، وأريد بشدة أن أقابل ذلك العجوز مجددًا، أذكر أن اسمه كان "رحيم"



- لا أعلم حتى الآن إلى أين تأخذينني يا "دفء"!

كانت تشدها من ذراعها، وتلتهم الطريق بخطواتها تارة، ثم تُبطئ تارة أخرى عندما تتعب، قالت تشوقها:

- لقد اقتربنا كثيرًا، ستعرفين حالما نصل.

سارا بضع خطوات والصمت يجاورهما، قطعت "لارين" سيره بكلماتها الحائرة:

- أشعر أني رأيت هذا المكان من قبل.

توقفت بجوارها وعيناها تجوبان المكان، قالت بنبرة الحكيم:

- لقد أمضيت أيامًا طويلة في الغابة وليس غريبًا أبدًا إن اشتبهت عليك طرقها، ربما تكونين قد مررت من هنا بالفعل، وربما يكون موضع سيرك الآن على خطوات قديمة لك عندما كنت تائهة، ربما.. نحن لا نترك الأثر في القلوب فقط يا "لارين" وإنما ندعه في كل مكان نمر فيه، وعلى كل أرض نمشي عليها، وعلى سطح كل حائط نلمسه، وفي قلب كل غيمة نعانقها بنظراتنا.

تمايلت أوراق أشجار الليمون بثقل لِما تحمله من الثمار، والسياج الخشبي يحاوطها ويخفي زينتها ما استطاع غيرة عليها من أعين الناظرين، وهناك دخان يتصاعد من المدخنة ويزاحم رائحة الليمون التي ازداد عبيرها كلما اقتربتا، تساءلت "لارين" بعجب:

- بيت من هذا، أتعرفين؟

- إنه منزل "كسوف"

شعرت "لارين" بضغطة قاسية على فؤادها سرعان ما تلاشي أثرها، لقد كانت "كسوف" هي نفسها الفتاة التي كانت تحمل نعجة، عندما قابلتها عند قبر والدتها كانت تشعر تجاهها بألفة عجيبة.

أتي من خلفهما وبادرهما بالترحاب، فزعتا بادئ الأمر وسرعان ما اطمأنت "دفء" عندما رأته، وقالت ترد التحية:

- "خسوف" جيد أني رأيتك.

نظرت له "لارين" باستغراب ظاهر، فران إليها وكأنه يجمع شتات صورتها في عقله، قال يحييها بحبور حالما تذكرها:

- هذا أنت مجددًا.. أهلاً بك.

- أتذكرني؟

رفعت "دفء" حاجبيها، وقالت بدهشة:

- أتعرفينه؟

أجابها وهو يتطلع بعينيه إلى "لارين" وقال بسرور يمازجه الحرج:

- لقد سبق وتقابلنا، لكن بشكل..

قاطعته "لارين" وقالت بغيظ اصطنعته:

- كان سيضربني بعد أن طرحني أرضًا، فقط لأني مررت من أمام منزله!

شاركتهما "دفء" الضحك وشدتهما من ذراعيهما وهي تقول بنبرة آمرة:

- ستحكيان لي ما حدث ونحن نجلس ونشرب الليمون هيا.

ظلت نظراته معلقة عليها حتى خدشت حياءها وهما يسيران خلف "دفء" توترت من نظراته وقالت تئدها قبل أن تتنفس أكثر:

- ليت "هادي" زوجي كان هنا وشاركنا هو أيضًا.

- زوجك!

توقفت "دفء" وسألتها في عدم استيعاب:

- ألم تقولي أنك و"هادي" ستنفصلان؟ وأنك لن ترضي بغير ذلك سبيلاً!

- ستتطلقين!

أطلق كلمته الأخيرة بسعادة بالغة متألقة في عيناه، لكنها سرعان ما تسربت وحل القلق محلها وهو يسألها:

- هل لديك أطفال منه؟

أجابته بحزم وقد ضايقها سؤاله، ذلك السؤال الذي طالما تهربت منه هو وجميع الأسئلة على شاكلته منذ الشهر الأول لزواجها "هل هناك طفل في الطريق"؟ "ألن نرى لك أطفالًا"؟ "يجب أن تنجبي أولادًا ليكونوا لك عونًا، كلما تأخرت كلما قلت فرصة إنجابك، ستصبحين مثل الأرض البور"

والآن هذا سؤال بشكل آخر وسيتردد كثيرًا على مسامعها عندما تأتي سيرة "هادي" على لسانها.. هل لديك منه أطفال؟:

- لا.

أولته ظهرها وتقدمت بضع خطوات، ضربته "دفء" في صدره، حرك كتفيه ليوحي لها عدم فهمه لهذا الجو المتوتر الذي حل بعد سؤاله الأخير، أهي عقيم؟

لا يهمه هذا فهو لم يتخيل نفسه يومًا أبًا ولا يريد.

عادت ابتسامته إلى ثغره وهو يتبعهما وعيناه لا تبرحها.

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

- "ستلاحظين تمزق بعض الصفحات قبل هذه الورقة، لقد كنت أشرب الشاي وأنا أقلب في الدفتر وأستأنس بحديثي إليك على متنه، فسقط الكوب مني سهوًا وكأنه قد غار منك وأراد مُعاقبتي على إيثاري لك في حضرته وهو الأنيس المواسي بين زحام الفقد الذي أعيشه. لكن لا يُهم فأنا لا أمل من إعادة كلماتي على مسامعك.

يشاء القدر يا غاليتي أن تلك القصة التي فتحت الدفتر بحثًا عنها لم يمسسها لهيب الغيرة، وكأنك وحدك المقصودة.

تذكرين ذلك الشاب الذي قلت لك أني قابلته عند ضفة النهر؟ لقد قررت أن أكتب لك الحدثين متتالين غير متجاهلاً السنون السابقة فسأعيد سردها في الصفحات التالية.

كنت جالسًا أمام النهر كعادتي، أتابع الأمواج وأحاكيها وهي تطوي الحكايا وتخفيها دون أن أطلع عليها وتمسح عنها أسماء أصحابها فالأيام دُول والأحداث متشابهة، أجدها تسرع تارة وتتقافز وتنفر من بعضها فأعلم أنها قد سمعت حدثًا جللاً لتوها وأتمنى لو شاركتها الإنصات، فتهدأ وتتمهل وتتقدم إلى الشاطئ برفق حتى تلامس

أصابع قدماي وتعود أدراجها لكي لا تخيفني فهي تعلم رهابي منها رغم حبي الشديد لها.

ثم أجدها تارة أخرى تتنامى وتعلو ببطء فأستشف أنها مُنتشية سعيدة تريد أن تعطي صاحب الخبر السعيد وقتًا إضافيًا ليتأملها ويسبح في بهجته.

تركتها وشأنها كي لا تستحي من فضولي وجلست أتأمل الغروب وأنا أرسم ملامحك بالغيمات المبعثرة على صفحة السماء، امتدت أمام عيناي زهرة حمراء كانت في موضع مناسب تمامًا لشفتيك، نظرت إلى يد الخير الممتدة فإذا به شاب تلوح ابتسامته لي في تحية مملوءة بالحفاوة وقد كانت ملامحه مألوفة لديّ، جلس إلى جواري وصافحني بشوق:

- أتذكرني؟

تأملت ملامحه الهادئة وعيناه الحالمتان لكن لم يسعني تذكره، وكيف يزاحم ذاكرتي شيء سواك، أجاب على سؤاله عندما رأى حيرتي:

- منذ عشر سنوات بالتمام والكمال أهديتني أملاً مع وردة بيضاء.

قفزت حينها الكلمات التي كتبتها تغزلاً بعينيك وتذكرته، لقد تغير كثيرًا واستعمر الشيب رأسه، ومقدمة ذقنه القصير فيه نسيج فضي لامع بينما ساد الأسود كما يفعل دائمًا في أي مكان يتواجد فيه، وشَق خطان رفيعان على جانب عينيه طريقهما عندما ابتسم بنبرة يخالطها الحزن:

- تحدثنا في المرة الماضية عن العبور وأثره في نفسي وها قد أمضيت أربع سنوات أتعافى منه ولا زلت، أتذكر؟

اكتفيت بإيماءة صغيرة من رأسي وأنا أسمعه بتمعن:

- آن لك الآن أن تحدثني عن الاختفاء..

كنت أحبها!

ضحكت ملء ثغري حينها يا "زمن" عندما رأيت لمعة عيناه وهو يحدثني عن الحب، لقد ذكرني بنفسي وإياك، لكنه سرعان ما قال بأسى انحبس فيه نبضي بضع ثوان:

- كانت تسكن بجواري وكنت أحبها حبًا جمًا لكني أكبرها بعدة سنوات، فانتظرتها حتى اشتد عودها كي أفاتحها بما أخفيته لها، مضى وقت طويل ولم أخبرها به حتى أرى فرحتها بنفسي وهي كبيرة واعية تفهم ما أقول، لا أخفيك سرًا أني لم أظهر لها شيئًا لأني كنت أخاف أحيانًا من ردة فعلها وظللت أُأجل اعترافي، لكن صمتي طال.. وبين ليلة وضحاها وجدتها رحلت ولم تترك وراءها دليلاً واحدًا يقودني إليها! كيف يسعني أن أتخلى عن حلم عشت أمني نفسي به دائمًا ثم فجأة هكذا يختفي.. يتبخر.. يصبح هو والعدم سواء!

لقد حدثني عن خطبه وبالفعل استحالت طرق عثوره عليها، وعندما سألته متى حدث ذلك قال لي:

- اليوم في الصباح الباكر.

ربت على كتفه وقلت:

- مادام هناك وقت فهناك أمل، لقد تعبت لسنوات تعذب روحك بالانتظار وتصون قلبك عن من سواها، لا تأتي الآن وتتخلى، ربما هذا هو بئر يوسف.

رأيت الأمل في عينيه وقفل راجعًا بعد أن قبَّل رأسي كعادته، أثناء عودتي إلى المنزل لم يمازج خاطري شيء عدا ذلك الشاب المسكين، ترى مما خلقت مشاعر الحب وما علاقتها بوخزات القلب المتتالية عند رؤية المحبوب؟ وكيف يذهب الحب بالعقل فيجعله كالطير الجريح التائه عن سربه، يراه سرابًا أينما وقعت عيناه ويلهث شوقًا للقياه؟

وقفت مصعوقًا عندها فقد رأيت شابة صغيرة في مقتبل عمرها مدرجة بدمائها عند أطراف الغابة، لم أستطع حملها لكني سحبتها وأخفيتها عند شجرة بعيدة عن الطريق وركضت إلى "خسوف"

ليساعدني وحمدًا لله قابلته في طريقي فأسرع معي إليها وحملها حتى وصلت إلى منزلي، هي الآن نائمة أمامي لم تستيقظ بعد، لا أدري ماذا عليّ أن أفعل..

إنها تستيقظ.. سأحكي لك ما حدث غدًا عند الغروب كعادتنا، أتركك الآن يا غاليتي في رعاية الله وأمنه. "

نغزه "هادي" وقال ممازحًا:

- لقد كتب عنك هنا أيضًا.

ألقى" غيث" نظرة سريعة على الأسطر فباغته "هادي":

- هل هي الفتاة التي حدثتني عنها؟

❋❋❋❋❋❋❋

- كنت أرتب لكي أعرفكما بـ "لارين" لكن ترتيب الله سابق لكل شيء، لقد التقتكما حتى من قبل أن تقابلني ويجمع الله قلبينا ودربينا.

شعرت أنه لازال يراقبها فنظرت لمكان جلوسه فإذا بظنونها في محلها، التقت عيناهما لثانيتين وسرعان ما أزاحتها بخجل يحاوطه الضيق، قالت "كسوف":

- سأعد لكم عصير الليمون وآتي، لا تقولوا شيئًا من دوني.

أمسكت "لارين" بطرف ثوبها، وقالت برجاء خفي:

- خذيني معك.

- بالطبع، تعالي.

قالت جملتها الأخيرة وهي ترمي أخاها بنظرة معاتبة، تبعتها كلمات "دفء" عندما أغلقتا الباب خلفهما:

- ما الذي تفعله؟

تصنع عدم الفهم، وقال ببلاهة يكرر كلماتها:

- ما الذي أفعله؟

أجابته بضيق:

- نظراتك يا "خسوف" نظراتك!

- ما بها نظراتي لا أفهم؟

- لا تتصنع اللامبالاة فأنت تعي جيدًا ما أقصده، وتفهم ما أرمي إليه، لا تدعني أندم على إحضارها إلى هنا، لقد أتيت بها لنكون لها عونًا أنا و"كسوف" فلا تكون عبئًا علينا.

سكتت قليلاً ثم استطردت بنفاد صبر:

- إياك ثم إياك أن تفكر بالتلاعب بمشاعرها وجذبها نحوك، سنحاول أن نجعلها تفكر بشكل سليم حول زوجها، فلقد رأيت بنفسي حبه لها وهي كذلك تحبه، إذا تدخلت أنت فإنك ستقويها على الانفصال عنه، إنها تتعافي من أوجاع كثيرة فلا تكن ألمًا جديدًا لها، ابقَ بعيدًا عنها.

تحولت نبرته للعصبية بعد كلامها:

- لا يهمني زوجها أبدًا، ثم لماذا تتحدثين معي وكأني آتي إليكم بفتاة كل يوم!

- لأنك كذلك بالفعل، أنت هكذا بالفعل يا "خسوف" أتذكر عندما حكيت لي عن تلك الفتاة التي رميتها على الطريق الصحراوي بعد ما فعلته معها أنت وصديقك.

صُعق بما قالته وبرز الغضب على وجهه:

- لقد أخبرتك أني ندمت وصدقت في توبتي مع الله، شاركتك همي فقط لأنه كان ثقيلاً على صدري، أتطعنيني به الآن!

ماذا لو كنت مكاني؟

- أنا لا أُذِلك بخطيئتك، ولن أكون يومًا مكانك، لأني لن أقترف ما اقترفته أبدًا.

احتشدت الدموع في عينيه، وقال بألم:

- لو أخبرني أحد ما قبل شهرين أني سأفعل ذلك لَما صدقته و..

- المهم أنه حدث وانتهينا، أنا أُذكرك فقط بأن هذا التغيير كان قبل اسبوع واحد فقط وأنك قد تعود لحياتك السابقة في أي لحظة، ولست على استعداد أبدًا أن تكون "لارين" هي ضحيتك القادمة.

- لكن هذا الأمر الذي ذكرتيه لم يكن قبل اسبوع، لقد مضت عليه سنوات.. خمس سنوات! لكني تعبت من حمله وشاركته معك عله يخف قليلاً، لكنه زاد.

تجاهلت كلماته المعاتبة، وقالت وهي لاتزال تحتفظ بالاستياء في صوتها:

- هذا لا يغفر لك فعلتك.. أبدًا لا يفعل.

- لو لم أحكِ لك لما عرفت.

- لو لم أعرف فالله يعلم ويرى.

خفت صوته، وحنى ظهره وهو يركز عيناه إلى عينيها لعله يلقى منها شفقة بحاله:

- الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويستر الزلات.

- وأنا لست الله يا "خسوف" كيف سأغفر لك ما سمعته؟ وكيف سأكف عن التساؤل عن مآل تلك المسكينة؟ تلك الفتاة التي لجأت إليك هربًا من أهلها لأنهم أرادوا إرغامها على الزواج بغيرك، لقد.. لقد عفت نفسها عن من سواك فهتكت أنت عفتها، ولم تكتفِ بذلك بل جعلت صديقك يشاركك فعلتك الشنيعة، ورميتها في عرض الصحراء لتلق مصيرًا مجهولاً بعد صدمتها فيك، ترى هل أكلها ذئب.. حيوان أو بشري؟ كلاهما سواء.

أمنتك فخنت الأمانة، أسندت ظهرها إليك فطعنتها في شرفها، أسلمت أمرها إليك فألقيتها في ظلمة الصحراء!

صمتت هنية ثم استكملت برعشة في يدها وصوتها وازدحمت الدموع في عينيها، كان هذا حالها كلما تذكرت تلك المسكينة:

- إن سامحتك أنا فهل ستسامحك هي؟ هل لازالت على قيد الحياة لتسامحك أساسًا، هل الله سيسامحك؟

عفو الله عنك مقرون بعفوها أولاً، الله يسامح من أخطأ في حقه وطلب عفوه، لكنه لا يسامح في حق عباده إلا إذا سامحوا هم أولاً.

أطرق رأسه في الأرض وقبض على أصابعه حتى غرز أظافره في لحم يده، استعادت نبرتها القاسية:

- أعلم أنك ندمت لأنك قلت لي وشاركتني، أنا واثقة من ذلك.. لكن ليس هذا ما يجب أن تندم عليه وأنت تعلم علم اليقين ما الذي يستحق الندم.

بغير وعي منه علا صوته، وقال بصوت أرهقته العَبرات:

- لقد ندمت، صدقيني ندمت.. ندمت!

أشارت له بيدها ليخفض صوته، ثم ضيقت عيناها وركزتها في عينيه، وقالت بحدة غير مبالية بدموعه:

- الندم ليس بالقول فقط، إن لم تصحبه أفعال فإنه ليس بندم وإنما هرب من لوم من هم حولك، ثم إني لا أرى ندمًا في فعلك، أين هذا الندم الذي تتحدث عنه من نظراتك التي كادت تلتهمها!

وجهت سبابتها إليه، وقالت تحذره:

- أتظن أن الله سيتركك بدون عقاب إن أعدت الكرة؟ أم تظنه نسى ذنب الفتاة المسكينة وسيفلت هذا الذنب من دون حساب؟ كلمة ذنب أتت من ذَنَبْ أي ذيل.. له توابع.

نظرت على يمينها حيث ثبت عيناه فرأت "لارين" واقفة والدماء هاربة من وجهها، قالت تبدل مجري الحديث:

- سلمت يداك يا "لارين" تعالي واجلسي لنشرب الليمون معًا، ثم هناك مفاجأتان لك اليوم.

ابتسمت وهي تجلس بجوارها، وتسألها بفضول:

- ما هما؟

- الأولى مكان، والثانية شعور.

بدت على وجهها علامات الدهشة، قالت مستفسرة:

- أما المكان فأمره يسير، وأما شعور فإني بت أخشى من المفاجآت التي تحملها إلينا المشاعر.

استكملت بعد أن ابتلعت مرارة كلماتها الأخيرة:

- لكني أؤمن أن كل شعور دافئ خلقه الله ينبض في قلبك أولاً، أخبريني إلى أين؟

- الشلالات العكسية.

قالت جملتها الأخيرة بعد أن أرست قبلة على جبينها، استفهمت الأخرى:

- شلالات عكسية!



لفَّ شالاً حول عنقه وهو يراقب صفحات البحر المتتابعة والكلمات تتقلب في رأسه كتقلب الأمواج، تساءل:

- كيف رأت في إقصائي عنها أقرب الحلول راحة لنفسها، كيف آثرت قرارها هذا على العتاب الذي تعاهدنا عليه حتى اعتدناه؟

تنهد بحيرة، لقد ذهب إلى المنزل فوجدها قد لملمت ملابسها، لم يكن هناك أثر لها ولا لوالدها لكن تربة النباتات كانت رطبة، عندما وجد المنزل فارغًا أسرع إلى بيت أبيها ودق الباب كثيرًا لكن أحدًا لم يشفي قلقه، عندما احتار ترك قدماه لتقودانه للبحر حيث رآها أول مرة.

كان يعلم أين سيجدها منذ البداية عند "دفء" لكنه غض طرفه عن هذه الفكرة فقد تركها مع وأبيها، نفض الأفكار المبعثرة عن رأسه وقام من مكانه يحث الخطى باتجاه الغابة وفي داخله نفس اليقين الذي راوده في أول مرة ضاعت فيها، كان موقنًا أنه سيجدها هناك، مشى هائمًا على وجهه يتقفى أثر شعوره، كان مؤمنًا أنه سيجدها هناك فرتب الخطوات إليها لكنه لم يرتب الكلمات، كيف سيبدأ! أيحدثها عن اشتياقه لها أم عن ذهوله لطلبها، أم يدخل في صلب الموضوع ويسألها عن السبب؟

تناطحت الأفكار في رأسه وتضاربت حتى اقترب من شجرة الاقحوان التي تحمل على أغصانها زهورًا بيضاء ذات قلوب صفراء، جلس أسفلها "رحيم" وقد كان يستعد للوضوء، اقترب منه بهدوء وألقى عليه التحية، التفت ذاهلاً وانفجرت أساريره عند رؤيته، بينما رسم "هادي" ابتسامه لم تخفِ الحسرة في عينيه وهم يمسك عنه الوعاء الفخاري المُندي وبدأ يصب له الماء بتروٍ وقد تبخرت الكلمات من فمه فلم ينطق بكلمه واحده، لكن هذا الصمت برزت خفاياه أمام بصيرة "رحيم" الذي قال ببساطته المعتادة:

- اترك لها وقتها.

جلس إلى جواره وترك الوعاء جانبًا وفي عيناه مزيج بين امتنانه لتفهمه وحزنه على ما آلت إليه الحال:

- صدقني أنا لم أفعل شيئًا يغضبها، لا أدري حتى ماذا حدث.

حكَّ "رحيم" ذقنه وقال موضحًا:

- هذه الأمور تكون بينكما ولا يحق لأحد أن يتدخل بها.

ثم أكمل مستدركًا:

- هي لم تذكر أي شيء دار بينكما، لكنها تمر بوقت عصيب للغاية.

نظر إليه مستفهمًا فأكمل يشفي تساؤله بلطمة واحدة شقت فؤاده حزنًا وكمدًا:

- لقد توفي والدها بعدما رحلت مباشرة.

فزع واقفًا وسأله بلهفة:

- أين هي أرجوك، دلني على مكانها.

أشار إليه أن يجلس، وقال يهدئ من روعه:

- اهدأ يا بني فإنها أعمار وكلها بيد الله.

ازادت ارتجافة أوصاله، وقال بنفاذ صبر:

- أين هي أرجوك؟

أشار إليه ليجلس بجانبه، فانقاد له وارتمي بجواره، قال وهو يقاوم حزنه:

- لقد كانت شديدة التعلق بأبيها تحيا حيث يتنفس، وتهدأ حيث يكون، وتخاف عندما يبتعد، كان الوحيد الذي يحمل معها وعنها خطأها، لم يعاتبها أو يكسر لها خاطرًا، وقف أمام الجميع حصنًا منيعًا ليحميها، لم تستطع والدتها أن تسامحها وماتت وهي غاضبة عليها بينما هو كان حصنها من ذلك الغضب ويحاول دائمًا أن يلين فؤاد والدتها عليها، وعندما جئت وطلبتها منه أخذني من ذراعي إلى غرفتها وقال لي: "إنها أمانتي عندك ووالله لولا رغبتها فيك لما تركتها لأحد من العالمين، ولأبقيتها في كنفي وتحت رعايتي حتى آخر أنفاسي، إياك وأن تحزنها وتفطر فؤادي عليها، كن لها بعد الله عونًا، وساعدها أن تتخطى خوفها فأنا أريد أن أرى حفيدة لي تشبهها، لكني أُشهد الله أني ما حدثتها بأمنيتي أبدًا ولن أفعل لكنها ستظل في دعائي، لكن لا تضغط عليها، إنها رقيقة القلب تستطيع أن تكسبها بكلمة حانية وحضن دافئ وقبلة على رأسها، تنفر من القسوة والقساة، دقيقة تختار الناس بعناية، يراها

البعض منطوية بينما أراها تحسن الصنع، فمثلها لو تعامل مع البشر لفقد رونق روحه وبهاءها، لا أريد أن أطيل عليك يا ولدي فلو تحدثت معك عنها حتى يغيب عمري فلن أوفيها حقها، هي وصية رسول الله، وحجابي من ناريّ الدنيا والآخرة، وريحانة داري ومبهجة قلبي، وهناء حياتي، إنك إن أخذتها فقد أخذت سعادتي مني فاحفظها، إياك ودموعها."

قال كلماته الأخيرة متأثرًا، فقال له يواسيه:

- لقد تيقنت تعلقها بوالدها فلا يكاد يخلو مجلس من ذكره، ولكن يا ولدي أعود فأقول لك.. اترك لها وقتها.

شعر بثقل في حلقه وهو يزدرد ريقه:

- سأترك لها الوقت الذي تشاؤه لكن ليس الآن فلا بد أن أكون معها في محنتها.

- صدقني يا ولدي إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت.

صمت برهة، قال وقد تذكر شيئًا:

- في إحدى المرات حدث بيني وبين "زمن" شجار عنيف أصرت بعدها على الطلاق فقد كنت أنا المخطئ، ذهبت واعتذرت لها، لكن أثر خطأي كان أقوى من اعتذاري، لكني لم أستسلم فكما أفسدت الأمر كان عليّ إصلاحه، حينها قالت لي: "سأذهب إلى والدايّ لمدة أربعين يومًا وإن اشتقنا سنعود." قالت جملتها ولم تزد، ثم امتنعت عن الكلام معي حتى رحلت، أمضيت يومان بثقل على قلبي، ثم ذهبت إليها لكنها لم ترضَ أن تقابلني، وتركت أخاها يعتذر لي بلباقة، لقد حفظتني أمام أهلها ولم تخبرهم ما الذي حدث بيننا فحفظت ذلك لها في قلبي وعدت أدراجي، وصمدت.. تحملت.. تجلدت حتى مضت عشرة أيام وذهبت إليها مجددًا، فكررت الاعتذار لي.

ضاقت بي الأرض بما رحبت وخشيت أنها لن تعود فاتكأت على الدعاء، وانتظرت حتى مللت الانتظار، ثم ذهبت بعد ثلاثين يومًا، لكنها كالعادة أخرجت لي أخاها ليعيد على مسامعي الأعذار، وكنت سأفتعل مشكلة معه لولا أنها خرجت وقد أوشكت أن أفضح نفسي أمامه، وقالت تصون ماء وجهي:

- أنت من علمتني الصبر، أتجزع الآن؟

قلت حينها بتلقائية يغلبها الحزن:

- عند بُعدكِ لا أصبر ولا أحتمل.

كاد أخوها يخرج من الغرفة ليتركنا وحدنا لكنها أمسكت بذراعه وهي تقول: "فلتتعلم الصبر، حتي إذا نصحت أحدًا به أدركت معاناته." قالت جملتها وفي عيناها عتابٌ كثير، ثم دخلت إلى الغرفة فعدت أدراجي محملاً بالخيبات، وفي اليوم الثامن والثلاثون وجدتها تقف عند رأسي وأنا نائم، فقمت غير آبه، فلا بد أنه طيفها يلاحقني كالعادة، قالت باستياء: " ألن ترحب بي! " حينها أدركت أنها عادت بالفعل، لقد عادت!

بعدما انتهي اليوم وجلسنا معًا بصفاء، سألتها بفضول:

- لِما أربعون يومًا، لماذا يا "زمن" لماذا؟ ألم تشتاقي لي؟

- لأني أردت أن أترك لي ولك متسعًا من الوقت ليدرك كلا منا مكانته عند الآخر، أما عن تمييزي للأربعون فلقد أرشدنا القرآن أن التغيير الجذري يصاحب الرقم أربعون، فهذا الطوفان في قصة نوح عليه السلام استمر أربعون يومًا وهو تغيير جذري للكرة الأرضية بالكامل، ولقاء الله عز وجل بموسى عليه السلام كان أربعين يومًا، ليعود بعدها إلى بني إسرائيل بالألواح ليزكوا أنفسهم، وضياع بني إسرائيل في الصحراء قبل دخولهم الأرض المقدسة كان أربعين يومًا أيضًا.

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تستكمل وهي تضع يدها على ساقي:

- لقد أردت أن أعطينا فرصة، وأن نتأكد كلانا من الحب الذي في أعماقنا.

نغزتُها قائلاً:

- أما عني فقد أدركت قيمتك من اليوم الثاني.

ثم قلت بنبرة يسودها الحنان:

- وبعد الأربعين تأكدت أني لن أحيا بدونك.

قال "هادي" يمازحه بنبرة يحتضنها الحزن:

يا لك من قويّ، أما أنا فأضعف من أن أبتعد عنها كل هذا الوقت، لكنها أقوى منكما فهي قررت التخلي عني مدى الحياة!

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

- ماذا تعنين بالشلالات العكسية؟

تجاهلت سؤالها واتجهت باستفهامها إلى "خسوف":

- هل ستأتي معنا؟

رأى في عينيها نظرة لم يعتد عليها، في الحقيقة الذي يحصل كاملًا لم يعتد عليه، لم يسبق له أن سمح لأحدهم أن يعامله أو يتحدث إليه بتلك الطريقة من قبل، قال بضيق وهو يحمل كوبه خارجًا:

- كنت أريد إيصالكن ولكني تذكرت بعض الأعمال التي عليّ القيام بها، استمتعن.

وقف عند باب الدار فخرجن خلفه تباعًا، آخرهن كانت "دفء" التي ربتت على كتفه دون سابق إنذار ووضعت له مكعبًا من الثلج في كوبه، وأكملت طريقها بهدوء دون أن تنطق بكلمة، فقط ابتسامة هادئة، دائمًا ما تعجب لأمرها، لم تكن القسوة يومًا طريقتها في النصح، حتى عندما قست لم تستطع أن تذهب دون أن تراضيه ولو بفعل بسيط، وقد رضى.

انتقلت عيناه إلى "لارين" تلقائيًا وهي تسير بينهما بجسدها الضئيل، ترتدي فستانًا بلون البندق وتربط حزامه إلى خصرها برخاوة في عقدة سرعان ما انحلت، فتناولتها بيدها وشدتها بإحكام بأصابعها البيضاء الرفيعة، وأحكمت وشاحها على ذراعيها فبدت أصغر حجمًا، شعر لوهلة أنه مسؤول عنها، أحب ابتسامتها، عيناها، توترها عندما تتلاقي أعينهما. لكن هذا كان شعوره الدائم أمام كل فتاة يقابلها، رفع عيناه إلى السماء يناجي ربه بعد أن استغفر:

- أرجوك يا إلـٰهي ساعدني، لا تتركني لطريق الضلال، فأنا لست مؤهلاً للاختبار ولا الاختيار الآن.

وقف بجانبه، وقال بصوته العميق:

- الله يختبرك ليعلمك الفرق بين الاختيار الصائب والخاطئ، كما أنه سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

قال متفاجأ:

- أبي!

جلس بجواره، وأسند ظهره على جذع شجرة الليمون:

ـ أعلم أنك مهموم، كعلمي أنك لن ترتاح إن تحدثت، كعادتك منذ صغرك، لكن ليعطيك الله الصبر على البلاء والقدرة على تحمله.

- ليس...

أشار بيده يوقف كلماته:

- لست بحاجة أن تبرر يا ولدي، يكفيني أن تعلم أني هنا دائمًا أسمعك متى احتجت إلى مُنصت، أواسيك متى أنست لكتف.

❄❄❄❄❄❄❄

جلس "هادي" على صخرة بجوار "رحيم" الذي وجد فيه روح والده الهادئة، وبسمته المطمئنة، وصمته السحيق وكأنه يقلب كل كلماته برأسه قبل أن ينطق بها.. يحسن الاستماع ويوجز النصيحة تاركًا الخيار للمتكلم، انعتقت عن ثغره ابتسامة رضا فقد أحب شخصه الهادئ، الغامض، الودود، القريب من الروح، قال يشاركه ما جال بخاطره:

- وكأن الله قد وضع روح أبي فيك.

مسح على ظهره بحنان وانتظره ليكمل، لكن "هادي" قرر فجأة تغيير مسار حديثه:

- عندما كنت صغيرًا لم يتجاوز عمري الخامسة عشرة، كان جدي يحكي لي بطولات لأشخاص دافعوا عن أوطانهم، وآخرون باعوا ثراه وثرواته بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين، من حكاياته التي تركت بداخلي أثرًا عميقًا وكانت بداية طريقي في المحاماة "قصة نابليون بونابرت" فخلال اجتياحه لأوروبا سنة ١٨٠٩ م وصلت جيوشه إلى النمسا، ولكن حميّ الوطيس وانقلبت الآية فهزمته جيوش النمسا في معركة آسبرن القاسية عندما تسللت الهزيمة إلى عيون أتباعه نهشت داخله فطلب من جنوده أن يشعلوا الحرب الاستخباراتية قبل معاودة الكرة، وقد عملوا بجد كي يجدوا جاسوسًا يعينهم على ما مكروه، وأخيرًا عثروا عليه، وقد قام بإمدادهم بكل المعلومات لضرب ثغرات الجيوش النمساوية وإلحاق الهزيمة بها بعد نصرها السحيق، لقد ساند جيش العدو في الانتصار على جيش الوطن في معركة بمارخ فيلد وقد تحقق ما سعى إليه.

وعندما جاء الجاسوس لأخذ ثمن خيانته، رمي نابليون صرة المال أرضًا لتقع بين قدمي الجاسوس، فقال له بكل مذله أمام بضعه قروش: " لكني أريد أن أحظى بشرف مصافحة الإمبراطور. "

فقال له نابليون: "الذهب لأمثالك، أما أنا فلا أصافح من يخون وطنه. "

كانت تلك القصة الشرارة الأولي لكي أصبح محاميًا، أتذكر أني لم أخسر سوى قضيتين على مدار السنوات التي كنت أعمل بها، وكان ما يحركني هو محاولة دؤوبة لتنظيف المجتمع من براثن الظلم والفساد التي تخللته.

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

لوى شفته السفلي بلا مبالاة:

- ليس بالضرورة أن ينتصر الخير في النهاية.

بدى عليه الاستغراب، فاستكمل موضحًا:

- لقد خسرت قضية هامة كنت على يقين من براءة موكلي ولكني لم أستطع أن أثبت ذلك، أو بالأحرى ضاع الدليل مني، وبمعنى أدق.. لقد سُرِق.

أخذ نفسًا عميقًا يُعزي به فؤاده ثم أكمل:

- تركت عملي دون تردد واعتزلت جميع الناس كان أبي ساخطًا على استسلامي، وجدي لابد أنه لو كان حيًا لكان كذلك.

بعد وقت قصير قررت أن أمتهن هوايتي، بدأت بالفعل بأخذ دروس في الإنقاذ وقد ألهتني عن التفكير فيما مضي.

تغيرت نبرته للحزن:

- لكن لأن الدنيا دار ابتلاء فقد دقَّ بابي بلاء جديد، مات أبي، شعرت حينها وكأنه القصاص لذلك الرجل الذي خسرت قضيته فأُعدم، صحيح أني لم أقتله.. لكن كان في متناولي إنقاذه، لا أدري إن كان ما فكرت فيه حينها صحيحًا أم لا، لكن هذا هو ما كان بداخلي وقتها.

غمر الحنين صوته فأتت دموعه ملبية النداء:

- لقد كان قريبًا مني، أحببته كما لم يحب ابن أباه، وتعلقت به تعلق الرضيع بوالدته، كانت علاقتي به مختلفة على الدوام، لا تستطيع فهمها أحيانًا كنت أشعر أنه صديقي وأصب على مسامعه همومي صبًا فيسكبها ويبدلها راحة وأمنًا، كان يشعرني بأني طفله مهما مرت السنون وطال جذعي فيأتي ليلاً ويحكي لي الحكايا والفكاهات التي لم أسمعها يومًا بصوت أمي، فقد ماتت وأنا في الثانية من عمري وقد دأب والدي على تربيتي، كان يغمرني بأبوته التي كانت تهدهد روحي وتشعرني أن لي حائطًا أستند عليه إن مالت كل الجدران.

عندما تلقيت خبر وفاته شعرت بانهيار الجدار خلفي ورغم ذلك ظللت ملتصقًا به علّني أسنده كما كان يسندني، لكني اكتشفت أنه الانهيار الأخير فتساقطتُ معه وأصبحت روحي بقايا حطامه.

ركبت سيارتي وأمسكت المقود بعد أن تركت لعمي مراسم الدفن لأني دائمًا ما أكره لحظات الوداع التي تظل طيفًا أسودًا يراودني في كل أوقاتي، لقد أعماني ألمي وشعرت أنه لا فائدة من الحياة بدون أبي.. زِدت سرعتي على زيادتها، حتى وصلت إلى الصحراء والسيارة تعدو بسرعه فائقة، كنت أنوي أن أصطدم بأي صخرة عملاقة فتدكني دكًا، انتشلتني من بين أفكاري الانتحارية سيارة على الناحية الأخرى، لم أستطع تحديد لونها من دماسة الظلام، فُتِحَ بابها وانهالت من داخلها جثة تمددت بدون حراك على الطريق. أوقفت السيارة وقد انقبض فؤادي واقشعر بدني من هول الفجأة، هرعت إليها فإذا بها شابة في مقتبل العُمر تصغرني بسنوات قليلة، نظرت للسيارة التي بدأت تتلاشى مع الظلام، لمحت رأسين من أضواء السيارات المتشابكة، وضعت يدي على رقبتها ألتمس نبضًا يزرع بداخلي أملاً، وجدت نبضًا خفيفًا شاحبًا، وكان ذلك كافيًا لأحملها وأبعدها عن الطريق كي لا تدهسها السيارات، عدت إلى سيارتي وأوقفتها بجوارها ثم حملتها ووضعتها بالداخل وقدت بسرعة محتاطًا هذه المرة.. ذهبت لأزهق روحي وعدت بروح أسعى لإنقاذها!

كانت عيناي تتأرجحان بين المرآة التي تعكس صورتها وبين الطريق أترقب استيقاظها، كانت ملابسها ممزقة كل ممزق لم أنتبه إلا بعد أن زال روعي، فأوقفت السيارة وخلعت قميصي وألقيته عليها ليسترها ما استطاع، وعدت أقود وأنا حائر بين أفكاري، كان ذهابي بها إلى المستشفى مجازفة ولكني مع ذلك توقفت عند أقرب مشفى، وعندما وصلنا طلبت من الممرضة البحث فيما تبقى عليها من ثياب عن

أي شيء يساعدنا على الوصول لأهلها، نظرت لي الممرضة بغرابة لكنني أدركت مغزى نظراتها فصحت بها غاضبًا:

- بالتأكيد لم ولن ألمسها.

توارت من أمامي وقد أخافها رد فعلي، لم يمر الكثير من الوقت حتى أتت حاملة لي هويتها الشخصية، هرعت لحظتها إلى أقرب قسم للشرطة وطلبت منهم أن يجدوا لي معلومات عنها.. أي معلومات، لكن الشرطي الذي حدثته كان متثاقلاً في القيام عن كرسيه حتى، فأشار لي بإهانة:

- عُد في الصباح.

عقدت حاجباي بدهشه وأعدت على مسامعه حكايتها فقد خلته لم يسمعها، قاطعني:

- قلنا لك تعالَ صباحًا، لماذا تخبرني الكلام ذاته مجددًا؟

لم أكن حينها في الوضع الذي يسمح لي بالخلاف معه، أمسكت هاتفي وأنا أنظر إليه بحدة، ونقرت على رقم "فاروق" صديقي عميد شرطة معروف وقد طلب مني بأن أعطيه الهاتف، لا أدري ما الكلمات التي ألقاها على مسامعه، ولكن أثرها ظهر على بوادر الطاعة والانصياع في عينيه، قال لي وهو يعيد لي الهاتف بتبجيل مصطنع عند إنهائه للاتصال:

- أنا أعتذر لم أكن أعلم أنك قريب العميد "فاروق"

ضحك "هادي" ساخرًا فشاركه "رحيم" ضحكته ثم ترك له مساحة ليكمل حديثه:

- لم أحب يومًا هذه الأساليب ولكنه الواقع يجبرك أحيانًا أن ترمي معتقداتك ومبادئك وحتى ضميرك خلفك.

ما هي إلا بضع دقائق حتى ناولني رقم والدتها، نقرت على الأرقام وانتظرت الرد متوترًا، فجاءني صوتها الناعس حينها أعطيت الهاتف للشرطي ليبلغها بما حدث لابنتها، لم أكن أستطيع أن أتحمل المزيد من الصراخ والألم. ذهبت بعدها للمشفى، ووجدت ممرضتين تدفعانها والطبيب خلفهما، نظرت إليه مستفهمًا فطمأنني:

- إنها بخير، لا تقلق.

فتحت عيناها بتؤدة فصرخت بها بدون وعي مني:

- أتعرفين من فعل بك هذا؟

أجابت بصوت مُتحشرج:

- صديقاي.

وقعت كلماتها عليّ وكأني سقطت في بحر متلاطم، غادرت المشفى أجر ساقيّ بعد أن دفعت لها الحساب، وقد علمت من الطبيب أنهما هتكا عفتها قبل أن يرميانها.. في الصحراء!

صمت لوهله واستطرد والحسرة تلف صوته:

- هذا يخون وطنه، وهذا يجبر الآخرين على الرشوة والواسطة، وذاك يُلقي فتاة في عُرض الصحراء بعد أن يُدنس حرمتها ويهتك سترها.

تزاحمت الهموم في فؤادي واتجهت صوب البحر فلم يكن أمامي شيء سواه، وجلست لا أدري أأحزن على واقعنا أم على غفلتنا، أم على وفاه أبي!

حينها جاءت "لارين" ووقفت أمامي كأمل عابر وجد قلبًا مزقته الحقائق فتسلل لداخله ومنحه بعض الحياة، جلست على مقربة مني وبلا وعي ذهب تركيزي كله إليها، بدت حزينة أيضًا وكأن الحزن هو المغناطيس الذي جذبنا لبعضنا أول مرة، لم أعتد على البوح لكن كلماتي كانت تجثم على صدري وتثقله، كما أن حضورها كان مريحًا.. مطمئنًا، تكلمت بعشوائية في مواضيع عدة ليست لها علاقة ببعضها ولكنها أنصتت وتفهمت، لم تعلق ولم تتحدث لكنها اهتمت بما أقوله، فتاة اهتمت بشعور غريب تحدث إليها فجأة يشكوا همًا لا علاقة لها به، فكيف هو حالها مع القريب؟

أغمض عينيه وصمت هنية ثم قال على مهل يتخير كلماته بدقة لتوائم مكانتها عنده، لكنه لم يستطع:

- العلاقة التي تربطني بها أقوى بكثير مما تظن.

عاد يكمل حديثه:

- بعد أن انتهيت من حديثي إليها استأذنتها وقمت من مكاني مبتعدًا عنها، في البداية ظننت أن شعوري نحوها هو مجرد إعجاب مؤقت، أو راحة لشخص غريب سمعني وتفهم حالي في الوقت الذي لم يكن بوسعي أن أفهم أو أحدد ما

الذي يجول بخاطري لكن دقة قلبي لم تكن دقة كانت أشبه ما يكون بالوخزة، توسطت فؤادي عندما رأيت خيالها وساقاي تبتعدان، خشيت أن أفقدها فعدت أدراجي وراقبتها من بعيد حتى رحلت وعادت لمنزلها وأنا أمشي خلفها دون أن تراني، عندما أغلقت الباب ظننت أن ذلك الشعور سيختفي لكن هذا لم يحدث، جاءت ببالي مرارًا، كنت أتجاهل طيفها الذي يراودني وبالرغم من ذلك أذهب إلى المكان الذي رأيتها فيه أول مرة، فإن لم أحظَ بلقائها فشيء من ريحها يكفي.

وبعد محاولات عديدة صارحتها بكل شيء وتعاهدنا على السير معًا، وتزوجنا.. فأن تأتي بين ليلة وضحاها وتطلب مني الانفصال كان أمرًا عصيبًا عليّ، مجرد أنها فكرت به آلمني.

- أتفهم شعورك جيدًا لكن ما مرت به، لم يكن هينًا، كما أنت تعلم يا ولدي أن النساء عندما يحزن فهن لا يعلمن ما يقلنه أو يفعلنه، بل ربما فعلت ذلك لأنها بحاجة إليك وتريد الإسراع من مجيئك.

- لو أخبرتني أن والدها توفى لكان ذلك سببًا كافيًا لأترك كل ما في يدي وأهرول إليها لأكون معها وأُساندها.

ضيَّق عينيه ولقد لاحظ ظلاً لقادم، فقال:

- إنه "نقاء"

في الوقت ذاته خرج إليهم" بحر" وألقى عليهم التحية وأمسك بذراع "نقاء" وسحبه للداخل هامسًا في أذنه:

- دعنا نتركهما ليتحدثا، أتيت في وقتك لتؤنس وحشتي.

- لقد أتيت إليك خصيصًا، فلدي شيء لك.

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

- انظري كم هو مكان رائع، يرجع الجزء الأكبر من روعته أن أرجل السائحين لم تطله بعد، تيارات الهواء هنا قوية كما ترين، إنها قوية للغاية.

قالت جملتها الأخيرة وهي تضحك بصوت عال عندما حملت الرياح شالها وأخذته بعيدًا، أكملت ومازالت تحتفظ بالضحكة على وجهها:

- نتيجة لهذه الرياح الشديدة تحدث ظاهرة في قمة الروعة، انظري خلفك يا "لارين" الرياح عندما تهب عكس اتجاه تدفق ماء الشلال بقوتها وسرعتها الشديدتين، تجبر الماء المتدفق من الشلال على تغيير مساره نحو الأعلى.

بدى الذهول جليًا على وجه "لارين" وارتسمت ابتساماتهم تباعًا، أكملت "دفء":

- لو أخبرتك دون أن تريه ما كنت تخيلت جماله، ثم ما الحاجة إلى الخيال إن كانت الحقيقة موجودة "جاسر" هو أول من اصطحبني إلى هنا.

نظرت إليها "لارين" بحيرة حالما سمعت اسم "جاسر" لم تكن تعلم إن كان عليها إخبارها بما توصلت إليه عن طريق قراءتها للكتاب، كما أنها غير متأكدة إن كان له هو، صحيح أن كل شيء يشير إليه لكن ليس هناك دليل قاطع على ذلك، ولا تدري ما هي ردة فعل "دفء" إن قالت لها ذلك؟ بل إن كانت تعلم كل شيء عن "روح" بالفعل. وقفت "كسوف" بجوارهما تشد الرباط على رأسها الذي تبعثرت خصلاته، تساءلت "لارين" بحرج وهي تقبض كفها على كفيّ "دفء":

- عندما دخلنا إلى دارك كان هناك رجل مسن يجلس بين أشجار الليمون في موضع لا يرى فيه..

وضحت "كسوف":

- إنه أبي، كان يجلس في ذلك المكان الذي اعتادت أمي رحمها الله أن تجلس فيه، وقد جعله أبي قبلته عندما يحتاج إلى الراحة والأنس، ولا يجرؤ أحد منا على أن يتدخل في عزلته.

- أكان يحبها؟

تباطأت خطواتها وصمتت قليلاً وكأنها تجتر شريطًا من الذكريات لا يراه أحد سواها، قالت والحسرة تملأ عيناها وكأنها توقفت على مواطن آلمتها أثناء استعادتها المشاهد:

- كثيرًا جدًا، أكثر مما أحبته.

تقدمتهما ببضع خطوات ثم استدارت ووقفت أمامهما وأكملت بنبرة شبه مرحة طاردة الذكرى الدخيلة التي أفسدت مزاجها:

- كان أبي يهوى التصوير مذ كان في دراسته الثانوية، وقد كان حال عائلته موسرًا، فتح له جدي كشكًا صغيرًا ليبيع فيه صوره بسعر زهيد، لكن مع كل صورة كان أبي يبيعها يشعر وكأنه يعطي لحظات السعادة من عمره بأبخس الأثمان، فآثر أن يحتفظ بصوره وذكراه معها، وقرر أن يبيع الأوراق والحبر وكل ما يخص الرسائل، وقد كانت أمي زبونته الدائمة لأنها كانت تهيم حبًا بكتابة الرسائل الورقية، وتأليف القصص القصيرة في شبابها.

قفزت "كسوف" قفزة قصيرة وهي تلتقط زهرة ياسمين أطلت عليهم من فوق الشجرة لكن محاولتها باءت بالفشل، فأعادت الكرة مرة بعد أخرى حتى أمسكت بها، قالت وهي تتنهد برتم سريع والضحكة تعلو وجهها:

- كما أنها كانت تحب الزهور الجافة أيضًا، لاحظ أبي ذلك عندما رآها تلتقط أزهارًا كان قد رماها بجوار الشجرة أمام كشكه، رمته بنظرة عِتاب يعصف بها الغضب، دائمًا ما كانت تعبيراتها تفضحها، وضعت الزهور بين صفحات كتابها، شعر حينها بالخجل والفرح معًا، لقد حظى بنظرة من تلك الخجول التي لا ترفع عيناها عليه أبدًا، قال ليجعلها تنظر إليه وقتًا أطول:

- لقد ذبلت الزهور لذلك استبدلتها بأخرى كي تليق بطلتكِ.

كان يتوقع رد فعل مختلف بعد كلامه، لكنها فاجأته:

- يجب أن ترى جمال الأشياء حتى بعد ذبولها، فاللذبول جانب من الرقة حتى ولو لم تؤمن أنت بذلك، هذه الأوراق التي تبيعها مثلاً لو جففت هذه الأزهار وأهديت واحدة لكل من يأتيك فستكسب ابتسامة وزبونًا دائمين.

ابتسم حينها ووعدها أنه سيفعل ذلك وشكرها بامتنان، وقبل أن ترحل استوقفها ليتحدث إليها وقتًا أطول:

- هذا عني، ماذا عنكِ؟

لم تفهم سؤاله، فسألته عن المغزى منه، قال موضحًا:

- أعني لماذا تحتفظين أنت بهذه الزهور؟

- ليس لسبب معين لكن صديقي "نقاء" هو من علمني ذلك.

شعر بغصة في قلبه لكنه تجاهل ذلك أمامها، وهي تكمل:

- أرى الأزهار جميلة دومًا ويجب أن نكرم مثواها حتى بعد أن تفقد جمالها وزهوتها، ألتفت لتلك الأشياء التي لا تحظى بانتباه أحد، وأشعر دومًا أن الجمال ينبع منها.

قال واصلاً كلامها:

- بل الجمال ينبت من قلب من يراه.. انعكاس.

قالت "كسوف" وهي تحرك أصابعها بتردد:

- أبي لا يمل من سرد هذه القصة على مسامعنا، سواء على حياة عين والدتي أو بعد مماتها، يرى أن البدايات الصادقة تستمر للأبد في داخل القلب الصادق.

- انظرا إنه قوس قزح.

قالت "لارين" جملتها والعجب يملأ كلماتها:

- عجيب، رغم أنها لم تمطر!

أجابتها "دفء" والابتسامة تزين ثغرها:

- قطرات الماء المتطايرة من الشلال يُقبلها الضوء فينتج هذا الجمال الذي ترينه.

تعلقت عيونهن به لبضع لحظات كل منهن تشاركه خواطرها وتتغزل به في داخلها، قاطعتهما "كسوف" وهي توجه سؤالها الذي يحفه الفضول إلى "لارين":

- لماذا اخترت أنت وزوجك أن تعيشا هنا بالقرب من الغابة؟

- جدتي كانت تسكن في منزلنا الحالي وأنا منذ صغري كنت أهرب من صخب المدينة وآتي إليها وأقضي أيامي بين يدي حكاياتها ونباتاتها، فكان أبي يأخذني إلى هناك لعلمه أن وجودي غير مرحب به من والدتي.

عقدت "كسوف" حاجبيها لكنها استجابت لـ "دفء" التي ضغطت على ذراعها تتمالك الحديث قائلة:

- سأخبرك عن السبب لاحقًا.

أكملت "لارين":

- ولأني ترعرعت بين كفيها الحنونتان، ورثت عنها عشقها للنباتات وتمسكت بمنزلها الذي كانت فيه كل طفولتي، وعندما ماتت جدتي كنت أذهب إلى بيتها بمفردي وأعتني بأمانتها وأؤنسها وأستأنس بها، أجد ريح جدتي في عبيرها، وعندما دخل "هادي" حياتي أخبرته بمدى تعلقي بذلك البيت وأني أريد أن أُكمل حياتي فيه، كان والدي قد اشتراه من الورثة عند وفاة جدتي بعد حرب ضروس بينه وبين إخوته لكنه ظفر في النهاية، كان رد "هادي" أنه سيشتريه من أبي ولن يعيش عالة عليّ، حاولت ردعه عن قراره لكنه رفض إلا أن ينفذه وقد كان، أجرينا عليه بعض التعديلات البسيطة..

قالت وقد أوشكت الدموع أن تفر من عينيها:

- هذا الحديث يضايقني كلما تذكرته فهل لنا أن نغيره؟

تناولت "كسوف" خيط الحديث بعد أن نظرت إليها بتفهم:

- تعلمان.. كنت دومًا أشعر أن أمي لديها قصة حب قديمة لكنها لم تتعافى منها، حتى بعد زواجها من أبي، لا تفهميني خطأ فحكاية أمي كانت من النوع العفيف الذي يعيش في القلب لا على الجوارح.

أتذكر في صغري أنها كانت تصحبني إلى مكان تجلس فيه كثيرًا، وأذكر أيضًا أنه كانت هناك أرجوحة صغيرة، كانت تضعني عليها وتدفعني ثم تختفي فجأة إلى داخل الكوخ ولا تأتي إلا عندما أنادي عليها لتدفعني ثم تعود فتختفي مجددًا، كنت ألاحظ مراقبتها لي خلسة من الداخل، وفي مرة من المرات ناديت عليها كثيرًا لكني لم أجد جوابًا، خفت أن تكون قد ذهبت وتركتني من باب خلفي مثلاً، تضاربت الوساوس في رأسي فدفعت نفسي عن الأرجوحة وسقطت أرضًا وركضت إليها بدموعي فوجدتها نائمة أسفل رسمة على الجدار لولدان صغيران يمسكان أيدي بعضهما، كان واضحًا أنها قامت بإزالة اللوحة العملاقة عن الحائط، كانت هناك الكثير والكثير من الأرقام حولهما، استيقظت ووجدتني أمامها فسألتها من رسم هذا على الحائط وقلت لها "أتمنعينني من الرسم على الجدار في منزلنا وترسمين أنت هنا! "

تبادلن الضحكات، أكملت:

- تجاهلت كل أسئلتي حينها، ومن وقتها منعتني أمي ونفسها من الذهاب إلى ذلك المكان، لسنوات طوال لم تطأه قدماي إلا بعد وفاتها، كانت تجلس على المقعد الذي أريتك إياه يا "لارين" تذكرين؟

أومأت برأسها أي نعم وسألتها:

- ما الذي جعلك تجزمين أن حالها كان بسبب قصة خفية عنكم؟

- جوابك بين سؤالك.. حالها.

❈❈❈❈❈❈❈

- " يا لكَ من أناني..

أجل أنت أناني للغاية، تُعلق الفتاة بحنانك، واهتمامك، وحبك دون أن تنطق به.

لا أقول أنك كاذب وتتصنع ما تفعله، أعلم جيدًا أنك تحبها حبًا جمًا، لكنك جبان، لأنك تعلم علم اليقين أنها تحبك.. ليس لشيء فيك وإنما لأنك أعطيتها تتمناه فتاة رقيقة مثلها، اعتنيتَ بكل تفصيلة كانت تذكرها أمامك، اخترت صفها عندما وقف الجميع ضدها ثم نصحتها في الخفاء وبينت لها خطأها، احترمتها وحميتها، فكيف لا تقع في شباككَ وقد فقدت أبويها قبل حتى أن تنام بينهما وتشعر بحنانهما ولو لمرة واحدة!

لقد ابتلعها ظلام الحياة باكرًا فمددت يدك إليها ورفعتها منه وأنت الغارق فيه، أخرجتها وبقيت أنت في قاعه لا تخرج منه إلا عندما تغرق في خضار عينيها، لقد أمضيت حياتك تهرب من غرق لغرق يا "بحر"، أسمعت يومًا ببحر يغرق! يالسخرية الحياة..

لم تكن تحب الكتابة ولم تمسك يومًا قلمًا وتسبح في خواطرك وتحاول أن تجعلها تتنفس إلا عندما علمت أنها تحب الكتابة، وبرغم قوتك وجرأتك التي تتداول على الألسنة، إلا أنك تتخفي وتتستر وأنت تعترف بحبك على ورقة جافة فترويها به، ثم تقف أمامها وتتراجع عن الاعتراف.

أخبرني الآن لِما تلوم والداك لأنهما رموك ولم يتركا لك ما تحيا به، ها أنت الآن تخلق الكلمات وتغذيها بالحب ثم ترميها في خرقتك القديمة لتَبلي وحدها ولا تزورها، فقط تزيد من إخوتها.

لكن أتعلم..

لا أستطيع أن ألومك كثيرًا.. أنت تخشى عليها، تخاف أن تتغير إن اقتربت، لا تريد أن تزيد نقطة أخرى في حلكة أيامها.

مُعلق أنت بين من تهوى وخوفك من اقترابك منه فيَهوى. "

لم يقاوم دموعه التي انفجرت وهو يسترجع الذكريات التي جعلته يكتب تلك الرسالة، ليته استمع لصوته الداخلي ولم يرحل، ليته هَوَى معها والتقى جناحا الحب فحلقا سوية. بللت دموعه الرسالة حتى أصبحت هشة كحال قلبه، لقد انفطرت مع فؤاد كاتبها في محاولة بائسة لمواساته.

وضعها جانبًا على الطاولة لتجف لكن أنى لها أن تفعل، فهي مثل عمره الذي رحل به بعيدًا عن محبوبته لعله يتماسك وينسى وها هو الآن أعاده، ولكن فات الأوان على إصلاح أخطاء الماضي. "إن من يتأخر يبكي كثيرًا.. كثيرًا جدًا"

دخل عليه بعد أن طرق الباب برفق، رمَى "بحر" بالقماشة على رسائله ومسح دموعه فاختبأ طيف الماضي في داخله، دلَف "هادي" وقال معتذرًا:

- لا أستطيع النوم ورأيت غرفتك مضاءة..

- اجلس يا بني لقد جئت في وقتك تمامًا.

قال وهو يشير إلى الباب:

- رأيت السيد "نقاء" وهو يرحل، كنت أريد أن أسلم عليه لكنه كان يمشي مسرعًا فلم أُرد تعطيله.

- لقد رمى الماضي بين يديّ وفرَّ هاربًا.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

- لكنك لم تعطيني جوابًا.

عقدت ذراعيها إلى صدرها، وقالت بعد تنهيدة قصيرة:

- لا تبحث عن جواب لكل شيء، يقع عليك التقبل أحيانًا.

تقدمها بضع خطوات وركز عيناه في عينيها فتوقفت عن المسير، قال يرجو دواء يشفي تساؤله:

- لكني أريد أن أعرف هل تبادليني الشعور نفسه؟ بعيدًا عن أي مؤثر خارجي أرجوك.

تقدمت حتى بلل الموج قدميها، قالت بعد تفكير لم يدم طويلاً:

- أنا لا أؤمن بالحب يا "غيث"

فرد ظهره، وألقى نظرة خاطفة في الفراغ قبل أن يعيد النظر إليها ويقول متفحصًا:

- ذلك الذي ضربك ووالدتك هو أباك، أليس كذلك؟

أومأت برأسها إيجابًا فاستكمل:

- كان يحب والدتكِ فيما مضي، ولكن انتهى به المآل إلى ذلك الحال؟

أجابت بنفس الإيماءة المؤيدة، فوقف أمامها متوسلاً أن يخفق قلبها ولو دقة واحدة لأجله:

- لكن ليست كل النهايات هكذا يا "ماريانا" يجب أن تعطي نفسك وتعطيني فرصة.

ضمت نفسها بيداها وأحكمت قبضتها وكأنما تطمئن نفسها، سألته بتردد:

- من يضمن لي أن نهايتي لن تكون بنفس الطريقة؟

- أنا... أنا أضمن لك ذلك.

أغمضت عيناها بقوة:

- البشر يخونون العهود منذ خليقة آدم.

لم يجد ردًا عليها فسكت، جلست على الرمال وأمسكت حصاة صغيرة وبدأت ترسم أشكالاً عشوائية، راقبها بصمتٍ للحظات، كان قلبه يدق بوتيرة مختلفة لا يدري أهي شفقة أم حب بالفعل، لكنها لا تشبه أبدًا دقاته عندما كان يري "دفء" حبيبة صِباه.

رفع عيناه فرآها ماثلة أمامه تمشي ومعها زوجة "هادي" وفتاة أخرى لا يعرفها، انقبض فؤاده وتشنجت نبضاته، عاد نبضه عندما ذكرها وعادت معه، أم تراها طيف اختلقه عقله!

اقتربت منه "لارين" وألقت عليه التحية وعيناه زائغتان، تجاهل طيفها الذي ظهر أمامه فجأة عندما أراد أن يبدأ قصة جديدة، قال يبدد الصمت الذي لاحظه الجميع:

- "هادي" كان معي منذ ساعة و...

قاطعته بحزم:

- لا يهمني، لا يهمني أن أعرف، سررت بلقائك، هيا يا "دفء" وأنت يا...

قفز من اللهفة حالما سمع اسمها وعانقها وكأنه خشى أن تتبخر من أمامه، ففزعت ودفعته عنها بكل ما أوتيت من قوة فسقط ماء وابتلت ثياب "ماريانا" التي وقفت ذاهلة تلملم شتات صدمتها، وقد أُغلق قلبها الذي واربت بابه بألف قفل ومفتاح، رحلت بعد سماع حوارهما القصير وبقايا غضبها مبعثر في آثار خطواتها، لم يلتفت إليها حتى:

- هذا أنا "غيث"

تأملت ملامحه واستعادت ذكراه، لقد تغير كثيرًا عما مضى، ألقت ابتسامة فارغة مرتعشة وهي تخفي عيناها من رفيقتيها، قالت "كسوف":

- سننتظرك أعلى الجسر أنا و"لارين" أريد أن أريها شيئًا.

أمسكت "دفء" بذراعها تستوقفها فأمسك "غيث" بذراعها لتبقَ، نظرت إليه بحدة فأبعد يده، قال بعد أن ابتعدتا:

- أعتذر عما بدر مني، لم أقصد.

نظرت بعيدًا عنه غير آبهة باعتذاره فباغتها:

- أنا أحبك يا "دفء"، كنت ومازالت أحبك ولو لم تعلمي.

لم تُشف من صدمتها الأولى حتى صعقها بالثانية، هربت الكلمات كلها من ذهنها ووقفت أمامه منكمشة، غاب كل الحديث الذي قاله عن سمعها، ترى أي مصيبة حلت عليها الآن، سألته عندما استعادت تفاصيل ما حدث:

- التي كانت تقف معك، أهي زوجتك؟

نظر خلفه فلم يجدها، لكنه لم يندم، قال نافيًا:

- لا.. لا أبدًا، أنا لم أتزوج كنت أبحث عنك.

نظرت إليه نظرة متفحصة، ثم قالت بحزم:

- يجب أن أذهب الآن.

- تمهلي، متى سأراك مجددًا؟

- دعها للقدر.

قالت جملتها وهي تسير مبتعدة عنه، فأسرع في خطواته وأوقفها:

- لست على استعداد أن أنتظر خمس سنوات أخرى لألتقيك قدرًا، معظم الأقدار تستوجب منا سعيًا.

❄❄❄❄❄❄❄

- "الجميع يظنون أنك تريد الرحيل لتحقق حلمك، لكنك تهرب يا "بحر" أنت تهرب.

ماذا إن تخليت بالفعل وعدت ولم تجدها أو استطاع غيرك أن يكسب وِدَّها، كيف ستنتظرك أيها الأحمق وأنت لم تخبرها شيئًا عن حبك؟

تكلم بصراحة، أنت لا تريد العودة إلى هنا مجددًا. أنت وحدكَ الآن احتفظ بجبنك ليكون أمامها فقط! فلتجرب أن تصارحها ربما تستطيع إسعادها.. وربما لا.

ستفر إذًا دون أن تعطيها أملاً، وستدفن أملك في فراق بدون وداع.. هذا ما تنويه!

إذا كان هذا ما تخطط لفعله لما كانت صورتها هي أول شيء تضعه في حقيبة سفرك، لماذا تطمئن دائمًا على وجود ربطة شعرها في جيب سترتك.

أتهرب منها وأنت تحمل ريحها في أنفك!

لا أستطيـ..."

تأمل الخربشات التي أحدثها بقلمه على باقي الورقة وكأنه أراد رسم شكل مصغر للفوضى التي في عقله، بادره "هادي" بحيرة:

- إذًا لقد تركتهم لأنك... وليس لأنك أردت شراء فيل؟!

غطى وجهه متفكرًا:

- ليس تمامًا، لقد أردت بالفعل شراء فيل وفي ذات الوقت كنت أهرب، يمكنك القول بأني وجدت الحِجة التي أهرب بها.

- لكن لماذا فعلت ذلك؟

- لو كنت أعرف جواب سؤالك لما زارني الندم.

نظر إليه متفهمًا وكثير من الأسئلة تدور في رأسه، لكنه آثر كبحها فقد شعر بالأسى على حاله، قال وكأنه سمع حديث نفسه:

- عندما رحلت لم تتوقف حياتي أبدًا، على العكس تمامًا لقد تزوجت مرتين وأنجبت فتاة أسميتها "شِتاء"، ولكن عندما تزوجت ابنتي وظللت وحدي عادت حينها أطياف الماضي تدق طبولها لتعلمني أن الحياة المنطقية قد استمرت، لكن الحياة العاطفية بداخلي توقفت منذ أن أخذت قراري بالرحيل دون أن أودعها، ربما لو كنت ودعتها لما كان أي شيء من هذا حدث.

استقام واقفًا وتوجه صوب النافذة يُداري ملامحه المتألمة:

- عندما غادرت عملت حطابًا على سفينه، دامت هذه المهنة حوالي خمس سنوات من عمري، تعلمت منها أن المبحرين ينهكون من كثرة الترحال ويترقبون مستقرًا لهم.

هربت الدموع إلى صوته عندما حبسها في عينيه:

- لكن البحر، لم يسأل أحد عن حاله الذي يموج كل ساعة بل كل ثانية، يوصل بحارًا إلى داره ويَبكيه، ويستقبل آخرًا على الضفة المقابلة، لم يهنأ ولم يرتح فقد كُتب عليه التنقل الدائم.

أحكم قبضته على سور النافذة الرفيع، وقال وهو يغرس أظافره به:

- ليت حب "نسيم" حبسني عن السقوط لأصبح جزء من البحر في اسمه وقَدره، ليته طار بي بعيدًا إلى صحراء حارقة حتى أتبخر هناك وأصبح جزء من الهواء، ونصير أنا وهي نسيمًا واحدًا لنا نفس المآل.

أخذ "هادي" صورة من تلك الأوراق التي وضعها "بحر" بين يديه، لقد كانت صورة لشابة يافعة وقد كتب على ظهرها:

- "لقد نويت أن تترك الرسائل مع "نقاء" أتريدها أن تقرأها في غيابك؟ أتترك لها اعترافًا بحبك على ناصية الطريق الذي أدرت ظهرك راحلاً منه، وأنت تعرف أنك لم تترك وراءك أي شيء يقودها إليك!

مزق الأوراق أو لا تُمزقها فبرحيلك لن يتمزق شيء غير فؤادكما. "



ألقت نظرة على "دفء" فلاحظت أنها تحاول التملص من حديثها مع ذلك الشاب، أشارت إليها عند جهة يعرفانها ثم أمسكت بيد "لارين" قائلة:

- تعالي معي أريد أن أُريكِ شيئًا.

ترددت قائلة تستوقفها:

- لكن ماذا عن "دفء"؟

- هي تعلم أين ستجدنا.

شدتها من ذراعها وتتأبطه، سارا بخطوات سريعة بين جذوع الأشجار، كانت طويلة للغاية لم يسبق لها أن رأت أشجارًا بهذا الطول الفارع من قبل، والعشب كثيف تغوص فيها قدماها مع كل خطوة وكان ذلك يجعل مشيها عسيرًا على عكس رفيقتها التي مشت بسلاسة وكأنها تحفظ الطريق عن ظهر قلب، واعتادت على تعلق الحشائش والتفافها حول قدمها، ودغدغتها مقدمة أصابع قدماها، وصلا أخيرًا عند نهر صغير يجري برتم هادئ، ومن دون أي مقدمات غمست "كسوف" نفسها بداخله، وأغرقت رأسها ثم رفعته فجأة والضحكة تعلو وجهها تتأمل الصدمة المُستقرة على وجه "لارين" التي كانت تشعر بدوار شديد وغثيان، قالت بمرح:

- الماء بارد ومنعش تعالي وجربي.

- لكن..

- إذا كنت تريدين أن تتخلصي من أحمالك تعالي وألقيها هنا.

استجابت لها طوعًا، وقبل أن تمس الماء استوقفتها قائلة:

- لا تقتربي ببطء بل ادخلي فجأة، واغمري نفسك هيا.

فعلت مثل ما قالت فشعرت وكأنها سقطت على كرة ثلج عملاقة تحولت فجأة حال استقرارها فيها إلى مياه دافئة، انتعشت واقشعر بدنها وهي تنتفض من أسفل الماء وتشهق بنشوة والماء يفيض على كامل جسدها، سألتها بفضول:

- ما رأيك؟

أخذت نفسًا من فمها، وقالت قبل أن تعيد الكرة وهي تقاوم الدوار:

- يا له شعور رائع.

تقدمت ناحيتها وأمسكت يدها ومشيا بصعوبة وهما يقاومان جريان الماء عكس خطواتهما، تعثرت "لارين" فأسندتها "كسوف" وهي تضحك وتزفر الماء من أنفها وتسعل، اقتربتا من شلال صغير فوقفت "كسوف" أسفله وجذبتها رغمًا عنها لتقف بجوارها، باغتتها الفجأة وأحست بتضارب الماء فوق رأسها برتم سريع وثابت دون توقف، مما جعل التقاط أنفاسها صعبًا، خرجت من أسفله بصعوبة فانزلقت ساقها وسقطت في الماء بثقلها فدخل إلى أنفها وملأ رئتاها، حاولت الوقوف لكنها لم تقدر، شعرت وكأنها تغرق فحاولت الاستغاثة برفيقتها لكنها لم تستطع سماع شيء سوي بقبقة الماء، انقبض فؤادها وذكرها ذلك بيوم وفاة أخاها الصغير، لقد كان نفس الشعور، فاضت عيناها بالدمع فحمله الماء على متنه، أمسكت بيدها وساعدتها على الوقوف، فأشارت "لارين" إلى ساقها وهي تحاول التقاط أنفاسها، ساندتها حتى وصلتا إلى الضفة وأجلستها، لازمت الرعشة جسد "لارين" واصطكت أسنانها ببعضها وارتجفت شفتاها، شعرت "كسوف" بالقلق وسألتها:

- ما الأمر أنت بخير؟

جلست بجوارهما وقالت تتصنع المرح في صوتها ولم تلاحظ سكون "لارين" ورجفتها:

- أتدخلان الماء في هذا الجو البارد؟

قامت "لارين" وابتعدت عن "كسوف" لم تستطع التماسك بعد بضع خطوات وبدأت تتقيأ وهي تستند على جذع الشجرة وتبكي تنازع المرارة الجارية في حلقها،
ركضت الأخرى إليها وفي يدها قنينة ماء، نظرت إليها بقلق وهي تمسك كتفها:

- أنت بخير؟

استقامت "لارين" وتناولت منها زجاجة الماء ترتشف منه، قالت بعد ابتسامة صغيرة:

- لا تخافي، لا بد أنه بسبب الماء الذي دخل لحلقي.

أسندتها حتى جلستا أمام الضفة، تساءلت:

- أعلم أن هذا ليس وقتًا مناسبًا لطرح سؤالي، لكن لماذا تريدين الانفصال عن "هادي"؟ بين أي اثنين تحدث الكثير من الخلافات، وأرى أن هذه المشاكل هي ما تقوي العلاقة طالما لم يتخلَ أحد الطرفين عن الآخر.

- لكن لكل منا طاقة للتحمل.

- أظن أن هذه الجملة صنعت لتكون مبررًا فارغًا، نهرب بها من المواجهة، ومحاولة علاج المشاكل.

- حتى وإن كان ما تقولينه صحيحًا، أحيانًا نحتاج للهروب بعض الوقت، لا أحد يستطيع أن يمضي عمره مواجهًا، الجبال نفسها عندما تقف في وجه الريح طوال الوقت فإنها تتفتت.

- حسنًا إذًا فلتأخذي هدنة بعيدًا عنه، وأعيدي تفكيرك فربما تغيرين وجهة نظرك، ليس سليمًا أن تتخذي قرارات وقت حزنك.

- لو كان يحبني بالفعل سيعذرني.

- ألم تقولي منذ قليل أن لكل واحد منا طاقة للتحمل؟

احتضنتهما من الخلف:

- تتسامران من دوني، إنها خيانة.

نظرت إليها "كسوف" بخبث:

- من كان ذلك الوسيم؟

قاطعتها بحدة زائفة:

- كان جاري فيما مضى.

- جارك يستقبلك بالأحضان!

زفرت بضيق واحتدت:

- هل رأيتني أنا التي فعلت ذلك؟

قاطعتهما "لارين":

- أشعر بالدوار، وأريد العودة إلى المنزل.

أثناء سيرهن عائدات تقيأت "لارين" مجددًا، وشعرت بالإعياء الشديد، أمضين الطريق بصمت يمازجه الخوف واللوم، حاولت "لارين" أن تمازحهن حتى تبدد هذا الجو الشائك الذي سطا على ألسنتهن، لكن من دون فائدة.

وصلن إلى المنزل، فطلبت "دفء" من "لارين" أن تصعد لتبدل ثيابها ثم تنزل إليها، كانت تخشى إن جلست بمفردها أن تعود للبكاء والحزن وتنهشها أظفار الماضي، انتظرت طويلاً بعد أن أعدت لها عُشبة تقويها، استأذنت "كسوف" بنبرة جافة فقد توجب عليها العودة إلى المنزل، ثم رحلت والحزن يسابق خطواتها، قالت "دفء" حالما رأتها أخيرًا:

- هيا انزلي بسرعة، أسرعي.

نظرت إليها من الأعلى:

- لازلت أشعر بالإعياء، ولا أدري سبب إصرارك على أن نتمشى الآن.

- جلوسك في المنزل لن يحسن من مزاجك بل ستزداد حالتك سوء، هل سنظل نتحدث هكذا؟ هيا انزلي.

بدت علامات التذمر على وجه "لارين" وهي تنزل على السلم الخشبي بحذر، وحالما لامست قدماها العشب حتى جلست "دفء" وأجلستها أرضًا، تذمرت "لارين" قائلة بنبرة يغلبها الغضب:

- تمزحين أليس كذلك؟ هل جعلتني أغير ثيابي وأنزل لكي نجلس هنا!

لم تجبها "دفء" وأخرجت من جعبتها علبة صغيرة، استعر فضول "لارين" وسألتها عن محتواها، لكن "دفء" قامت من مكانها، وقالت بنبرة آمرة يشوبها المرح:

- اتبعيني لتعرفي ما أخبئه لك.

ضحكت قائلة وهي تتأبط ذراعها:

- تعلمين أن فضولي أقوى مني؟

هزت رأسها ايجابًا وكأن مرادها هو إلهاب فضولها أكثر، باغتتها قائلة:

- لكن فضولي حول "غيث" أقوى من فضولي لمعرفة محتوى هذه العلبة.

نغزتها بذراعها وهي تغمز بعينها، ضحكت "دفء" رغمًا عنها وأردفت:

- صدقيني لقد صعقت مثلك تمامًا، عندما رأيته معكما اشتبهت به لكني لم أعرفه إلا عندما صرح لي وتذكرته حينها، كان يحبني حبًا صامتًا ويراقبني أينما ذهبت، أتذكر أنه سقطت مني نقود في مرة فوجدته يلحق بي لعطيها لي، وفي مرة أخرى تعرضت للمضايقة من أحدهم فوجدته أتى من خلفي وطرحه أرضًا وأوسعه ضربًا:

- وماذا فعلت أنت؟

- تركته وذهبت.

ضحكت "لارين" فأكملت:

- ماذا كنت سأفعل، لقد كان يرعبني كنت أشعر أنه خلق ليتبعني ليس إلا.. لكن أتعلمين، كنت أطمئن لوجوده، لا أنكر أني لم أهتم به حتى أني شكوته لأمي عدة مرات، وعندما تمنع عن ملاحقتي شعرت بالوحشة.

صمتت هنية وكأنها تقلب الأمر في رأسها، ثم قالت بهدوء:

- لكنه كان يكبرني بسبع سنوات، وظننت ذلك من خيالات الطفولة وأنه فقط حريص على أمري لنبل أخلاقه، أو في الحقيقة كنت أقنع نفسي بذلك.

عندما أُلقي القبض على والدي ورحلت أمي، ثم موت "لُطف" والحادث على الطريق.. كل هذه الأحداث أنستني حارسي الصامت.

رفعت عيناها في عدم اكتراث مكملة:

- لا أُنكر أنه كان يأتي ببالي قبل أن أتزوج "جاسر" لكنه كان مجرد ذكرى لطيفة، ورؤيتي له وجرأته التي لم أعتد عليها أدهشاني، لكنهما لن يغيرا من الأمر شيئًا فأنا أُحب "جاسر" وسأظل على إخلاصي له.

- لكن..

قاطعتها قائلة:

- هذا الأمر غير قابل للنقاش.

قالت بحدة:

- ما الذي تقولينه؟ أعلم أنك تحبينه ولكن إن عشت على ذكراه ستدفنين ما تبقى لك من أيام، ثم ما علاقة الإخلاص بأن تُحبي مجددًا، هذه ليست خيانة، إذا أعطتك الحياة فرصة ثانية فلماذا تدفعينها، جربي فقط!

أنت لا تعلمين لو كان مكانك ماذا كان ليفعل؟

- سيخلص لي، لم يُحب غيري ولن يفعل.

- لا تكوني واثقة هكذا.

قالت تُغير سريان الحديث بعد أن لاحظت نفورها منه:

- دعكِ من ذلك، ماذا عن مكنون العلبة؟

نظرت إليها بطرف عين، وضحكت قائلة:

- أما عن هذه فسأترك فضولك يتقد حتى نصل، وقد اقتربنا.

فرَّت الكلمات فجأة، واحتل الصمت الجو، سرعان ما تلاشى عندما قالت "لارين" وهي تهيم في الفراغ بنظراتها:

- ظننت أن "هادي" سيأتي..

قالت تلومها:

- لو تركت "غيث" يكمل كلامه لكنت عرفت أين هو.

قالت كلماتها وهي تؤنب نفسها، فقد خرج لها "رحيم" وأخبرها أن "هادي" هنا لكنه لا يريدهما أن يلتقيا الآن فبداخل رأسه أمر يخطط له، وهذا هو السبب الحقيقي الذي جعلها تصر على الذهاب للميتم اليوم، حالما وصلتا وضعت يديها على عينيها وتأكدت من إغلاقهما جيدًا بعد أن ربطت منديلاً عليهما، قال موضحة بعد أن فاجأتها بصنيعها:

- ستغمضين عيناك وتعدين للخمسة ثم تفتحينهما وتسيرين في طريق مستقيم، سأزيح يداي الآن لكن لا تنزعي المنديل إلا بعد أن أناديك، اتفقنا؟

ركضت بسرعة على أطراف أصابعها ودخلت من باب الميتم إلى باحته الواسعة، نظرت خلفها فوجدت "لارين" لازالت تسير ببطء وبجوارها "المعلمة ظِل" تمسك عكازها وترتكز عليه وهي ترشدها إلى الطريق، وصلت "دفء" إلى التجويف بين المبنيان الكبيران فوجدت الأطفال مجتمعين كما سبق لهم واتفقوا، وضعت إصبعها على فمها وهي تُخفي ضحكتها أن أخفضوا أصواتكم، فبادرها الجميع بنفس الإشارة وكل منهم يكتم ضحكاته بداخله، تسللت ضحكة من فم أحدهم بسبب الحماس والزحام، أمسك فمه ليكتمها فتهافتت الضحكات المكتومة ضحكًا عليه.

أشارت لهم أن استعدوا، عندما اقتربت ثم أعطتهم إشارة الانطلاق، فركضوا جميعًا يتدافعون ويرشون على "لارين" الزينة ويطلقون سراح الضحكات في الجو فأبهجت قلوبهم وأفئدة المارين حولهم، ما أجمل الحرية خاصة إن كانت ضحكة طفل يتيم.

تحررت من المنديل ونظرت إليهم بدهشة مستمتعة بدورانهم حولها، وتلك الأحضان التي كانوا يسرقونها خلسةً يلتمسون ويمنحون منها دفئًا.

وقفت "دفء" بينما اصطف الأطفال وراءها حتى شكلوا ما يشبه القطار وداروا حول"لارين" كل منهم يغني بأقرب الأغاني لقلبه غير آبه بنظام أو قاعدة، لحقت "لارين" بآخر القطار واستسلمت لتلك السعادة التي تدفقت بداخلها فجأة، وضحكت كما لم تفعل من قبل وكأن الحزن لم يمس حياتها أبدًا، كان كل طفل يرى ضحكاتهم يدخل ويشاركهم فرحتهم منتهزًا الفرصة، فالضحك والإحساس بأنه طفل لا يصادفه كثيرًا هنا.

وقفت "دفء" وهي تحاول استرداد أنفاسها من بين كل هذه الضحكات، ثم نظرت لـ "لُطف" التي ابتسمت بدورها وكأنها تحثها على فعل شيء كانا قد اتفقا عليه مسبقًا، لم تأخذ "لارين" وقتًا طويلا لتعرفه فقد أخرجت "دفء" العلبة الصغيرة

التي كانت تثير فضولها قبل قليل، ثم أرتها محتواها مع ابتسامتها، كانت سلسلة قصيرة بدا طرازها عتيقًا ولكنه قريب محبب للنفس، لونها نحاسي مُذهب تتدلى منها دائرة زجاجية مُغلقة بداخلها زهرة بيضاء جافة في حجم حبة اللوز تزاحمها زهور أصغر حجمًا، لم تستطع مقاومة دموعها وهي تغلقها حول رقبتها، وتقول بنبرة حانية:

- لقد جئت بها في هذا الطول لتكون بجوار قلبك دائمًا، وتذكرك بي، وأني لن أتخلى عنك ما حييت، وإن حدث وتخاصمنا وضعيها أمام قلبك وتذكري هذه اللحظة التي نحن بها الآن.

نظرت إليها بعينان احتارتا في انتقاء الكلمات لتصف سعادتها فاكتفت بالمزيد من الدموع وهي تقبض ذراعيها على خصرها وتخبئ رأسها في كتفها، احتضنتها "لُطف" من ساقها وانضم إليهم بعدها الأطفال تباعًا.

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

- عندما أتى دوري للاختيار بين البقاء والذهاب لم أستطع النظر في أعين أصدقائي وأنا أضرب أعناقهم بكلماتي.

طافت الدموع داخل عينيه وتسللت تتساقط على صدره وكأنها تحاول أن تبلل الرماد الذي سكن فؤاده لعله ينبت زهرًا.. لكن أنى لها أن تفعل:

- حمدًا لله أني فعلت ذلك فها أنا ذا لم أستطع أن أشتري فيلاً، صديق وفي لن ينساني أبدًا! لكن..

ازداد سيل دموعه حتى فاضتا وشوشت رؤيته:

- كان لديّ أصدقاء لن ينسوني، كانوا عائلة، لكنه الإنسان عندما يجهل قيمة النعمة. أو لعلي كنت أهرب من كوني يتيمًا وأردت التخلص من المكان الذي عرفت فيه حقيقة أمري، كنت أرفض الماضي والحاضر، كنت أكره جدران الميتم التي فُرضت عليّ بدون إذني.

كرهت عددنا المتزايد وهمي الذي لا يزول، وعيوننا التائهة وكأننا نستجيب لسائقنا ولا قرار لدينا سوى المتاح فقط، ليتني قنعت به.. ليتني لم أهرب!

❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈ ❈

جلست على كرسي خشبي بجوار النافورة العملاقة التي توسطت الباحة الواسعة، حاولت استرداد أنفاسها بعد أن أنهكها الركض لكن برغم هذا التعب الذي خدر جسدها إلا أنها لم تستطع التوقف عن الضحك، دارت بعيناها في المكان والفرحة تكاد تقفز من بين ضلوعها، لم يسبق لها أن لعبت هكذا مع الأطفال دون خوف.. رهبة.. ألم! كما أنها رأت "دفء" لأول مرة بهذه السعادة، أغمضت عيناها والبهجة تتسابق في عروقها، بالفعل نحن نختار كيف سنعيش حياتنا عندما نختار الأشخاص الذين حولنا، وقد أحسنت اختيار "دفء" أو لعلها كانت هدية القدر لتؤنسا بعضهما.

رأت "المعلمة ظِل" وهي تبتعد قاصدة غرفتها دون أن يلحظ أحد، لقد عرفتها من الصور التي رأتها مع العم "بحر" لم تتغير كثيرًا لقد نقشت التجاعيد على وجهها وحنى العمر ظهرها، دخلت إلى الغرفة وعينا "لارين" تلاحقانها حتى أغلقت الباب خلفها، قامت "لارين" وتوجهت نحوها فقد أرادت أن تسألها عن "العم بحر" وأصدقاؤه، ترى هل ستضيف لها شيئًا على ما تعرفه؟

ظل سؤالها الأخير معلقًا في ذهنها من دون إجابة عندما وقعت عيناها على فتاة صغيرة جلست على صخرة تبكِ وبجوارها صبي يحاول مواساتها، أمعنت النظر إليهما دون أن يلاحظا مراقبتها لهما، نبتت ضحكة الصغيرة من بين دموعها فعلمت "لارين" أنه قد نجح في طمأنتها، ثم أشار لها أن اجلسي هنا وانتظري وقام من مكانه وركض بخطوات سريعة حتى اختفى وراء الزحام، احتل الفضول عيناها وذهبت وراءه لترى ما سيصنع ونست أمر "دفء" وبقيه الأطفال.

سارت بخطوات سريعة ازدادت حتى شابهت الركض عندما شعرت أنها قد أضاعت أثره، قلبت عيناها باحثة عنه، لقد كان مميزًا بخصلات شعره البندقية الطويلة التي أوشكت أن تلامس كتفيه، رأته يصعد السلالم بسرعة فلحقت به، دخل إلى غرفة ورفع وسادته ثم نظر يمينًا ويسارًا ليرى هل هناك من يراقبه، انسحبت "لارين" خلف الجدار لكي لا يراها، سمعت بكاءه فاسترقت النظر لتجده يمسح دموعه، ويهمس:

- لا أريدها أن تبكي يا إلـهي ساعدني، أتمنى أن تكفي هذه النقود لإجراء مكالمة لوالدتها.

ثم أفرغ محتوى الكيس في جيبه والدموع تظلل عيناه، تقدمت ناحيته وقد أشفقت عليه، مسحت على ظهره ففزع ثم ما لبث أن استكان عندما طمأنته وهي تربت على كتفه، جلست إلى جواره وسألته بحنان يغمر كلماتها:

- لماذا كانت الصغيرة تبكي؟

انعقدت الكلمات في لسانه، فبادرته تهدئ من توتره:

- أخبرني فقد أستطيع تقديم بعض العون لك لتساعدها.

نظر إلى عينيها الحانيتان ثم إلى النقود التي في يمينه ويخشى أنها لن تكفي مطلبه، قال وقد غلب البكاء كلماته:

- لقد تركتها والدتها هنا منذ ثلاثة أشهر وعندما أدخلتها الأستاذة "ظِل" علينا كانت لا تريد أن تتحدث لأحد مطلقًا، ولم تكن تكف عن البكاء أبدًا، كنتُ أشفق على حالها ونحيبها اللذان لا يتوقفا، ولكنها اليوم جاءت وطلبت مني أن أساعدها لتهاتف والدتها ولم يكن لديّ سوى هذه النقود التي أدخرها منذ بضعة أشهر لكي أشتري فطائر الزبد والعسل التي كان أبي يكافئني بها عندما أحسن التصرف، أخرج منديلاً قماشيًا من تحت وسادته ومسح دموعه الفياضة، ثم ضمه إلى صدره مكملاً:

- لقد حاولت أن أساعدها وأجعلها تلعب معنا ولكن بلا جدوى، وأخشى أن أخيب أملها وتعود فلا تكلمني إن لم أساعدها.

تبادلا نظرات قصيرة، سألته تغير محور الكلام:

- أهذا المنديل لوالدك أيضًا؟

عادت عيناه تسبحان في الدموع، وكأنها أضافت ألمًا إلى ألمه بسؤالها:

- نعم، إنه كذلك.

احتضنته برفق حتى هدأ بين ذراعيها ثم مدت أصابعها إلى جيبها وأخرجت ورقة نقدية ودستها بين أنامله الصغيرة، وابتسمت تزف إليه البشرى:

- اذهب واجعلها تهاتف والدتها، وكُلا في الطريق فطائر الزبد والعسل.

هزّ رأسه رافضًا بكبرياء رجل لم تعهده على الأطفال:

- لا.. لا.. أكملي لي فقط ما يكفي لثمن المكالمة.

خطفت الدهشة ملامحها، ولكنها سرعان ما ابتسمت قائلة:

- ألم تقل لي أنك تريد أن تراها سعيدة، وأن تتوقف عن البكاء؟

أومأ برأسه مؤكدًا، فأكملت:

- حسنًا إذًا، إن أطعمتها وشاركتها ما تحب فستفرح كثيرًا.

ثم قالت تعيد عرضها السخي:

- هيا خذ.

هزّ رأسه موافقًا وهو يشكرها بامتنان، ثم خرج من الغرفة على عجل، تعقبته دون أن يلاحظها، رأته يركض ناحية الصغيرة وسحبها من يدها وركض والابتسامة تزين شفتيه وهي تنقاد خلفه مستسلمة، كادت إحدى المعلمات توقفهما لكي لا يخرجا، ولكن "لارين" أشارت لها أنهما معها فابتسمت وبادرتها:

- انتبهي عليهما جيدًا، ولا تتأخروا عن موعد الـ...

هزت "لارين" رأسها تأييدًا دون أن تنصت لباقي الإرشادات، نظرت أمامها باحثة عنهما فلم تجدهما، صعقت، وارتبكت، وتجمد فؤادها ويداها للحظة كما هي العادة عندما تخاف ولكنها سرعان ما رأتهما يدخلان زقاقًا على ناصية الطريق، فسارعت تلحق بهما، توقفت فجأة عند منحنى الشارع واستندت بيديها خلف الجدار وقد أوشك الفتى أن يراها ولكن فرحته أغشت بصره، كانا قد توقفا عند محطة هاتف فجثى على ركبتيه وجعلها تصعد على ظهره، أمسكت الفتاة بسماعة الهاتف وما هي إلا بضع ثوانٍ حتى بدأت دموعها تسيل من جديد.

وضعت "لارين" يدها على صدرها ترجو من خافقها أن يظل صامدًا ولا ينهار، فهؤلاء الأطفال رغم أعمارهم الصغيرة وحجم المعاناة التي يتعرضون لها إلا أنهم لا يكرهون.. لا يبغضون.. حتى من تخلى عنهم وتركهم في أمانة غريب! إننا نكره فقط عندما نكبر، ونعقل، ونتذكر، لكن ما قبل ذلك تجبه قلوبهم البريئة.

رأت متجرًا صغيرًا يبيع الفطائر فسُرت لذلك ومشت إليه وهي تتابعهما، طلبت ثلاث شطائر على عجل وعيناها معلقتان عليهما، رأتها تضع سماعة الهاتف استعجلت البائع الذي تعجب لأمرها، ثم لف لها الفطائر ونقدته حقه دون أن تأخذ

الباقي وركضت ناحيتهما، كانت الصغيرة تنزل عن ظهره وقد أوشكت على السقوط لكن "لارين" ساندتها، بدا عليه الاستياء، سألها بضيق:

- هل كنت تتبعينني؟

جلست على رصيف الشارع وأجلستهما على جانبيها، قالت توضح له:

- لقد أردت أن أعد لك مفاجأة.

تنامت ابتسامة صغيرة على جانب ثغره ثم اتسعت عندما اشتم رائحة الفطائر قائلاً:

- أنت طيبة للغاية.

نظرت إليه بذهول وهي تتأمل ملامحه الصادقة، أعطت كلاً منهما فطيرته ومسحت على رأسيهما، ثم توجهت بنظرها للفتاة التي افترش التوتر وجهها، لكنه استدركها قبل أن تتكلم، وقال موضحًا:

- لا تخافي إنها...

ثم ضحك بخجل سائلاً:

- ما اسمك؟

- "لارين".

استعاد خيط كلامه، وقال موضحًا:

- إنها صديقتي وأنا أثق بها، لا تقلقي.

قال جملته الأخيرة وهو يقضم قضمة كبيرة من الفطيرة بتلذذ فتشجعت الصغيرة وقضمت قضمة صغيرة وهي تنظر لـ "لارين" بترقب، وما أن استساغت الطعم حتى بدأت تلتهمها كرفيقها، سألتها "لارين" بعد أن كسبت شيئًا من ثقتها:

- ما اسمكِ يا صغيرتي؟

قالت ببراءة وصوت خافت وهي تمضغ الطعام:

- "هالة"

داعبت خدها بحنان ثم أضافت:

- وما الذي جعل هالتي الصغيرة تبكي؟

تركت "هالة" شطيرتها جانبًا وابتلعت ما تبقى في فمها، ثم ازدحمت الدموع في عينيها مجددًا، عندها انتبه لها الفتى قام من مجلسه وجلس بجوارها يربت على كتفها، بينما أكملت بنبرة باكية:

- لأن والدتي تركتني هنا، قالت أنها لا تستطيع القيام برعايتي، وأن أبي مات.

عادت دموعها تنزل مدرارًا، ثم سألت "لارين" والأمل يلمع في عينيها:

- هل تأخذيني إليها، أرجوك أريد البقاء معها.

ضمت "لارين" حاجبيها بحسرة، فأضاف الصغير:

- أنا أعلم في أي بلد سافرت والدتها، لقد قالت للمديرة أنها سترسل لها سنويًا مبلغًا شهريًا مقابل أن تُبقي على ابنتها هنا وتعتني بها، أعطتها ورقة مكتوب بها عنوان المنزل الذي ستنتقل إليه، يمكنني التسلل والعثور عليها.

هزت "لارين" رأسها نافية وهي تضم "هالة" لصدرها، وقالت موضحة:

- لو أن والدتكِ أرادت أن تكوني معها لَما تركتك هنا يا صغيرتي، إن ذهبت بك إليها سوف تضعك في مكان آخر، بينما أنت اعتدت على المكان هنا وصار لديك أصدقاء.

تراجع الصغير عن عرضه السابق بعد توضيحها، وقال راجيًا:

- لا تذهبي.

صمتت "هالة" وتركت العنان لعَبراتها تنهمر على خديها، ثم قالت والدموع تقطع أنفاسها:

- إلى أين يذهب الموتى يا "ضياء"؟ أعني ماذا أفعل لكي أذهب إلى أبي؟ هل يذهب إلى مكان ما ويأخذ تذكرة ويدخل إلى هناك؟

نظر "ضياء" إليها ذاهلاً فلم يسبق له أن تساءل عن هذا، وعلق عيناه بـ "لارين" التي حركت رأسها نافية ثم قربت وجهها من وجه "هالة" وأشارت إلى السماء:

- عندما يموت الناس يصبح لديهم قدرات خارقة، يختفون فلا نراهم لكنهم يروننا، يعيشون في كل مكان حولنا، وهنا.

قالت جملتها الأخيرة وهي تشير إلى قلبها، فأغمضت "هالة" عيناها وقالت برجاء:

- أبي إن كنت تسمعني عَطِل قواك الخارقة لبضع لحظات واحتضني، أرجوك!

زاغت عينا "لارين" والحزن ينخر روحها، كيف لأم أن تتخلى عن ابنتها هكذا، جال ببالها وجه والدتها وفي خاطرها: "آهٍ يا أمي لقد احترق قلبكِ على فقدان أخي ورضيعتي بينما هناك من يُلقون أولادهم في المياتم وهم لا زالوا على قيد الحياة! "

احتضنت كفيهما عائدة وشعور الأمومة يتدفق في أعماقها، أخذت نفسًا عميقًا لتطمئن نفسها لكن سرعان ما تسرب الخوف إلى قلبها وهم يمرون بمحاذاة البحر.



اعتراف

- لم أكن سآتي لولا أنك جعلتَني أعدك بأني سأفعل.

قام من مجلسه مبتسمًا، وقال يتمهلها:

- مرحبًا بك أيضًا.

جلست أمامه على استحياء قالت:

- سَلمت.

- سلامي معك، وتمهلي لا أقول ذلك تغزلاً بك وإنما لأنها الحقيقة.

- لقد رتبت كلماتك جيدًا.

- صدقيني لو استطعت أن أقولها كما رتبتها، وكما أشعر لما قُمتِ من مكانك إلا وقلبك بين كفَيَّ.

همت بالقيام من مجلسها راحلة لكنه أمسك معصمها يستمهلها، نظرت إليه والغضب يشتعل في عينيها فتنحى جانبًا معتذرًا، ثم قال:

- لقد وعدتنِي أن تسمعيني، وأنا لم أقل شيئًا بعد.

- إذا أردت أن أسمعك فاحفظ عني لسانك ونظراتك، فوالله لا أرضَ الجلوس ثانية أخرى إن لم تفعل.

أومأ برأسه موافقًا، وقال بجدية:

- لن أسألك عن سبب اختفائك، لكنني أريد إخبارك بشيء واحد فقط.. لقد أحببتك كثيرًا يا "دفء" وانتظرتك ولكنك اختفيت، وصدقيني حبي لك صادق منذ أن كنت طفلة صغيرة حتى كبرت أمام عينيّ، أعلم أن الفارق بيننا سنوات ولكن..

- ليس ذلك هو السبب الوحيد، لقد تزوجت.

شعر بفؤاده وقد انتفض بقوة، ازدرد ريقه بصعوبة وكأن الكلمات توقفت في حلقه، أكملت لتعيد إليه رمق الحياة:

- لكن زوجي توفى وأنا أعيش مع والده الذي هو والدي، لقد آواني ورعاني، كما أنني أحب "جاسرًا".

تهللت عيناه رغم أن الضيق لم يبارحه، وقال مستفسرًا:

- هذا يعني أنك لا ترفضينني لذاتي؟

هزت رأسها إيجابًا؛ فقال مستبشرًا:

- كل ما دون ذلك يتم حله.

❊❊❊❊❊❊❊

- لا أدري لماذا جعلتني أبيت الليلة عند "كسوف"، وأين كنت هكذا بكل هذه الأناقة؟

لم تجب عليها واكتفت بضحكة خجول، استفسرت "لارين" بعد أن لاحظت أنهما يمشيان في طريق مختلف:

- إلى أين سنذهب؟

ظلت صامتة أيضًا، فاشتعل غضب "لارين" وأمسكت بذراعيها ترجها رجًا في عتاب ممزوج بالمزاح:

- أبتلع القط لسانك؟ أجيبيني ما الأمر، وما سر هذا الشرود هه؟ أشتم رائحة حب ممزوجة بقطرات الـ غيييث في الجوار!

ضربتها في كتفها:

- عن أي غيث تتحدثين الشمس ستحرق رؤوسنا.

رمتها بنظرة خبيثة تترقب رد فعلها:

- غيث القلب يا "دفء"، الجملة غريبة للغاية.. غيث ودفء! هل يجتمعان!

وقفت في مكانها، وعقدت ذراعيها:

- لقد قابلته.

صاحت "لارين" بصوت مرتفع:

- كنت أعلم، والله كنت أعلم.. شممتُ رائحة الغدر وأنا نائمة.

ضحكتا، فحاولت "دفء" تغيير مسار الحديث:

- هل استطعت النوم بالأمس؟

- لا تحاولي، ستخبرينني بما حدث تفصيلاً.

- أعدك أن أفعل في طريق عودتنا، أما الآن فيجب أن نسرع إليها.

نظرت ببلاهة:

- من؟

- تذكرين عمي "نقاء" إنها زوجته ورفقية حياته، تربيا سوية في ذلك الملجأ مع العم "بحر" وأبي و"نسيم".

غيم الصمت على المكان بضع لحظات ثم تلاشى بتوضيحها:

- إنها لا تَرى عمياء لذلك لا تستغربي.

بديٰ الأسى على وجهها، فقالت طاردة حضوره:

- لكنك ستستمتعين بحكاياتها، عمي "نقاء" يطلق عليها "ابنة الحكايا"، وقد أتقن وأجاد في وصفه.

سارا بضع خطوات كل منهما أخذتها خواطرها بعيدًا، أعادت "دفء" وصل الحديث قائلة:

- حياتها قاسية؛ لقد أجبر جدها والدتها على الزواج من أخ صديق له، في البداية كان خلوقًا يعاملها بلطف وحنان فشعرت بالأنس معه وتحول رفضها إلى قبول وسعة صدر، تزوجا وما إن أنجبا "ليل" حتى صوب مخالبه نحوها، اشتعلت الخلافات بينهما بالضرب، والسب، والحبس، والهجر، لم تستطع المسكينة أن تتحمل، فأخذت صغيرتها "ليل" وذهبت إلى والدها تستنجد به من ظلم زوجها، أمرها والدها أن تعود إليه، وأن لا تريه وجهها مجددًا، لكن أمها رفضت ذلك ووقفت أمامه لتحمي ابنتها فانقاد لها والدها

على مضض حتى تطلقت من زوجها، كان والدها يُشعرها دومًا أنها عبء عليه، ودائمًا ما كان يقول أنه لم يكن يرغب في إنجاب البنات فهو يرى الهم مربوط بأقدارهن، وأن سبب نفور زوجها وغضبه عليها بلا شك لأنها قد أنجبت له بنتًا.

كان قاسيًا على حفيدته "ليل" يتجاهلها.. يردعها إن اقتربت منه، يوبخها، يلفظها إن توارت في حضنه وهو نائم، كان يصل به الحال أحيانًا إلى ضربها وهي ابنة عامين! حتى أتي اليوم المشهود، دخلت الصغيرة إلى غرفته ومزقت أوراقًا مهمة كان حريصًا عليها فما إن علم حتى انهال على "ليل" ضربًا بعكازه، من شدة ألمها وصراخها لم تدرِ ماذا تفعل لتهرب منه فقفزت من النافذة التي خلفها، وتشبثت بسيخ حديدي كان مثبتًا في الحائط، أتت الجدة في اللحظة التي قفزت بها "ليل" فصرخت صرخة خلعت قلب جدها وأبكته، لقد أعماه الغضب فكان سيزهق روحًا بريئة، وأي روح.. حفيدته!

مدت الجدة ذراعها المرتجف والتقطت الصغيرة وقلبت جسدها الذي التهب، رأت جرحًا غائرًا في منتصف بطنها والدماء تنزف منه بغزارة، لأنه عندما سقطت غُرز بثيابها وجسدها أيضًا، لقد نجت من ذلك الحادث بأعجوبة، إنه القدر!

بدت علامات الحزن والشفقة جلية على تعابير "لارين" أكملت حديثها المبتور وهي تلتقط زهرة صغيرة بيضاء وهي تكمل سيرها بخطوات ثابتة:

- عندما عادت والدتها من السوق، وسمعت بما قد كان أصرت على الرحيل، لم تحاول الجدة منعها فهي أيضًا كان تخشى عليهما من بطشه، حزمت أمتعتها ووقفت تودعها، أوقفها والدها واعتذر إليها والندم بادٍ عليه، لكن القسوة التي تركها في قلبها نحوه لم تجعلها تحرك جفنًا وتشفق على حاله وقد أكله الندم على فعله، قالت وهي تحمل صغيرتها على صدرها استعدادًا للرحيل:

- أليس الهم مربوطًا بأقدار البنات وأنت لم تكن تريدني؟ سأريحك مني ومن همي، فلتهنأ بحياتك.

فتحت الباب ثم استدارت تقول الكلمات التي وقفت في حلقها:

- لكن اعلم أني لن أُسامحك.

سألتها "لارين" بعد أن جرت دموعها:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- أرادت أن تطمئن على ابنتها فذهبت بها إلى الطبيب فطمأنها، ثم سألته بحرج عن عمل لها إن كان يعلم، لكنها لم تجد مطلبها عنده، وعندما خرجت من عيادته سمعت سيدة مُسنة تناديها، وقالت إن طلبها عندها.. دار أيتام يقع في مكان نائي عند أطراف الغابة يحتاج إلى عاملة نظافة، ويكفل لها مكانًا للنوم وأجرًا يعينها وابنتها.

وافقت على الفور فلم يكن أمامها فرصة أخرى، وبالفعل عملت بالميتم واستأذنت مديرته أن تضم ابنتها "ليل" إلى الأطفال لأنه ليس لديها أحد تتركها معه، وتريد أن تكون ابنتها في يد أمينة أثناء عملها، وافقت المديرة بعد أن سمعت قصتها.

لم يمضِ وقت طويل حتى توفت والدتها، وقد أوصت المديرة قبل وفاتها أن تخبر "ليل" بحكايتها عندما تكبر، حتى لا تظن أن أمها قد تخلت عنها وينكسر فؤادها.

❈❈❈❈❈❈❈

- عندما تزوجت "نقاء" بالرغم من أننا كبرنا معًا إلا أنني كنت خائفة أترقب الأيام وهي تمر أمامي، لم يكن الأمر سهلاً أن أكون يتيمة بين أيتام ومع ذلك أقرر أن أكون أمًا!

تنهدت برفق، وقبضت على سلسلة تُحيط بعنقها:

- كان هذا ناحية، من ناحية أخرى كانت تظهر لي خيالات أبي في طفولتي وحتى بعد أن كبرت، صحيح أني لم أره لكني تخيلته كما يجب أن يكون.. بشعًا.. ذو عينان حادتان وأيدي طويلة، وأظافر قاطعة، وصوت مزعج باطش.

مسحت دمعة سالت من عينها:

- منذ أن أخبرتني المعلمة بقصتي لم تفارقني الصورة التي رسمتها لوالدي في مخيلتي. أعطتني وقتها هذه السلسلة التي كانت هدية والدي لأمي في زفافهما، من حينها لم أستطع أن أخلعها، فغير أنها الذكرى الوحيدة من أمي وثوبين قديمين، إلا أنها تلتف حول عنقي وتخنقني كلما حاولت أن أرسم لوالدي صورة أفضل.

أكملت بصوت خفيض، ونبرة ساخرة دون مقاومة لدموعها:

- حتى وإن لم تفعل السلسلة فالذكرى تفعل.

صمتت هنية وهي ترفع بروازًا متوسط الحجم على الطاولة، أكملت حديثها المبتور:

- "نقاء" كان يضع يده على خوفي ويسكنه دومًا، لذلك عندما طلبت منه عدم مطالبتي بإنجاب أطفال، قبِلَ!

تحسست بكفها تجاعيد يدها اليُمنى:

- بقينا على هذه الحال سبع سنوات، ويشاء الله أن يقول كُن، فكان الحَمل. على غير المتوقع كنت سعيدة، صحيح أني كنت مشتتة، خائفة، مترقبة، لكني لا أستطيع إنكار سعادتي وتقبلي للأمر.

وضعت كفها على ثغرها بحياء تكتم ابتسامة باغتتها كيُسرٍ بين عُسرين:

- لم أدرِ كيف أخبره، ترددت كثيرًا أمام باب غرفته، كان في ذلك الوقت يجلس هنا ويقرأ كعادته، تسللت ونظرت إليه من خلف الباب وكنت أظنه لا يراني لكني تفاجأت به يناديني، على استحياء قلت:

- كيف علمت أني هنا؟

- وهل يُجهل مكان الزهور إن أُشتم عبيرها!

زففت إليه البشرى لكنه كان يترقب رد فعلي بقلق وتوتر فأجبته أني سأكمل حملي وسنكون أبوين.

مسحت على خدها برفق، وابتسامة هادئة تعلوا شفتيها وهي تكمل:

- حملني من سعادته إلى غرفتنا وطبع قبلة على خدي، وقال لي أنه سيعد لي مفاجأة، لن ينام حتى ينتهي منها، وقد كان. لقد صنع لي ذلك البرواز الذي ترينه يا "لارين" كان" نقاء" مهووسًا بالزهور، وتجفيفها ووضعها بين صفحات كتبه؛ بات ليلته تلك يجمع الأزهار الجافة من الكتب، ويلصقها على ورقة فصنع لي منها شكلاً لجنين في رحم أمه ووضعه في برواز صغير كما ترين. كدت.. كدت أحلق من سعادتي، واتفقنا إن أتت فتاة سنسميها "عِطر"، وقد كان.

تمشت بيدها على غير هدي باحثة عن يد "لارين"حتى أمسكتها عندما تأكدت أنها هي، وقالت:

- ما أريد قوله يا ابنتي هو أن تواجهي خوفك ولا تضيعي مزيدًا من الوقت، صحيح أن "عِطر" رحمها الله، لكن هذا قدر، كل ما علينا هو الأخذ بالأسباب والله هو الآخذ والمُعطي، لا تحملي نفسك مالا تطيق، موت أخيك لم يكن أبدًا بسببك، حتى ولو اتجهت كل أصابع الاتهام إليك، هذه إرادة الحكيم العليم.. الظروف التي نشأت أنا بها لم تكن بيدي، كل منا بداخله خوف يخصه وحده قد يبدوا بالنسبة للآخرين تافهًا، سهل التخطي، يسير النسيان، لكن بالنسبة إلينا ليس كذلك، لأننا وحدنا من نشعر به ونراه، إذًا فوحدنا يجب أن نواجهه ولا نستسلم له ليُسطر حياتنا كيفما شاء.

أخذت نفسًا عميقًا وأكملت وهي تشد على يدها بحنان:

- ألم تشتاقي أن تكوني أُمًا؟

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

- "أنا لم أفعل شيئًا، صدقني أُغلق باب المكتبة وراءنا.. لقـ.. لقد حاولت كثيرًا فتحه لكني لم أستطع!

دقَّ بعصاه الأرض في غضب:

ـ لقد فتحت الباب بسهولة الآن أمام ناظريك فكيف كان مغلقًا؟

ـ يا معلمي أجبت على نفسك، كيف لنا أن نفعل شيئًا كهذا واحتمالية دخول أي أحد واردة؟

ازدرد ريقه، وقال يستكمل كلامه بوجل:

- أليس من يخطط لفعل كهذا يفعل كل شيء لكي لا ينفضح أمره؟ على الأقل كنت سآخذها بعيدًا عن هنا!

عمَّ صمت مهيب والأعين مُسلطة على المعلم تترقب كلماته التي ستحدد مصير الشابين، قال وهو يركز عيناه في عينيه:

- بئس الفعل فعلكما إن كنتما قد ارتكبتما هذا الإثم العظيم.

ثم قال يوجه كلامه للبقية:

- علينا جميعًا أن نحسن الظن بهما حتى يُثبت عليهما الإثم أو ينفى عنهما.

صدر صوت من بين الحشود:

- وكيف سيتم إثبات ذلك؟

أجابه صوت آخر:

- نزوج الفتاة واحدًا منا ونرى إن كانت مثلما تقول.. عفيفة!

وقفت بعينان محتقنان بالدمع، وعروق بارزة، ويدان مرتعشتان، كادت تقول شيئًا لكنه قال قاطعًا النقاش:

- أنا سأتزوجها إن وافقت.

صاح صوت آخر يوبخه:

- تريد أن تواري فضيحتك إذًا؟ عندما تيقنت أنك ستنكشف قررت الزواج بها، إذا كنت على صواب دع غيرك ينكحها.

- ماذا تقصد بغيري؟

تقدم وقد تكون اللؤم في عينيه على هيئة نظرة خبيثة:

- أنا.

اشتعلت نظراته غضبًا وضربه بقبضته ضربة طرحته أرضًا، وقال معقبًا بغيظ:

- لابد أنك أنت من أغلقت الباب، من غيرك، إنه أنت أيها الحقير.

وقف الأخير يتحسس موضع اللكمة، ودار في المكان صائحًا:

- يريد تلطيخي برزيلته، يهدف لإلصاق خطيئته بحسن خُلقي!

صرخت به وقد فاض كيلها:

- أنا لست سلعة لكي توكلوا أمري إليكم، وإن أذنبت فليس من حق أحد معاقبتي إلا الله ما دام ليس لديكم أي شهود.

ضرب المعلم الأرض بعصاه ثانية يفض نزاعهم، فسكن الجميع، أشار إليهما أن يتبعانه وأن يفض الجمع، ولا يتم الحديث في الأمر أبدًا، ومن يفعل ذلك فله عقاب شديد."

سألتها "لارين" وقد غضبت وتأثرت:

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

تنهدت بعمق:

- أخذني المعلم و"نقاء" وطلب أن يسمع ما حدث تفصيلاً مني، فأخبرته أن "نقاء" وجد المجموعة القصصية التي كانت والدتي تحكيها لي في صغري، ذهبت معه إلى المكتبة وبالفعل وجدت نسخة منها، جلسنا سوية وقد أصر أن أقرأها على مسامعه، وعندما لاحظت تأخر الوقت هممنا بالخروج لكن الباب كان مغلقًا من الخارج ولم نجد أحدًا سوانا، ظل يحاول أن يفتح الباب لكن بدون جدوى، طلب مني أن أتفقد الباب الخلفي لكنه كان أيضًا مغلقًا بإحكام، أعطاني معطفه وطلب مني أن أجلس عند الباب الخلفي وإن سمعت أي حركة سأنادي لأحد ليفتح لنا، وقال أنه سيجلس عند الباب الأمامي ليفعل الشيء نفسه. ثم فوجئنا صباحًا بحضرتك وبالبقية تقفون عند الباب تترصدون لنا وهناك من يتهمنا بفعل المعصية، لكن صدقني صدقني لم نفعل شيئًا.

أكمل حينها "نقاء" كلامي بحدة:

- أنا متأكد أن هذا شيء مدبر لنا يا معلمي، وأنا أشك "بصخر".

وقف المعلم حينها، وقال بنبرة غاضبة:

- لا تتهم أحدًا طالما ليس بين يديك دليل إدانته، ألم تسأل نفسك لماذا لم أرمِكَ خارج الملجة فور وصول الخبر لي؟ وخاصة أنك تعرف أني لا أقبل بالحال المائل.. لكن ليس هناك دليل، ولا يشفع لك عندي سوى علمي المسبق بأخلاق "ليل" وأخلاقك، لولا يقيني ذاك لما رحمكما أحد مني.

انهالت دموعي مدرارًا، فقال يطيب خاطري، وقد لاحظ قسوة كلماته:

- ستتزوجان إن وافقت يا "ليل" وكل تجهيزات زفافكما ستكون بكفالتي، ستبتعدان عن الملجأ تمامًا، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، فما قولك؟

عانقت أصابعي بعضها ببعض وهززت كتفيّ بنفاد صبر علامة على أني موافقة:

- لقد كنت أحب "نقاء" لكني لم أتخيل أبدًا أن أتزوجه بهذه الطريقة، وبالرغم من سعادتي إلا أن نظراتهم لي كانت تنخر داخلي حتى أني بكيت بكاءً مريرًا،

لم يصدقني أحد خاصة أني رفضت أن أُعرض على طبيب فقد كنت أستحي من ذلك سوى"نسيم" لقد دافعت عني ورَدت غيبتي، حتى أنهم كانوا يخشون أن يتكلموا عني أمامها، بكت على بكائي وقلة حيلتي وهواني عليهم، حتي بعث الله دليل براءتي على لسان أحد فتيان الملجأ "أريون" لقد كان و"صخر" دائما الخِلاف مع "نقاء"، أتى قبل ليلة زفافي إلى المعلم وأخبره أن "صخر" هو من كاد بنا، وقد أجبره على أن يشارك في هذه الخطة الخبيثة: "فكما تعلم يا معلمي الجميع كانوا يثقون ويحبون "نقاء" حتى أنت، لكن "صخر" لم يحتمل إيثار "الليل" عليه، وعندما عَلم اسم المجموعة القصصية، اشتراها من مصروفه الخاص ودخل المكتبة و"نقاء"هناك كما هي عادته فوضع بجواره القصص وذهب وكأنها محض صدفة، بالطبع فَرِح "نقاء" وذهب ليحضر "الليل" لأنه كما تنص قوانين المكتبة العامة لا يسمح لأحد بأخذها خارجًا، وكان "صخر" يتربص بهما حتى دخلا إلى المكتبة في اليوم الذي كان "ربيع" حارس المكتبة فيه يستأذن لزيارة أبناءه، أغلق "صخر" الباب وراءهما وجعلني أراقبهما طوال الليل عَبر ثقب أحدثه في الجدار، وحذرني إن اقترب للمسها أن أُحدث جلبة ولا أدعه يفعل أبدًا، ويمكنك التأكد من كلامي إذا سألت "ربيع" عن وقت ضياع المفاتيح الخاصة بالمكتبة والتي عثر عليها "صخر"، أو بتعبير أدق أعادها بعد أن أخذ نسخته. "

هكذا قال "أريون" للمعلم الذي وقف في ساحة الميتم وجمع الجموع معلنًا براءتنا وقد كتم السبب الذي أجبر "صخر" به "أيرون "على مساعدته انقيادًا لطلبه وقد كان اعترافه بحقيقة ما جرى شفيعًا له، بينما طُرِد "صخر".

أما عني فلم يزدني سماع الخبر إلا بكاء على حالي، لكن جبر الله يؤازرني في كل مصاب، تهافت الجميع عليّ والندم يؤنبهم، لم أرَ في عيون أحدهم فرحة كالتي حملتها "نسيم" وهي تلفها بدموعها.

وضعت يدها على فؤادها بعد تنهيدة قطعت سيل دموعها:

- لقد كانت علاقتي بـ "نسيم" قبل تلك المحنة شيء وبعدها شيء آخر تمامًا، لا أدري كيف أصف لك لكنها كانت أشبه ما يكون باسمها، أشهد الله أني لم أرَ منها إلا خيرًا كانت سندًا وحِصنًا، دفئًا وأمنًا، مواساة وجبرًا.

جلست بجوارها تمسد كتفها، وهي تعتذر بأسى:

- سامحيني إن سألتك عن "نسيم" لم أقصد..

قاطعتها بإيماءة نافية، ثم أضافت:

- لا عليك يا ابنتي، لا عليك فليس بكائي على الذِكرى وإنما على فقدان صاحبتها.

دارت بعيناها المظلمتان تبحث عن ومضة نور لكنها سرعان ما يئست، فاستسلمت لخاطرها وشاركته إياهما:

- ليس كل من اختلى في الليل انتوى الخطيئة، فقد اضطررنا آنذاك، لكننا راقبنا الله تعالى وما كنا لنعصيه بنعمة أهداها لنا، صحيح أن أحدًا لم يصدقنا ومسحوا من ذاكرتهم أخلاقنا ومواقفنا النبيلة مقابل شك، لكن في نهاية الأمر ظهر الحق وبطل ظنهم، ولم يتبقَ لنا من هذه الذكرى إلا نقاءها.

دقات الباب تتابعت فغابت معها "دفء" تنظر من الطارق، تفاجأت عندما رأت "خسوف" واقفًا أمامها يطلب منها أن ترسل "لارين" معه بطلب من العم "رحيم"، احتدت:

- لماذا؟

- لو كنت أعلم لأخبرتها ورحلت.

أكملت بنفس النبرة الغاضبة:

- حسنًا اذهب أنت، وأنا سآتي بها.

استوقفها قبل أن تغلق الباب:

- طلب إليك البقاء مع العمة "ليل" وألا تتركيها بمفردها لأن العم "نقاء" عنده.

❄❄❄❄❄❄❄

- أنتن معشر النساء لا تغفرن بسهولة.

ترقب وقع كلماته عليها، قالت بهدوء يمازجه الحزن:

- نحن لا ننسى الإحسان، ولكن يصعب علينا تخطي الخذلان خاصة إن كان ممن نستثنيه.

لم يجد ما يقوله فدائمًا ما تصعب عليه المواساة فيتخذ الصمت سبيلاً، تضايق لجعلها تفكر فيما يحزنها، فقال يبعدها عن حطام الأفكار لكن بدون وعي منه دفنها تحته:

- أتحبينه؟

- لا أدري، أعني أني عند.. عندما يبتعد أشعر بالوحدة والوحشة وأتمنى عودته، وعندما يكون بجواري أشعر بالخوف من ابتعاده وفقدانه!

- أليس هذا حبًا؟

هزت رأسها نافية، وقالت جازمة:

- بل أنانية.

- لما تقولين هذا؟

تجمعت الدموع في عينيها:

- لأن هذا ما أشعر به، أنت لن تفهمني لأني لا أفهم ذاتي، في كثير من الأحيان يغلبني شوقي إليه فأبكي كفتاة صغيرة، ضعيفة تحتاج أن تأوي إليه لتستعيد قوتها، وأحيانًا أخرى أخشى أن يحدث شيء يحرمني منه كما حدث مع أبي وأخي.

قالت تنهي الحديث إلى غير رجعة بعد أن ضاق صدرها:

- أرجوك لا أريد الكلام في هذا الأمر.

انقاد لطلبها طواعية:

- هل لي بسؤال؟

هزَّت رأسها إيجابًا، فسأل بعد دقيقة تفكير:

- إن قرر أحدهم، ليس أنا إنما أحدهم قرر أن يتوب بلا رجعة عن أمر كان يفعله، لكنه أخطأ وشارك سره هذا لبشر.. بشر قريب جدًا منه، وهذا الشخص يؤنبه دومًا على ذنبه دون رحمة، حتى أن أحدهم هذا كلما رأي الشخص تذكر ذنبه تلقائيًا، ماذا يفعل؟

نظرت إليه بطرف عينها، وابتسمت:

- على أحدهم أن لا يخبر أحدًا بذنب ستره الله بعد ذلك، أما ذنبه الذي قاله فربما هذا من حكمة الله، كي لا تعود.. أقصد لا يعود إليه، لأنه كلما رأى الشخص آلمه ضميره.

ضحك كلاهما لكنه سرعان ما استعاد جديته:

- لكن أحدهم هذا يريد للشخص أن يتقبله، ويساعده على البدء من جديد.

- إن رأى ذلك الشخص صدق أحدهم وحسن نيته، فسيسامحه.

- هل هذه قناعتك فعلاً؟

تعجبت لسؤاله، فاستدركها قبل أن تجيب:

- تمسكي بكلامك إذًا فهناك مفاجأة تنتظرك، لنرى هل أنت مثل الجميع تكتفين بالكلام ولا توثقينه بفعلك، أم أنك تطبقين ما تقولين.

- ماذا تقصد؟

- ستعرفين كل شيء في موعده.

طرق الباب ففتح لهما العم "رحيم" الذي رحب بهما، استأذن "خسوف" تاركًا علامات الاستفهام تنهش رأسها "ترى هل "هادي" بالداخل؟ هل كان يقصد أن أغفر له؟ "



- لقد تربيت في هذا الملجأ كما تعلمين، أنا سريع النسيان لذلك لا أذكر غير القليل عن طفولتي وشبابي، الأمور التي كان أثرها بليغ في نفسي فقط هي ما يحتفظ عقلي بها، لا أدري إن كانت هذه صفة جيدة أم لا، لكني كنت أشتاق دومًا أن أجد لنفسي صورة لي دون أن تكون بجوار بقية فتيان الملجأ، أن تُلتقط بواسطة أبواي!

نظرت إليه بشفقة:

- إذا كان هذا يضايقك فلما أتيت بي إلى هنا؟

تجاهل سؤالها مكملاً:

- كنت حريصًا أن ألتقط العديد من الصور لـ "جاسر" منذ لحظة ولادته حتى بعد أن شبَّ، كان يعلم أمنيتي في أن أعرف أكثر عن صباي، وأتذكر ما مضى.. منذ طفولته كان فذًا ولماحًا، يبهرني بذكائه الوقاد.

أنزل الحقيبة التي على ظهره وأخرج منها بوصلة، ذهلت "الارين" عندما رأتها معه لقد كانت نفسها التي وجدتها في الغابة ودفنتها مع الكتاب، تسارعت دقات قلبها وتجمدت يداها رغم أنها لم ترتكب جرمًا، دارت الدنيا بها وهو يستكمل:

- أخبرني أنه اخترع بوصلة بها بصمة إصبع، إن وضعت بصمة إبهامي بها فسوف تقرأ كل ما في ذاكرتي، وتحدد الطرق التي مررت بها والأشخاص الذين كانوا حولي وكلامهم، في البداية أعرضت عن هذه الفكرة خوفًا من مواجهة الماضي.

افترش الذعر وجهها:

- لهذا التصقت بإصبعي وحدث وميض.. كانت تقرأ ذاكرتي!

- نعم، سامحيني لقد قرأت أفكارك.

شعرت بالاستياء وقد بدى على وجهها لكنه تجاهل ذلك، فهي عبثت بأشيائه أولاً وأعطت لنفسها حق الاطلاع عليها، تساءلت:

- لكن كيف قرأ أفكاري، ألم تكن مصنوعة لقراءة خواطرك أنت فقط؟

- لا، إنها تحتفظ بذكريات كل من يضع بصمته عليها.

قال جملته السابقة وهو يخرج الكتاب الشفاف من حقيبته:

- لقد احتفظت بقصتي أنا، وزمن، ونقاء، وليل، ونسيم، وجاسر، ونجم، وأنتِ.

صنع "جاسر" هذا الكتاب وصممه بطريقة مبهرة عجزت عن فهمها، كل مفتاح من هؤلاء يحتوي قصة كل واحد فينا، ما عدا مفتاح واحد فقط الخاص بـ "بحر" احتفظت به حتى أدون له قصته معنا.

- كيف عثرت عليه؟

استمر في تجاهلها:

- هذه البوصلة مقدرتها مذهلة، ولكن بالرغم من ذلك إلا أنها تخبرنا بالماضي على هيئة خواطر وأحداث، تحتاج كاتبًا يجيد السرد لكن أفكاره لا تكتمل أبدًا.. مثلكِ.

أحسست بأن هذا مهين أكثر من أنه مدح، لكنه على حق! دائمًا ما كانت نصوصها مبتورة لا تستطيع إكمالها، قالت:

- ما المطلوب مني؟

- أن تكملي ما بدأه "جاسر"

- لكني أعلم أنه مات منذ سنوات طوال، فلماذا الآن؟

تنهد تنهيدة طويلة وهو يخرج المنديل الملطخ بالدماء الجافة:

- عندما قرر "جاسر" أن يتزوج "دفء" اتفق معي أنه سيدفنه أسفل شجرة الأقحوان حتى لا يقع في يديها وتغرق الغيرة حياته، بعد أن أحرقتها أنانية "روح" التي اختفت ليلة زفافهما، لم يعد لها أي أثر ولا حتى رسالة واحدة، تركت هذا المنديل فقط، وخاتم زفافها ذو الفص البني، لقد كان ذلك الفص قطعة من الألماس لكن "جاسر" استبدلها بواحدة من الكريستال تعبيرًا عن غضبه ربما، أو إكمالاً لاختراعه.

- كان عليه أن يخبرها بالحقيقة، لماذا لم يكن صريحًا معها؟!

- ما الذي كان سيتغير؟ هي لم تكن في حياته عندما كان يحب "روح" هناك بعض الأشياء يجب أن تظل سرًا إن كانت ستؤذينا.

- لكن هذا حقها أن تعلم إن كانت هناك من سبقتها لقلبه.

- وهل سيزيدها هذا إلا غير وحسرة أنها لم تكن الأولى!

- بالتأكيد إنها تشك في ذلك، ليس هناك شاب يصل إلى الثلاثين من عمره إلا وقد مر بالكثير من التجارب.

- أن تشك خير من أن تكون على يقين.

صمتت والضيق يملأ صدرها، فقال بنبرة جادة:

- لم أفكر أن أخرج الكتاب من مكانه حتى بعد موت "جاسر" احتفظت بالمنديل الذي سد به جرحه، كان ذلك المنديل الخاص بـ "روح" ولم يفارقه أبدًا، لذلك وضعته في ظرف ووضعت فيه خاتمها، ودفنتهما مع الكتاب.

جلس على الأرض فجلست بجواره، لأول مرة كان العم "رحيم" يتكلم معها بهذه الغلظة، إنه حتى لم ينظر إليها ولا مرة، قال وهو يخلل أصابعه في شعر لحيته:

- في صباح اليوم الذي أتيتِ إلينا فيه طالبة العون، وجدت مكان الكتاب منبوشًا، فبدأت أحفر حتى تيقنت من ظني، مشيت على غير هدى أبحث عنه حتى سمعت صوت بكاء مرير، لقد كانت "كسوف" تقرأ ما فيه لا أعلم كيف توصلت إليه ومزقت الصفحات الأخيرة كما ترين، فهمت من نحيبها وكلامها اللائم المتألم أنها كانت تحبه في صمت، رمت بالبوصلة بعيدًا، انتظرت رحيلها حتى آخذها لكن سنجابًا أخذها وركض، ظننت أني فقدتها للأبد، لا أدري لماذا لما أجرؤ على الخروج وقتها، لكني خشيت من نظرات اللوم والعتاب، لم أكن أحتمل أن أرى ألمًا آخر، داست على الكتاب ومشت، انتظرت ابتعادها وعندما هممت بالاتجاه إليه وجدتك أنت قد تعثرت فيه وغلبك الفضول لفهمه، جلست أراقبك قليلاً لعلك تتركينه وترحلين لكنك لم تفعلي، فهممت بالخروج لأخذه منك دست على غصن ما ففزعت وركضت، وبالطبع أنا لم أستطع اللحاق بك بسبب كبر سني، وعندما عدت للمنزل ونزلت لغرفة "جاسر" وحفرت أسفل مكتبه، وأخرجت الجهاز الذي تظهر عليه الذكريات مكتوبة وملحقة بالصور، قرأت كل ماضيك.. حينها قلت لما لا تكتبي ماضي الأيتام وتحققي حلمك في الكتابة، لتكن بداياتهم وحيًا لك وجبرًا لهم، نصنع مكتبة عملاقة تخص حياة كل منهم، يقتدي بها القادمون.

كان يتحدث بحماس، بينما بالها منشغل بأمر آخر سرعان ما أفصحت عنه:

- ماذا عن "كسوف"؟

- ضريبة الصمت غالية يا ابنتي، علينا أن نحارب لأجل من نحب.

نظر أمامه مبتسمًا فإذا بـ "خسوف" يقترب وبجواره "هادي" قال:

- ألم تقولي أن الصادق يستحق أن نسامحه ونعطيه فرصة؟ لم أرَ في حياتي محبًا وصادقًا مثل هذا الرجل.

نظر إليها "هادي" بتأثر عندما لاحظ عيناها الملتهبتان من البكاء، عندما رأته أمامها ارتجفت أوصالها وهربت الدموع من عينيها مدرارًا، أرادت أن ترتمي بين ذراعيه لكنها تماسكت وأبعدت عيناها عنه، وضعت "دفء" يدها على كتفها فنظرت إليها ذاهلة، اقترب منها "هادي" وأمسك كفها، أحس بالبرودة فيه ومن ثَم سقطت مغشيًا عليها.



- الدنيا صغيرة للغاية، حمدًا لله أن "هادي" أنقذ الفتاة.

- نعم لقد أراحني من عذاب لازمني لسنوات، لم أصدق عندما أخبرتني بما قاله لك عمي "رحيم" لولا التفاصيل لما صدقت أنها فتاة الصحراء نفسها!

- حمدًا لله أنها نجت وأصبحت بخير.

- "لارين" أيضًا ستكون بخير، لا تخافي.

رأته يقترب من بعيد راكضًا، ظننته يتجه نحوها لكنه تفاداها قاصدًا "هادي":

- كيف حال زوجتك؟ ما الذي حدث؟

هز رأسه في علامة للتوتر، فضغط على كتفه يثبته:

- ستكون على ما يرام صدقني.

نظر حوله فوجد "دفء" تقف بجوار شاب، فأكلته الغيرة وتوجه ناحيتها وهو يبدل نظراته بينهما، قالت تزيل شكوكه:

- إنه "خسوف" مثل أخي.

مد يده لمصافحته وهو يضحك لها، فهو لم يطلب توضيحًا لكن ذلك طمأنه بعض الشيء، فتحت الطبيبة الباب فركض الجميع نحوها، قالت:

- هناك حمل كاذب في رحمها.

- ما معنى ذلك؟

- يعني حمل بلا جنين.

توجموا جميعًا مما قالت، وضغط "غيث" على كتف "هادي" الذي استقبل الخبر بهدوء مريب، سألها قبل أن تذهب:

- هل يمكنني الدخول إليها؟

أومأت برأسها إيجابًا موضحة:

- هي بخير.

دخل إلى الغرفة فوجدها جالسة وعيناها زائغتان في الفراغ، جلس إلى جوارها وأمسك كفاها وهو يمسح على خدها بحنان:

- ستكونين على ما يرام.

هربت دمعة من عينها واستقرت في يده، فقال وهو يوقف سيل تابعاتها:

- عندما غبت عنك الأيام الماضية كان لأجل مفاجأة أعدها لك، ولم أكن أريد أن تعرفي إلا عندما تنتهي تمامًا.

اعتدلت في جلستها، قالت والسعادة تلمع في مقلتيها:

- ما هي؟

- سترين بنفسك.

طرقت "دفء" الباب طرقة خفيفة ودخلت لتراه يسند رأسها على كتفه ويمسك كفها، نظر "غيث" لـ "دفء" بابتسامة شغوفة فاستحت منه واحمرت وجنتاها، لاحظت دموع "كسوف" وهي تبدل نظراتها بينها وبين "غيث" اقتربت ونغزتها في كتفها، فقالت مبررة:

- لن يحدث ما تفكرين فيه، سأظل مخلصة لـ "جاسر"

تأملتها، وقالت بنبرة شنقها الحزن:

- لو لم يخسر والدك مناقصته، ولو لم تمت "لُطف" لما أُصبتِ في الحادثة، ولما عثر عليك عمي "رحيم" وأنقذك ولما تزوجك "جاسر" لو لم يحدث ذلك كله لربما تزوج "جاسر" فتاة أخرى تحبه كثيرًا ويحبها.. ولكنتِ أنت زوجة "غيث"

رانت إليها في ذهول، لم يسبق لها أن قالت ذلك:

- ماذا تقصدين؟

- أنت لم تكوني الوحيدة.

تزايدت الحيرة في قلبها:

- أتخفين عني شيئًا؟

تراجعت عما كانت ستقوله:

- لا، أقول فقط بأن الحياة مازال بها الكثير بعد، فلا ترسمي حول نفسك الوحدة.

- ماذا قصدت بأني لم أكن الوحيدة؟

شدت ذراعها بعد أن آلمتها أصابع "دفء" وقالت:

- لا تضيعي حياتك عبثًا في حب رجل لم يحبك، أقول لك الكلام الذي تمنيت لو قاله أحد لي في الماضي.

- ماذا تخفين عني؟



- بعد اختفاء "روح" أصر "جاسر" أن ينتقل ليعيش في بيت الشجرة، لقد أراد أن يواجه مصدر خزيه وخيبته، فهو لم يعتد على الهرب، وقد علم هذه الصفة لـ "دفء" التي أكملت حياتها في بيت أمام قبر زوجها، دست نفسها بين الذكريات تلتمس دفئًا من هذا الفقد المفاجئ الذي عانته.

نظرت لعينيه، كادت تقول شيئًا لكنها تراجعت عنه، تريده أن يساعدها لإقناع "دفء" بزواجها من "غيث" لكنها لم تجرؤ على مصارحته، فوجدت نفسها تغير مسار الحديث:

- "مآب" هو اسم الكتاب إذًا؟

- أجل لقد صممه "جاسر" بهذا الشكل الضبابي الملفوف حول القمر، للدلالة على الليلة القمراء التي وجدتني فيها المعلمة وضمتني لأولاد الميتم.

ومعنى هذه الكلمة "المَرجع" أي الأساس الذي جعل جاسرًا يبتكره.

- يا ألـٰهي! ماذا عن شفافية صفحات الكتاب؟

- في كل صفحة هناك صورًا تضم أهم نقاط حياة كل من أبطاله، والتي تمثل نقلة جذرية في شخصيته، ومجرى حياته.

- كيف تظهر هذه الصور إذًا؟

أغلق "رحيم" الكتاب ونظر إلى كعبه، ثم ضغط على حافتيه فظهرت فتحة، أخرج زجاجة مستطيلة من جيبه بها رمال زرقاء، وقام بوضع القليل داخل فرجة الكتاب، ثم أغلقها فتحول لون الكتاب للون السماوي، وبدأت الصور في التكون بشكل مذهل ومتقن، وألوان زاهية بديعة التنسيق.

تناولت "لارين" الكتاب منه وهي تنظر للصور مشدوهة، رأت رضيعًا متروك بجوار قبر، وأطفال يلهون معًا، وشابًا يودع رفاقه وهناك من تراقبه من النافذة، وأمًا تبكي لفقد صغيرتها، وامرأة متكورة أمام لوحة عملاقة تبكي..

سألته وهي تغلق الكتاب وتشير للغلاف:

- المكتبة التي كانت في الكتاب ما هي إلا لوحة عملاقة!

أشار برأسه أي نعم، ثم قال:

- كانت علاقتنا قوية نحن الخمسة قوية جدًا، وعندما وجدت "نسيم" هذا المكان كما أخبرتك خبأنا كل متعلقاتنا التي نحبها هنا، وأصبح هذا المكان مخبأنا، نبكي، نضحك، نكتب كل شيء يحدث هنا في معزل عن العالم.

وعندما كبرنا قليلاً وتخطينا المراهقة قررنا أن نبني جسورًا خمسة تربط بين اليابسة ومقرنا.

- لماذا خمسة؟

- على عددنا.

- أما كان يكفي أن يكون واحدًا فقط؟

- لقد علمتنا تربية الملجأ أن لكل منا حياته الخاصة، وطريقه الذي لن يمشيه معه أحد، لقد رُمينا من أرحام أمهاتنا فاعتدنا أن نحتاط، لربما كُسر الجسر، من يأمن!

قد لا تري هذا تفسيرًا منطقيًا لكنه مطمئن بالنسبة إلينا.

رانت إليه بتفهم، ثم سألت:

- لماذا لم تخفوا المفاتيح بجوار قبر "جاسر" مع الكتاب؟ لماذا صنعتم لها تمثالاً!

- بعد رحيل "روح" كان "جاسر" يجلس معظم وقته بين القبور، لم يكن يسمح لأحد بمرافقته أو الاقتراب من مكانه، كان هنا بين القبور التي قيل لي أنهم عثروا عليّ بينها، أمضى شهورًا يغيب معظم النهار وبعضًا من الليل، في هذه الأثناء كانت "كسوف" هي من تواسيه دون أن تعلم أن سبب حزنه فتاة! بنت معه التمثال الذي يخلد به ذكرى "روح".

كان يدللها قائلاً: "غزالتي" وقد اتفقا على تسمية ابنتهما "شادن"، قبل رحيلها أهدته ساعة رملية رمالها زرقاء، كسرها عندما علم أنها رحلت وتركته، ثم أكله الندم بعدها فنقشها على عنق الغزال.

صمت قليلاً ثم أكمل:

-"روح" علمته البعثرة فأصبح يضع كل شيء في مكان مختلف، اعتاد على الشتات من بعدها.

نظرت إليه آملة أن يتفهمها:

- لقد عاش "جاسر" حياته كما أراد، و "دفء" تريد أن تقدم ما تبقى لها من عمر قربانًا لفكرة أنها حبه الوحيد، ومما قرأت أيقنت أنه لم يحب أحدًا بعد "روح" بينما "غيث" يحبها كثيرًا، لن يقنعها أحد غيرك.

أتت من خلفهما:

- بماذا سيقنعني؟

نظرا إليها فإذا بعيناها محتقنان بالدمع وفي يدها المنديل:

- لماذا لم تخبرني عنها يا أبي؟

ثم نظرت إليها بنفس لوامة:

- أكنت تعرفين أنت أيضًا يا "لارين"؟

ضغطت "لارين" على بطنها تقاوم ألمًا اقتحمها فجأة:

- صدقيني الأمر ليس كما تفهمين.

- أنا لا أفهم شيئًا، أنا هنا لأفهم، أكان ينساها بي؟ هل كان هذا ما ترمي إليه "كسوف"؟

- هذا ليس صحيحًا يا ابنتي.

- ما هو الصحيح إذًا، هه ما الصحيح؟ ألهذا السبب رفض الإنجاب؟ يا للقدر! لقد أخفيت عني هذا الكتاب كل هذه السنوات لأستيقظ اليوم وأجده على طرف سريري، لم أستوعب ما قرأت ودخلت إلى الحمام أبكي وعندما خرجت لم أجده ولم أعثر عليكما أيضًا.

تبادلا نظرات قلقة، ثم سطا الغضب على ملامح "رحيم" فعندما نزل مع "لارين" للتمشي وإكمال حديثهما المبتور كانت "كسوف" هي من أحضرت الكتاب لهما بعد أن بحثا عنه طويلاً، لابد أنها هي من وضعت الكتاب على سرير "دفء".

أخرجت"دفء" لوحة لفتاة ترفع ذراعيها في الهواء، وخصلات شعرها الكستنائي تتطاير في الجو:

- لقد جعلني أرسمها! جلس بجانبي يومًا وكنت أرسم فأخرج ورقة بيضاء وأملى عليّ التفاصيل التي يريدها، وعندما اكتملت اللوحة قال: إنها مثل نبضة القلب الأولى، إنها "روح" ظننته يصف اللوحة!

اقتربت منها لتحتضنها فدفعتها:

- يا لي من ساذجة أردت أن أعيش على ذكراه بينما كنت معه وهو يتنفس من حب أخرى، من يعلم كم مرة تخيلها وأنا معه، بل كم مرة رآني أنا وليس صورتها!

كيف كنت بهذا الغباء، اللعنة على اليوم الذي عرفته فيه.. اللعنة عليه جعلني أعيش في المنزل الذي صنعوه معًا، ودُفن بجوار الشجرة التي زرعتها!

بكت بكاء زعزع روحها:

- كنت أظن أني محور حياته فاكتشفت أني مجرد هامش.

نظرت إليهما واللوم يعصر قلبيهما، ركضت فجرت "الارين" وراءها وهي تناديها مرارًا، انقطعت نداءاتها فجأة فنظرت وراءها لتجد "الارين" تتقيأ فعادت إليها والحنق والخوف يتنازعان في صدرها.

❈❈❈❈❈❈❈

بعد ما يقارب الاسبوع..

كان هناك طائر يحلق فوق رأسيهما فنظرا إليه، إنه العقعق، قالت ساخرة:

- خرافة!

كانا يسيران بمحاذاة البحر على فرسان أبيضان، أمسكت "الارين" بلجام حصانها وركضت به فتبعها "هادي" وهي ترفع صوتها الضاحك:

- كنت أحلم بركوب خيل، لكني لم أظن يومًا أنه قد يتحقق.

- لن أترك شيئًا في نفسك إلا وأجعله واقعًا، رغبتي الوحيدة هي رضاك.

اقتربت بفرسها من خيله وقبلت جبينه وهي تقول محتفظة بنبرتها السارة:

- لا أصدق أن حفل زفاف "دفء" سيكون بعد أسابيع من الآن! من كان يصدق أنها ستفعلها، وأنها ستكفل "لُطف" الصغيرة!

- إنه الحب يا عزيزتي، أنت لم تري كيف كان "غيث" يتحدث عنها بشغف وشوق.

- ما كنت أخشاه هو أن يظل "العم رحيم" بمفرده، لم يأتِ ببالي أبدًا أن "العم بحر" سيعيش معه.

- تقبله الأمر بصدر رحب في حد ذاته يبهرني.

قالت في ذهول:

- أرأيت صدمته عندما علم أن "غيث" كان يحدثه عن "دفء" عندما قابله، كان يواسيه بأنه سيجدها، وفي نهاية اليوم أنقذها وأحضرها لبيته وهو لا يعلم أنها نفس الفتاة... إنها دنيا عجيبة!

- على ذكر "السيد رحيم" على ماذا اتفقتما في أمر الكتاب؟

- سأبدأ فور تعافيّ في تدوين قصص من يرغبون في معرفة ماضيهم بشكل روائي، دائمًا ما كانت تنقصني الفكرة لتكتمل نصوصي المبتورة، أما الآن فقد أوتيتُ الفرصة على طبق من ذهب، هل تعتقد بأني سأنجح؟

- أنا مؤمن بذلك سكتا قليلاً، فأفصح "هادي" عما يدور في خاطره مغيرًا سياق الكلام دون أن يدري:

- ما يشغلني هو كيف قبلت "دفء" الزواج منه بعد أن كانت ترفضه كما أخبرتِني!

- لقد لاحظت انجذابها إليه منذ البداية لكن فكرة الوفاء لـ "جاسر" كانت تقيدها عن الإفصاح بذلك، وعندما انهار ذلك الجدار تحررت المشاعر المكبوتة.

- أم تراها تنسى واحدًا بواحد؟

- لا أظن ذلك، فقد مات "جاسر" منذ وقت طويل، مشاعرها عبارة عن إمتنان ووفاء قُضي عليها عندما قرأت قصته مع "روح".

نزل من على حصانه وحملها من خصرها ليُنزلها، ثم قبَّل رأسها:

- دعينا من كل شيء الآن، اشتقت للنظر لعينيكِ، وهذه الشامة الصغيرة في جفنكِ الأيسر.

ضحكت على استحياء قالت:

- ما رأيك أن نتسابق؟

- تسابقنا كثيرًا، أما الآن فأريد أن نقف ونتنفس.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

لاريــن

تماسكت في الوهلة الأخيرة، فتحت عينيها ونظرت إلى أسفل من فوق المنحدر فملأ الجزع قلبها وهرعت الخلف، ما عادت قدماها قادرتين على التماسك فانهارت على الأرض وهي تحاول جمع أنفاسها، أوشك خافقها أن ينتفض من بين ضلوعها، فقد نجت للتو من موت محتم.

تصميم عبدالله عيسى

